المجلس الأعلى للثقافة

الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق

مفكرًا وأديبًا ومصلحًا



المجلس الأعلى للثقافة

الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق

مفكرًا وأديبًا ومصلحًا

القاهرة
١٩٨٢

تصـــدير

تقوم لجان المجلس الأعلى للثقـافة ـ كل منها فى مجال نشـاطه ـ بتحقيق مشروع يهدف الى « تكريم الشبوامخ » ، وفى اطار هذا المشروع تصدر لجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس كتابها هذا عن الشيخ مصطفى عبد الرازق وفى الوقت الذى تضطلع فيه اللجنة باصدار هذا الكتاب قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن يعلن عن مسابقة أدبية لعام ١٩٨١ تحت عنوان : الشيخ مصطفى عبد الرازق عضـو المجمع مفكرا وأديبـا ، وجعل المسابقة مفتوحة لجميع كتاب القلم العربى ورصد لها جائزتين ماليتين (١) وقد رأت اللجنة العليا للاعداد للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر الشريف أن يكون بين فقراته التنويه بالشيوخ الذين تولوا مشيخة الأزهر وذكر دورهم فى الدعوة والفكر الاسلاميين وسيكون لشيخنا نصيبه من هذا التكريم ٠

ومنذ أن استأثرت رحمة الله بشيخنا الأكبر وحفلات التأبين واحياء الذكرى تتتابع وتتتالى تقديرا له وعرفانا بجميله ، وفى مقدمتها احتفال الجامعة (بالقاهرة) وقد كان من خطبائه : عبد العزيز (باشا) فهمى رئيس حزب الأحرار الدستوريين وقتذاك ، وطه حسين ومنصور فهمى وغيرهم ، وحفلة ثانية أقيمت احياء لذكرى الفقيد بكلية الآداب بجامعة المنيا من ١٩٧٥/٣/٣٠ الى ١٩٧٥/٤/١ ننشر فى هذا الكتاب ستة بحوث ألقيت بها للدكاترة والأساتذة : عثمان أمين وحسن محمود وسعيد زايد وسعيدة محمد رمضان وأحمد فؤاد كامل وسالم مصطفى عبد الرازق ، وثالثة أقيمت فى قاعة ايورت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٤ ونحن ننشر هنا خلاصة ما قيل فيها نقلا عن جريدة الأهرام فى اليوم التالى ٠

ووضعت عن شيخنا مفكرا وأديبا ومصلحا كثير من الرسائل العلمية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر وفى

---

(١) تقدم للمسابقة ثلاثة فاز أحدهم بجائزة

جامعة المغرب بالرباط ... كما صدرت عن شيخنا مجموعة ضخمة من البحوث والمقالات وضعها زملاؤه وتلاميذه الجامعيون اشادة بفضله وتخليدا لذكراه .

واقتدى به وواصـــــل رســـالته كثرة من حوارييه الذين اضطلعوا بالتدريس الجامعي بعده ومن هنا ظل مصطفى عبد الرازق حيا بيننا مؤثرا فى حياتنا .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وجعل الجنة مثواه ، وأجزل ثوابه لقاء ما قدم لتلاميذه وعارفيه من عطاء وما زودهم به من قيم عليا ؟

د. توفيق الطويل
مقرر لجنة الفلسفة والاجتماع

مصطفى عبد الرازق

رئيس مدرسة

بقلم

الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور
رئيس مجمع اللغة العربية

لقيته ، رحمه الله ، لأول مرة في باريس عام ١٩٣٢ ، وقضينا أياما في مؤتمر المستشرقين بهولندة ، ذلك المؤتمر الذى شاءت مصر أن تعرض فيه مقترحها الخاص بحروف التاج التى لم تقدر لها حياة · ثم توثقت صلتي به على أثر عودتي من بعثتي الى القاهرة عام ١٩٣٥ ، وزاملته اثنى عشر عاما في ميدان العلم والسياسة ، وأكرم به من زميل ، عرفت فيه الانسان ، والصديق · والباحث والمحقق ، والسياسي والوزير ·

وقل من توفر له من المعاني الانسانية السامية ما حظى به مصطفى عبد الرازق : سماحة في غير من ، وصفاء في غير تصنع ، يلقاك ببسمته الحلوة التي ينشرح لها الصدر ، ويطمئن الفؤاد · يحمر خجلا أحيانا في غير مذلة ، ويتسم بتواضع صادق يملأ النفوس مهابة ، فكان كما قال شاعرنا القديم « يغضى حياء ويغضى من مهابته » · يشفق على الضعيف ، ويرأف بالصغير ، ويستصغر دائما عطاءه وان عظم شأنه · وأذكر أن هيئة التدريس بآداب القاهرة شاءت مرة أن تتبرع لعمل خيرى بنسبة مئوية من المرتب ، وكنت جالسا الى جانبه ، فأسر الى بالسؤال التالى : هل تدرى كم مرتبي ؟ وثقوا أنه كان مخلصا في سؤاله ، وما كان يعرف مرتبه حقا ، وكل علمه أن يجزل في العطاء ما وسعه ، ايمانا منه بأن مال الله غاد ورائح ، ولا عليه أن يزيد أو ينقص ·

أما مصطفى عبد الرازق الصديق فكان الود الخالص ، والوفاء النادر ، يرعى صديقه غائبا وحاضرا ، ويشاركه في السراء والضراء · حديثه عذب ، ومجلسه أنس ، ونظرته ثاقبة ، ومواساته شاملة · وأشهدكم أنى لم أعرف أحدا من أصدقائه شكا منه تقصيرا أو عاب عليه تصرفا · بل أستطيع أن أقرر أن زمالته أسبغت على هيئة التدريس بكلية الآداب جوا من الاخلاص والوفاء · ورأس لجنة جوائز فاروق لأول مرة ، وقدر لى أن أكون أحد أعضائها · ولهذه الجوائز قصة طويلة ، وأكتفى بأن أشير الى أنه كان من فرسانها حينذاك : طه حسين ، وعباس العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد أمين ، ومن بينهم من كان يحظى بالغضب السامى ، وكأنما كانت هناك نية مبيتة لحرمانه ، وفى وسعى أن أقرر ، وأنا شاهد

عيان . أن مصطفى عبد الرازق لم يتنكر قط لأصدقائه ، برغم الغضب والرغبة فى الحرمان ٠

ويطول بى الحديث ان عرضت لمصطفى عبد الرازق الباحث والمحقق، فقد كان أديبا رقيقا فى أدبه ، وفقيها متمكنا من فقهه ٠ وفيلسوفا متعمقا فى فلسفته ٠ بين وشرح ، جلا وكشف ، درس وألف ، ورسم فى البحث منهجا يعتمد على الأصول ويشتهد بالنصوص ٠ فعرف بشخصيات لم تكن قد نالت حظها من الدرس والبحث ، أمثال البهاء زهير الذى يمت الى مصر والمصريين بصلة ، وقد أعجب برقته وعذوبته ٠ ووضع الليث ابن سعد ، وهو فقيه مصر الأول ، فى مكانه اللائق به ، وسلط الأضواء بالعربية لأول مرة على الكندى فيلسوف العرب ، والفارابى المعلم الثانى ٠ وعرف لفخر الدين الرازى قدره ومنزلته ، وهو دون نزاع من القمم الكبرى فى الفكر الاسلامى ٠ أما محمد عبده فهو تلميذه وصفيه ، ومن أعرف الناس به ، ويكفى أن نشير الى أنه أسهم فى ترجمة « رسالة التوحيد » الى الفرنسية ، فوضعها فى متناول كثير من الباحثين والدارسين الغربيين ٠

ولم يكن فى وسع مصطفى عبد الرازق أن يبعد عن السياسة . وليته استطاع وتوفر للدرس والبحث ٠ حقا انه لم يكن فى وسعه أن يبعد عنها ، لأنه نشأ فى جوها ، وتربى وترعرع تحت كنفها ، واتصل بكبار رجالها ٠ عرف فى شبابه حزب الأمة ، وأسهم فى الحركات الطلابية بالأزهر فى فجر هذا القرن ، وفى كهولته عد بيته دعامة من دعائم حزب الأحرار الدستوريين ٠ الا أنه لم يأخذ قط فيما أعلم بتلك الحزبية الطاغية المتطرفة ٠ وأريد به ، وهو رجل الخير ، أن يكون وزير الخيرات ، فتولى وزارة الأوقاف غير مرة ، وله فيها تاريخ من حقه أن يكتب ويسجل ٠

ثم قدر له أن يخلف المراغى فى مشيخة الأزهر ، وما كان أجدره بها ، الا أن الأمر لم يخل من صعوبات تشريعية ، فقد نص قانون الأزهر القائم حينذاك على أن شيخ الأزهر ينبغى أن يختار من بين أعضاء هيئة كبار العلماء ، ولم يكن شيخنا واحدا منهم ٠ ورأت الحكومة حينذاك تعديل هذا القانون ، واصدار وأشهد بأنى لسنت من أنصار أمثال هذه التعديلات، لأنها ان جلبت خيرا حينا ، قد تتخذ ذريعة أحيانا أخرى فتح أبواب شرور كثيرة ٠٠ وأشهدكم مرة أخرى على أن الزميل والصديق لم تسؤه معارضتى لهذا فى مجلس الشيوخ ، بل قدرها قدرها ، وحرص بعد أن تولى مشيخة الأزهر على أن نتناول طعام الغداء سويا على انفراد فى بيته ، وكانت لنا أحاديث ما أحلاها وأعذبها ، واتسم كعادته بالحكمة والاعتدال ٠

تلكم ذكريات شئت أن أسجلها فى هذه المناسبة ، وفيها ولا شك عظة وعبرة ، وشيخنا رحمه الله قدوة حسنة حيا وميتا . واسمحوا لى أن أقف قليلا عند الموضوع الذى أعلنت عنه ، وهو : « مصطفى عبد الرازق رئيس مدرسة » ، وفيما قدمت ما أهله بحق لهذه الرياسة . فقد كان فى بحثه رائدا هاديا ومرشدا ، عنى خاصة بالفكر الفلسفى الاسلامى ، فأعد له عدته ورسم منهجه ، وكتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » خير شاهد على ذلك فقد أحاط شيخنا بالثقافة الاسلامية احاطة شاملة : لغة وأدبا ، تفسيرا وحديثا وفقها ، علما وفلسفة . ونهل من حياض الثقافة الغربية ، وأقام فى فرنسا خمس سنوات طالبا وباحثا ، أو أستاذا ومدرسا ، فجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية ، ولاءم بين القديم والجديد .

والتف حوله فى كلية الآداب بجامعة القاهرة نفر من صفوة الطلاب لقنهم درسه ، وعودهم على منهجه ، ففهموا ذلك كله ووعوه . وكانت له عناية خاصة بالنصوص وشرحها ، وتلك سنة أزهرية قديمة ، ومتبعة الى اليوم فى الجامعات الكبرى بأوربا وأمريكا . ويظهر أن جامعاتنا فى أعدادها الكبيرة وزحمتها الشديدة أصبحت لا تعيرها كل ما تستحق من عناية . واستطاع مصطفى عبد الرازق بطريقته أن يحبب تلاميذ المدارس الثانوية فى الكتب الصفراء ، وأن يفتح أعينهم على مراجع الثقافة الاسلامية المختلفة ، ومنهم من أضحى حجة فى بعض أبوابها ، وعمدة فى فرع من فروعها . ووجههم أيضا نحو نشر النصوص وتحقيقها ، واستطاعوا فى الأربعين سنة الماضية أن يزودوا المكتبة العربية بزاد وفير . ولم يفته أن يلفت نظرهم الى البحث عن المخطوطات القديمة وجمعها ، ولم يتردد فى أن يضع تحت تصرفهم ما توفر لديه منها ، ومن الأمثلة على ذلك « رسائل الكندى الفلسفية » التى تعد ثمرة من ثمار هذا التوجيه والمعونة ، وقد اضطلع بتحقيقها ونشرها أحد كبار تلاميذه ، الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده .

أما البحث والتأليف فقد قدم فيهما مصطفى عبد الرازق لتلاميذه نماذج حية رائدة ، عرف بالرجال فى ضوء بيئاتهم السياسية والاجتماعية ، وبرهن على أنهم لم يعيشوا فى برج عاجى بمعزل عن الأحداث والتطورات . ولاحظ بحق أن التوحيد والتصوف بابان من أبواب الحياة العقلية فى الاسلام ، ولهما صلة بالبحث الفلسفى الخالص ، وقد أخذت المدارس الكلامية والصوفية عن الفلسفة ما أخذت . وذهب

الى أبعد من هذا ، ورأى ، وأنا أتفق معه تمام الاتفاق ، أن علم أصول الفقه ضرب من مناهج البحث فى التشريع الاسلامى ، وقد أثرت فى تكوينه عوامل مختلفة ، منها منطق أرسطو بخاصة والفلسفة بعامة : فبدت صورة الحياة العقلية في الاسلام على يديه جلية واضحة ، واتسع فيها مجال البحث والدرس ٠ وفتح بهذا أمام تلاميذه أبوابا فسيحة ، كان من ثمارها تلك الدراسات المتصلة فى الكلام والتصوف والفلسفة طوال الأربعين سنة الماضية ٠

ومما مكن لهذه الريادة والرياسة حنان الشيخ وسعة صدره ، فقد اتسع قلبه لتلاميذه ، وشملهم جميعا برعايته ٠ فكان يلقاهم فى درسه وبيته ، ويستمع اليهم فى العلم وشئون الحياة ٠ وكانوا يسرون اليه بما يشغلهم ، ويعرضون عليه مشاكلهم ، ولم يكن يدخر وسعا فى معونتهم والأخذ بيدهم ، فكان منهم بمثابة الأب من أبنائه ، أو شيخ الطريقة من مريديه ٠ وتلك هى القيادة الروحية التى تنقصنا ، وما احوجنا اليها ٠ تنقصنا فى البيت والمدرسة ، فى المجتمع الصغير والكبير ، وما ألزمها لمنشىء الشباب وقادة الأجيال الصاعدة ٠

ومدرسة مصطفى عبد الرازق معروفة برجالها وانتاجها ، وهم جميعا أوفياء لشيخهم ورئيسهم ٠ منهم من أدى واجبه ، ولقى ربه ـ ولا يزال منهم جمع كريم يحمل الراية ويضطلع بالرسالة ٠ ولم تقف رسالتهم عند مصر وحدها ، بل امتدت الى العالم العربى بأسره ، فقادوا فيه حركة علمية نشيطة ، وأسهموا فى تأسيس الجامعات العربية الناشئة ٠

وقد سبق لى أن عرضت لهذه المدرسة فى حلقة عقدتها الجامعة الأمريكية ببيروت عام ١٩٦١ تحت عنوان : « الفكر الفلسفى فى مائة سنة » وقلت فيها : « مصطفى عبد الرازق رئيس مدرسة وامام جيل ، تخرج على يديه عدد غير قليل من أساتذة اليوم ٠ مزج الأدب بالفلسفة، وقرب الأزهر من السربون ٠ عول ما وسعه على المصادر العربية ، وهو خبير بها وعليها قدير ، وعرف كيف ينطقها ويأخذ عنها ٠ ووجه اليها الأنظار بعد أن كانت مشغولة فقط بالكتب الحديثة والأساليب العصرية ٠ فجرت أسماؤها على لسانه وقلمه ، وسرد من نصوصها فقرات مختلفة ، وربما توسع فى ذلك أحيانا ٠ وبذا استطاع أن يحمل تلاميذه على جمعها وقراءتها ، وقل منهم من كان له بها سابق عهد » ٠

هذا هو مصطفى عبد الرازق ، وهذه هي مدرسته • ولا أشك في أنكم تدركون معى أنه حقق نبوءة الأستاذ الامام له ، فقد كتب اليه وهو لا يزال في عنفوان شبابه قائلا : « ما سررت بشيء سروري أنك شعرت في حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك ، فلله أنت ولله أبوك • ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت اليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء • ولكنى اكتفى بالاخلاص فى الدعاء أن يمتعنى الله في نهايتك بما تفرسته في بدايتك » •

رحم الله الأستاذ الامام ، ورحم تلميذه المخلص مصطفى عبد الرازق ، وجزاهما خير الجزاء عما قدما للعلم والبحث ، والاسلام والعروبة •

د• ابراهيم مدكور

شيخنا الأكبر مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الإسلامية

بقلم

الأستاذ الدكتور توفيق الطويل

اخلاقياته ـ مذهبه في نشأة الفلسفة الاسلامية وتطورها

أخلاقيـــاته :

لا أعرف وصفا لأخلاق شيخنا أدق ولا أوفى من وصف الدكتور طه حسين له ، فقد التقى به فى الأزهر فى صدر شبابه فوجده عذب الحديث لا يرفع صوته الا بمقدار ، وكان قليـل الحركة معتدل النشاط ، يمتاز بين رفاقه بهذا الوقار الهادىء المطمئن الذى لا يتسم به الشباب عادة ، وانما هو سمة الشيوخ ومن يجرى مجراهم من الذين تقدمت بهم السن ، وكان جم الأدب موفور التواضـع ، لا يتجاوز القصد فى قول أو عمل ، يفرضه عليه طبعه فى ذلك ، ويفرضه هو على الذين يجالسهم ويتحدث اليهم ، كأنما كان يلقى فى نفوسهم وقلوبهم وعلى ألسنتهم فضلا من وقاره وهدوء نفســه ، فهم يتحدثون مثله فى أناة ، ويضـحكون مثله فى قصد ، ويروون من أحاديثه الجد ••• » .

هكذا كان شيخنا منذ صدر شبابه ، وظل كذلك حتى استأثرت به رحمة الله ، وقد جاوز الستين من عمره بقليـل ، ويمضى عميد الأدب العربى فيضيف اليه خصالا ثلاثا لازمته فى حياته : « أنه لا يعرف محبا لطلب العلم مخلصا فى هذا الحب الا سعى اليه واتصل به وقربه منه وفتح له قلبـه وعقله وداره أيضـــا ••• واذا كان حب العلم وطلابه المخلصين هو الخصلة الأولى من الخصال التى لازمته حياته كلها ، فخصلة الوفاء هى الخصلة الثانية من خصاله ، والبر بطلاب العلم خاصة وبكل من كان يحتاج الى البر عامة كان الخصلة الثالثة من خصاله ، فلم أعرف قط قلبا أبر بفقير ولا نفسا أرق لذى حاجة ، ولا يدا أسرع الى العطاء من قلب مصطفى ونفسه ويده ••• كان سمحا فى جميع أطواره ، وفى أطوار من حوله من الناس وما يحيط به من الظروف ، وكانت الابتسامة الحلوة أدل عليه ، والحـديث العـذب ألزم شىء اليه ، وكان يضيف الى خصاله هذه خصلة أخرى اذا كتب ، وهى خصلة العناية الدقيقة جـدا بالتفكير أولا ، وبالتعبير بعد ذلك فيما فكر فيه ، كان لا يكره شيئا كما يكره العجلة فى القول والعمل والمشى أيضا ••• أنت لا تجد فيما يكتب

معنى نافرا أو فجا لم يتم نضجه قبل أن يعرب عنه ، وأنت لا تجد فيما يكتب معنى نافرا أو فجا لم يتم نضجه قبل أن يعرب عنه ، وأنت لا تجد فيما يكتب لفظا نابيا عن موضعه ، أو كلمة قلقة فى مكانها ، وانما كان كلامه يجرى هادئا مطمئنا كما يجرى ماء الجدول النقى ... لست أعرف أحدا سخط عليه أو ضاق به أو شكا منه ، كان راضى النفس يبعث الرضا فى نفوس الناس حين يرونه وحين يسمعونه وحين يقرأون له ... » والذين صحبوه حتى وفاته — وأنا واحد منهم — لا يجدون وصفا لأخلاقياته أدق من هذا وأوفى .

ومن كان على هذه الخصال من دماثة الخلق ودقة الطبع وشفافية الاحساس ، لا يحتمل الدسائس ولا يقوى على تدبيرها أو التصدى لمقاومتها . وكان اذا أقلقته حال لزم الصمت ازاءها ، فان شكا منها جاءت شكواه مما يعانيه هادئة رقيقة . وفى حياته منذ صدر شبابه فترات أقلقته وطردت عنه اطمئنانه ، فمن ذلك أنه حين التحق بالأزهر شابا لم يسترح الى دراساته ، وأصابته حيرة وقلق لم يزاوله الا بالتعرف على الامام الشيخ محمد عبده ، فوجد عنده ما رده الى الهدوء بطريقته العلمية فى الدعوة الى الاسلام ، ولكن عامة الأزهريين كانوا ينفرون من الامام ! « كانوا بين ساكت يغضى على القذى ، وبين هماز غماز يورى بالطعن ويسعى الى الدسيسة الا فريقا من المؤمنين وكان هذا هو جو الأزهر » — فيما يشير شقيق شيخنا المرحوم على عبد الرازق (١) .

وكان شيخنا من هؤلاء المؤمنين الذين اطمأنوا الى الامام واستراحوا لدعوته ، حتى رحب به عند عودته من أوربا فى أكتوبر ١٩٠٣ قائلا من قصيدة له :

أقبل عليك تحية وسلام	يا ساهرا والمسلمون نيام
كالبدر أنى سار يشرق نوره	والحق أنى حل فهو امام
لا زلت غيظا للضلال وأهله	والحلم يرضى عنك والاسلام

ولما عين شيخنا للأزهر لم يحسن بعض الأزهريين استقباله ، ونفسوا عليه منصبا تنتهى اليه آمالهم ، وحاولوا أن يشعلوها فتنة

(١) « مع أن الامام لم يكن من مشايخ الطرق الصوفية يعطى تلاميذه العهود ، ويلقنهم أسرار الطرق ، ولم يكن صاحب دعوة سرية يدس تعاليمها وراء الحجب والأسرار ... وطريقته فى الدعوة الى منهجه العلمى ومذاهبه الاصلاحية هى الحجة السمحة الواضحة » .

طاغية ، متسترين وراء القانون الذى كان يقضى بان هذا المنصب لا يشغله الا من كان من هيئة كبار العلماء ، فلما صدر تشريع يقضى بأن التدريس فى الجامعة يعادل التدريس فى المعاهد الدينية ، ومن ثم يبيح الترشيح لمشيخة الأزهر ، بدأت مكائد تدبر فى الخفاء ، واحتملها شيخنا على مضض حتى وافته منيته ..

وحين ترك الجامعة ـ وكان معينا بدراسة المنطق ، وتولى مشيخة الأزهر ، قدم اليه أحد تلاميذه ـ د. على النشار ـ تحقيقا لكتاب السيوطى الذى لخصه عن كتاب نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان لابن تيمية ، قدم المخطوط الى شيخنا فكتب له مقدمة قال فيها : « صرفتنى الأقدار عن حياة المنطق الى حياة ليست منطقية !! ومع أن ظاهر سياق الكلام يوحى بانه ترك الاشتغال بالمنطق الى حياة مليئة بالمشاكل التى تتطلب حلولا ليس من اليسير العثور عليها ، الا ان الذين يعرفون الشيخ يرون أن تعبيره يشير الى ان حياته فى وضعها الجديد أصبحت عناء لا يطاق ! وتعبيرات الشيخ هادئة على الدوام تحمل فى باطنها من المعانى أكثر مما يحمل ظاهرها .. !

ومما يكشف عن أخلاقياته تكيفه مع حياة العلم الهادئة ، فحين نقل من تفتيش المحاكم الشرعية عام ١٩٢٧ الى كلية الآداب أستاذا مساعدا للفلسفة الاسلامية استراح بالا ، واطمأن الى كتبه ودراساته التى كان مشغوفا بها ، ووفق فى التدريس الجامعى واستقامت العلاقات بينه وبين تلاميذه الذين كان يشركم فى المناقشة وفهم النصوص التى كان مولعا بتفسيرها ، وقد تأثر فى منهجه بدراساته فى جامعتى باريس وليون ، فكانت الرابطة بينه وبين تلاميذه وثيقة قوية ، وفى مقدمته لترجمة أحد تلاميذه ـ عباس محمود ـ لكتاب تشارلس أومس عن التجديد فى مصر ، يقول شيخنا : « اذا لم يكن لنا من تلاميذنا أصدقاء ، فليس لنا فى الناس من صديق » .

وهكذا كان شيخنا رحمه الله رحمة واسعة ، وجعل الجنة مثواه ، وأجزل له الثواب لقاء ما قدم لتلاميذه وقرائه من قدوة طيبة وعلم نافع .

مذهبه فى نشاة الفلسفة الاسلامية وتطورها :

- لشيخنا فى نشأة الفكر الفلسفي فى الاسلام مذهب أصيل لم يسبق اليه ، وقد تبناه تلاميذه من بعده ، وأشاعه منهم فى جامعات مصر — وخارجها أحيانا — من قدر له منهم أن يتولى تدريس الفلسفة الاسلامية . فكان بهذا صاحب اتجاه فكرى أصيل مبتكر دعا اليه فى وقت شاع فيه الاستخفاف بالفكر الفلسفى الاسلامى بين دارسيه من مستشرقين وعرب ! وقد كان الشيخ بمنهجه فى الدرس وموضوعيته فى البحث واتزانه فى اصدار أحكامه ، وقدرته على تفنيد الرأى الذى يلتقى عنده خصوم مذهبه ... بهذا استطاع شيخنا أن يخلق حوله جوا يستريح اليه العقل ويطمئن اليه القلب ، ومن هنا ترك مدرسة تتبنى مذهبه وتحرص على اذاعته فى كل مناسبة أتيحت لها .

بل انه — فيما نعتقد — أول من أنشأ فى الدراسات الجامعية مادة للدراسة سميت بالفلسفة الاسلامية ، وأوعز بتدريس علم الكلام وعلم التصوف فى أقسام الفلسفة كما سنعرف بعد — فقد حدث حين عين فى عام ١٩٣٧ وزيرا للأوقاف لأول مرة أن أقام له قسم الفلسفة بكلية الآداب حفلا قال فيه أحد الخطباء من تلاميذه : ان شيخنا هو أول من ابتدع مادة الفلسفة الاسلامية وقام بتدريسها ، ولما نهض الشيخ ليشكر من أقاموا له الحفل قال معقبا على ذلك : ان علينا أن نرد الفضل الى ذويه . فقد سبقنى المستشرق الايطالى سانتلانا الى تدريس هذه المادة فى الجامعة المصرية الأهلية (١) ولكنى — أنا كاتب هذا المقال — اشهد أنى اطلعت على محاضرات سانتلانا فى صورتها الفوتوغرافية بمكتبة جامعة القاهرة ، ورأيت أنها جهد طيب مشكور ، ولكنها مجرد معلومات عن الفكر الاسلامى ، وليست نسقا فلسفيا يمكن أن يعد مذهبا . فلا يعدو الحق من يقول ان شيخنا هو أول من أخرج من الفطر العقلى عند المسلمين فى نشأته وتطوره فلسفة تحتل مكانها بين مواد الدراسة فى الجامعات ، وجعل من فروعها علم الكلام وعلم التصوف الشرعيين — كما سنرى بعد .

---

(١) بعد وفاته أقامت له الجامعة حفل تأبين قال طه فى خطابه بهـا انه وبعض أساتذة الكلية سافروا الى روما لحضور مؤتمر بها ، وقبل أن تطأ أقدامهم أرض روما قال لهم شيخنا : فلنضع فى برنامجنا أن نزور قبر سانتلانا ، ولنضع عليه اكليلا من الورد ! وهكذا كان شيخنا دوما .

أما عن مذهبه فى نشأة الفكر الفلسفى وتطوره فقد كان عليه قبل أن يستكشفه (١) أن يعرض آراء المستشرقين الذين ناصبوا الفكر الاسلامى العداء فى القرن التاسع عشر ، وأن يفند حملتهم بموضوعية ونزاهة ، فتحـــدث عن التحزب الجنسى الذى جاهر أرنست رينـــان بالتبشير به ، فقال ان الجنس السامى ــ ومنه انحدر العرب ــ لم يخلق بطبيعته للتفكير الأصـــيل المبتكر ، بـــل ان العـــرب لم يستوعبوا الفكر الأصيل الذى نقلوه عن اليونان الى لغتهم ، فأتلفوه بشروحهم وشوهوه بتعليقاتهم ، واعترف رينان بأنه أول من زخرف لنظرية الأجناس ثوبا علميا .. ؟ وفند شيخنا هذه الخرافة قائلا فى ختام مناقشته لها انها تذهب فى البت الى حد الشطط ...

وقد فنـــد حجج الذين استبد بهم التعصب الدينى وحملهم على الاستخفاف بالفلسفة الاسلامية وأهلها ، وجاهروا بأنها هى الفلسفة اليونانية فى ثوب عربى ، ثم استعرض أقوال المستشرقين منـــذ أواخر القرن التاسع عشر وابان القرن العشرين بعد أن خفت حدة التعصب الدينى والجنسى وعقب بقوله ــ فى نزاهة وأمانة : « ان الناظر فيما بذل الغربيون من جهـــود فى دراســـة الفلسفة الاسلامية وتاريخها لا يسعه الا الاجابة بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم ، وان كان فى جهودهم نزوات من الضعف الانسانى تشوب جهودهم فى خـــدمة العلم أحيانا » .

وبعد أن طهر شيخنا الأرض من الأعشاب التى تتلفها ، وفرغ من تنقيـــة الجو من الضباب الذى كان يكدره ، أراد أن يستكشف الجراثيم الأولى للنظر العقلى الاسلامى فى سلامتها وصفائها ، ثم يساير خطاها فى أدوارها المختلفة قبل أن تدخل فى نطاق البحث العلمى ، وبعـــد أن صارت تفكيرا فلسفيا ، فقال ان القرآن الكريم قد ذكر الحكمة المعروفة عند العرب وكانت شرفا لأهلها وجاها ، وأثنى عليها وشجع على حياتها ونموها » وكان لهذه المعانى التى قررها الاســـلام منـــذ نشأتها أثرها العظيم فى توجيـــه النظر العقلى عنـــد المسلمين فى عهدهم الأول ، وان كرهوا البحث والجدل فى أمور الدين .

وكان الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعيـــة بداية النظر العقلى

---

(١) من أراد مزيدا من التفصيـــيلات فى معرفة مذهبه فليرجع الى أكبر مؤلفاته : التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية .

عند المسلمين ، وقد نما وترعرع في رعاية القرآن وبسبب من الدين ، ونشأت فيه المذاهب الفقهية وأينع في جنباته علم فلسفي هو علم أصول الفقه ، ونبت في تربته التصوف ، وذلك من قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها في توجيه النظر العقلي عند المسلمين الى البحث فيما وراء الطبيعة والالهيات على أنحاء خاصة . وعلى الباحث في تاريخ الفلسفة الاسلامية أن يدرس الاجتهاد بالرأى منذ نشأته الساذجة الى أن صار نسقا من أساليب البحث العلمي له أصوله وقواعده ، لان الاجتهاد بالرأى هو بداية التفكير الفلسفي عند المسلمين .

وهكذا نشأ الاجتهاد بالرأى — بمعناه العام — في التشريع القرآني مع القرآن والسنة منذ عهد النبي ، أو هو نشأ بعد عهد النبي — وظل الرأى أصلا من أصول التشريع يستعمل كثرة وقلة ، وضيقا وسعة على حسب الحاجة اليه بكثرة السنن المروية كما في الحجاز ، وقلتها كما في العراق .

وعلى هذا كان التشريع في عصر النبي يقوم على الوحي من الكتاب والسنة ، وعلى الاجتهاد بالرأى من النبي ومن أهل النظر ، والاجتهاد من أصحابه ، ومن المسلمين من كان يرى أن النبي على شريعة العقل قبل أن يأتيه الوحي ، وكان النبي متعبدا قبل الوحي بشريعة العقل ، وظل على ذلك الا فيما غيره الشرع الجديد ، وكان العقل أصلا من أصول التشريع فيما لم ينزل به تنزيل .

وجاء عهد الخلفاء الراشدين واتفق الصحابة في ذلك العهد على استعمال القياس (١) في الوقائع التي لا نص فيها من غير تكبر من أحد منهم ، وفي هذا العهد بدت الصورة الأولى للاجماع .

وفي عصر بني أمية (٤٠ — ١٣٢ هـ) استعمل لفظ الفقه للدلالة على استنباط الأحكام الشرعية بالنظر العقلي فيما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة ، وسمي أهل هذا الشأن بالفقهاء .

ولما انتهت الخلافة الى العباسيين شجع الخلفاء الحركة العلمية واهتموا بترجمة التراث الحضاري عند مؤسسي الحضارات القديمة من الأمم ، وانتعشت العلوم الدينية في ظلهم ، بل كانت حركة النهوض أسرع الى

---

(١) والرأى مرادف للقياس بمعناه العام ، والاجتهاد مرادف للقياس فهو مرادف للرأى — كما نبه الشيخ .

العلوم الشرعية لأنها كانت فى دور نمو طبيعى ، ونهض العباسيون لاحكام الصلة بين دولتهم وبين الشرع ، ونشأت العلوم وبدأ تدوينها وتكونت المذاهب الفقهية ووضع علم أصول الفقه ، وظهرت الخلافات بين المذاهب ظهورا واضحا في الفروع وفي الأصول ، فكان أهل العراق أهل الرأى ، وامامهم الذى بقى مذهبه الى اليوم هو أبو حنيفة (ت ١٥٠ هـ) وكان أهل الحجاز أهل الحديث لوفرة حظهم منه مع قلة استعمالهم للرأى ــ وان سلموا بأنه أصل من أصول التشريع ، وامامهم مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) وتوسط أهل الحديث وأهل الرأى الشافعى (ت ٢٠٤ هـ) وكان الشافعى واضع أصول علم الفقه ، وفى رسالته بدت مظاهر التفكير الفلسفى ، وكان شراحها متكلمين وفقهاء . والمتكلمون (الذين يدافعون عن الدين بالحجة والمنطق ويفندون حجج خصوم الاسلام بالنظر العقلى) وقد وضعوا أيديهم على علم أصول الفقه ، وغلبت طريقتهم فيه طريقة الفقهاء ، فنفذت اليه آثار الفلسفة والمنطق ، واتصل بهما اتصالا وثيقا .

وقد نبه شيخنا الى قوة الصلة بين العلوم الفلسفية وعلم الكلام وعلم التصوف الشرعيين ، وان كان المؤلفون الاسلاميون لا يعدون هذين العلمين من العلوم الفلسفية فى حقيقة أمرهما ، ويرونهما قريبى الشبه بهذه العلوم ، ويرون أن الفلسفة طغت عليهما فى بعض أدوار تدرجهما فصبغتهما بالصبغة الفلسفية . ولما كان علم أصول الفقه لا يخلو من أثر الفلسفة كانت هذه العلوم كلها من العلوم العقلية الفلسفية ، وهذا حق فان المستشرقين منذ قرن ونصف قرن قد اعتبروا علماء الكلام من فلاسفة الاسلام ، والذين ردوا الفلسفة الاسلامية الى اليونان ، قالوا ان الحركة الفلسفية الحقيقية تلتمس فى مذاهب المتكلمين ، فمذاهب المتكلمين هى الفلسفة العربية الحقيقية .

وأما التصوف فقد استبانت صلته بالفلسفة منذ القرن الثالث للهجرة حين نشأ التصوف النظرى الاشراقى Theosophy على يدى ذى النون المصرى (ت ٢٤٥ هـ) فيما قال نيكلسون وقال بنظرية الفناء أبو يزيد البسطامى (ت ٢٦٠) فيما قال ماسنيون ، وقال بنظرية الحلول أبو منصور الحلاج (المقتول ٣٠٩ هـ) (١) ــ وسرعان ما ظهرت فى التصوف

---

(١) أريد بالفناء الفناء ن كل ما سوى الله ، والبقاء بالله وحده وهو المحبوب الذى يأنس العبد بقربه ويرى جماله فى قلبه ، ويكون ذلك بعد مجاهدة النفس ومعاناة لتجربة التصفية والتطهير بالتجرد من علائق البدن واغفال لوازعه حتى يترقى الصوفى فى سلم معراجه الروحى ، وينتهى الى الفناء ــ وبهذا نفسه يكون حلول الخالق فى

نظريات فلسفية فى الوجود وفى المعرفة وبدا بوضوح أثر الفلسفة الدخيلة فى صوفية المسلمين .

ويقول شيخنا . لكن أثر العوامل الأجنبية المؤثرة فى الفكر الاسلامى وتطوره مهما يكن من شأنها فهى أحداث طارئة صادفت شيئا قائما بنفسه ، فاتصلت به ولم تخلفه من عدم ، وكان بينهما تمازج أو تدافع ، لكنها على كل حال لم تمح جوهره محوا .

وهكذا كان اتجاه شيخنا فى تاريخ النظر العقلى ونشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ، نبت فى أرض اسلامية ونما وأينع فى ظل الاسلام ، ثم دخلت عليه عناصر أجنبية فتفاعل معها واستمد منها قدرة على مزيد من النمو والازدهار .. وتبنى هذه الوجهة من النظر جمهرة تلاميذه من بعده، وأشاعوها فى الجامعات وخارجها ، ولم يكن غريبا على من كان هذا علمه وتلك أخلاقياته أن يتفانى تلاميذه فى حبه وتقديره .

وبعد .. ففى الأربعين من وفاة شيخنا (فى مارس ١٩٤٧) صدر لى كتاب ، قصة الاضطهاد الدينى ، وعلى صفحته الأولى كان هذا الاهداء :

« عاش ايمانا عميقا يضيئه نور من العلم غير ظنين ، برىء من اللفظ النابى ، والمسلك الجارح والميل الحقود ، وتأبى على دواعى الحقد والتعصب والهوى ، وفاض سماحة وجودا ، وانبعث صفاء ونورا ... ثم توارى عن الدنيا ـ كالحلم اللذيذ الخاطف ـ على غير ميعاد ، وروعنا صوت الناعى المفاجىء ، قضى وثوى فى جنة الخلد أستاذنا الأكبر مصطفى (باشا) عبد الرازق ، فانا لله وانا اليه راجعون .

فالى هذا الروح السمح الكريم الذى زاوج بين الإيمان والتسامح ، فمثل أنبل فكرة فى هذا الكتاب ، أهدى هذا البحث احياء للذكرى التى لم يندمل جرحها بعد » .

هكذا كان شعور تلاميذه حيا ، وكان كذلك عندما استأثرت به رحمة الله ، ولا يزال هذا حالهم وهو فى مثواه الأخير ، رحمه الله رحمة واسعة ، وجعل الجنة مثواه ، وأجزل له الثواب لقاء ما قدم لتلاميذه وعارفيه من وجوه العطاء .

د . توفيق الطويل

المخلوق عند الحلاج ـ ويكون الفيض أو الالهام عند الغزالى (ت٥٠٥هـ) أو وحدة الوجود التى تجمع بين الحق والخلق عند ابن عربى (ت٦٣٨) .

الدين والمجتمع

عند مصطفى عبد الرازق

بقلم

الأستاذ الدكتور يحيى هويدي

لم يسعدني الحظ بالتتلمذ على أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق . ولكنني أذكر أني رأيته مرات في أروقة كلية الآداب في جبته الأزهرية الأنيقة ، وبوجهه المشرق الذي ينم عن النبل والأريحية . وما زلت أذكر مواقفه الكريمة التي تناقلتها أجيال طلبة قسم الفلسفة وسائر أقسام الكلية عن زملائهم الذين كانت تمنعهم ظروفهم من مواصلة التعليم ، فكانوا يهرعون الى الشيخ ، فلا يتردد لحظة في مد يد المساعدة اليهم حتى يواصلوا تعليمهم . وقد شهد له هذه الشهادة الدكتور طه حسين ابن المنيا وعميد الأدب العربي وعميد كلية الآداب وقت أن كان شيخنا أستاذا بها ، حين كتب يقول في مقدمة كتاب « من آثار مصطفى عبد الرازق » : « أشهد ما تخلف قط من أداء نفقات التعليم عن أولئك الذين كانت تضيق بهم قواعد المجانية » .

واليوم ونحن نسعد بتكريم مصطفى عبد الرازق ، آثرت أن يكون موضوع حديثي عن الدين والمجتمع عند مصطفى عبد الرازق ، وذلك لأني موقن بأن الجمع بين الدين والمجتمع كان حجر الزاوية في فكر مصطفى عبد الرازق وفي شخصيته أيضا .

فصاحب هذه الشخصية الغنية قد حارب جمود الأزهر في حياته. ووقف الى جانب الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في ثورته الاصلاحية التي كان يرجوها له ، وتميز في كل ما كتب بنزعة أدبية ركبت في طبعه ، وانطبع بها أسلوبه ، وشارك بمقالات عديدة ممتعة في مجلة « السفور » ، وهي في حد ذاتها شاهد لا تخطؤه العين على اقبال صاحبها على الحياة الاجتماعية في مصر ابان حياته ، بكل ما كانت تثيره من مشاكل ، وعلى حرصه أن يغشى المجتمعات وأن ينقل الينا لمحات نقدية لها ، ويعقد مقارنات طريفة بين مظاهر الحياة الأوربية ومظاهر الحياة عندنا ... وكل هذا يدلنا على أن صاحب هذه الشخصية كان رجلا يؤمن بالمجتمع في كل أبعاده ، ويؤمن في الوقت نفسه بأن الدين يستطيع أن يفعل الكثير في بعثه واصلاحه .

وقبل أن أتناول فلسفة مصطفى عبد الرازق في الدين وعلاقته بالمجتمع أود أن أقف قليلا عند هذا الجانب الشخصي في نظرة مصطفى عبد الرازق الى الحياة .

فقد استوقفتني رسالة كانت قد بعثت بها سيدة من قارئات مجلة السفور الى الشيخ الذى كان يكتب فيها مقالات يبدو أنها كانت قد أثرت بأسلوبها الأدبى وصدقها في التعبير فى كثير من المعجبين والمعجبات وقد لاحظت هذه السيدة أن الشيخ قد توقف عن الكتابة فترة ، فكتبت اليه تقول :

لم أعشق وليس فى نيتى أن أعشق ، ومع ذلك فان نفحتك الغرامية الشجية تلذ لى لأن فيها شيئا من الحنان والاخلاص تسمعها لجنا مثل توقيعك ما دمنا لا نجدها فى الحياة الا هكذا . لعلك يا سيدى تكتب لارضاء قرائك لأن الاخلاص لا يعرف المحاباة .

فرد عليها الشيخ مصطفى فى السفور عدد ١٦ يوليو ١٩١٧ بعد أن نشر رسالتها ، رد عليها يقول :

سيدتى .. كان بين الجوانح صداح لم يزل يهتف ثم عاد شدوه صدى ضئيلا أسمعه همسا يجىء من أقصى نواحي الصدر كأنه قرع النواقيس فى المدينـة الغارقة . وما هو بالعجيب يا سـيدى أن نظرتى لنغمة الحنو والعطف . فان القلوب الكريمة وان كانت نيتها أن لاتعشق تهز أوتارها نغمات العاشقين ... صدقت يا سيدتى !! فى صدوركن شعبة من العصب الحساس تحيا وتطلب الحيـاة ، وتلك الشعبة هى موضع آمالنا ، هى أساس الخير الذى نترقبه لمستقبلنا .. نرجو أن يفيض من تلك الشعبة ما تحتاج اليه حياتنا من الحب والحماسة والأريحية » .

لم يتردد الشيخ الوقور اذن فى أن يتحدث إلى تلك السيدة على صفحات مجـلة من المجلات عن عاطفـة الحب وما فيها من سمو . وذلك النمو والازدهار ... وتبنى هذه الوجهة من النظر جمهرة تلاميذه من بعده لايمانه بأن الدين مرتبط بالمجتمع ، أن المجتمع الذى يؤسس بنيـانه على التقوى والأخلاق والحب خير من مجتمع يؤسس على العـداوة والبغضاء . ولهذا نجده يشيد بتلك العاطفة النبيلة : عاطفة الحب في نظرته الى الأسرة والى المجتمع على السواء . فنجده مثلا يقول فى المجال الأول : « الرجل الذى يأخـذ أولاده بالمهابة ولا يبيح لهم الابانة عن عطفهم لا يريد الا أن يريهم أنه قاهر جبار وأنه ذو قوة ... وما اجلال الرجل لأولاده من غير حب أو من غير مظاهر عطف الا خوف أيضـا . هو خوف من اظهار الضعف واشفاق من أن يتخذوا من حبه لهم بابا للتحكم فيه والجور عليه والاقلال من تهيبه » . وفى مجال المجتمع نجده

يكتب مقالا فى السفور فى عدد ٢٦ مايو ١٩١٦ تحت عنوان « خواطر فى الحب » يقول فيه : « لقد أصبحت أظن أن الود المبنى على الثقة والتعاطف عزيز فى الناس أو غير موجود · كل يبتغى من حبه غرضا ومنفعة ··· هذا ما يعلمنى الواقع الذى أشهده بين الناس · ولكنى لا أستطيع أن أعتقد أن مايحويه هذا الواقع هو كل مايحتمله الاستعداد البشرى · ان لم يكن للحب الصادق متسع فى تلك الصدور الواسعة للحوادث الجارية فاننى مع ذلك أشهد أن الحب يكون صادقا ، ولا أبرح أؤمن بهذه العقيدة وان ضنت على التجارب بأمثلة للمودات الخالصة » · ونجده كذلك يتحدث عن حب النهر الخالد ، نهر النيل لأنه يحمل معنى حب الوطن ، فيقول : « نريد أن نحب النيل كما يحب الفرنسى السين والانجليزى التايمز والألمانى الراين · نحب النيل لأنه مستودع تاريخنا كله يبلل رفات آبائنا ويغذى نظف أبنائنا ، فيه ماضينا ، وفيه مستقبلنا ، نحب النيل لأننا أوفياء ونحن أبناء النيل » ·

ومن الواضح أن الحب الذى يتحدث عنه أستاذنا فى مجال الأسرة والمجتمع والوطنية هو الحب الذى ينشر الأخلاق الاجتماعية السليمة بين أفراد المجتمع وهو الذى يوجه النفوس الى الخير ، وينمى فيهم روح السماحة والسلام ·

ولكن صاحب هذه النفس الشفافة لم ينس أبدا أنه رجل دين ، فهو وان كان قد نشر مقالاته فى مجلة « السفور » فانه ينبهنا الى أنه ليس المقصود من السفور هو تمزيق البرقع عن وجه المرأة المصرية ، بل يقول انها صحيفة تريد أن تكون مظهرا للتقدم الفكرى فى هذا البلد ومضمارا لكل دعوة حرة صالحة · فهى اذن « صحيفة اجتماعية نقدية تنادى بالسفور الشامل فى كل باب من أبواب التقدم والاصلاح » ·

غير أنه يتساءل : هل يستطيع الدين أو بالأحرى هل تستطيع مؤسساته ومعاهده والمظاهر التى يقيد رجاله أنفسهم بها أن تجارى هذا التطور وتساير تلك الروح المتفتحة ؟ ويجيب على هذا التساؤل فى مقال آخر له فى مجلة السفور استوقفنى كما استوقفتنى مقالاته عن الحب : يجيب قائلا :

« يظهر أن كل ما يتصل بالدين من الشئون الاجتماعية يكون بطيئا عن متابعة الحركة السارية فى أجزاء العمران · نرى بيوت الذين

بين أفراد المجتمع وهو الذى يوجه النفوس الى الخير ، وينمى فيهم روح ومدارس العلوم الدينية ذات سحنة متميزة عن سائر الهياكل والمباني ، ولا يتغير شكلها فيما يتغير من أشكال البناء الا بعمل العصور الطويلة . ونرى ثياب المنتسبين الى الدين ليست كثياب سائر الناس ، تتبع ما يتجدد من الأنماط ، وتسير مع ما يكتشفه الذوق الانسانى من أسرار الجمال .. نجد للرجال الدينيين هيئة خاصة فنعرفهم بسيماهم وتقاطيع وجوههم ... » . ويطالب الشيخ مصطفى بتطوير هذا كله ، وباصلاح المعاهد الدينية والقضاء الشرعي وبالتوفيق بين الاسلام والحضارة الغربية . ثم يطالب فى آخر المقال .. وهو أمر يلفت النظر حقا – بانشاء نقابة للفلاسفة الأحرار ، فيقول : « ومتى تم ذلك وتم معه ما يقترحه الفيلسوف شبلى شميل من انشاء نقابة للفلاسفة الأحرار تهيأت بأذن الله أسباب الصلاح وأنصف الناس واستراح القاضى » .

وشبلى شميل – لمن لا يعرف هذا الاسم من طلابنا – هو الداعية الذى أخذ على نفسه نشر أفكار الداروينية ونظرية النشوء والارتقاء فى العالم العربى وفى هذه الاشارة من الأستاذ الشيخ مصطفى لشبلى شميل ما يؤكد صدق مارواه لى شخصينا أستاذى المرحوم الدكتور محمود الخضيرى من أن الشيخ مصطفى عندما سافر الى فرنسا عام ١٩٠٩ أقبل بشغف على قراءة كل ما كان يكتبه الزعيم والمفكر الاشتراكى الفرنسى جان جوريس Jean Taurés الذى توفى عام ١٩١٤ وكان متأثرا بما قرأ له .

...

وبعد هذه اللمحات التى تساعدنا فى القاء الضوء على الجانب الاجتماعى من شخصية أستاذنا كرجل من رجال الدين متفتح على المجتمع نعرض الآن للجانب الفكرى فى تصوره للعلاقة بين الدين والمجتمع .

ففى كتابه الصغير القيم « الدين والوحي والاسلام » يبدأ المؤلف الأصل اللاتينى لكلمة دين أى لكلمة «Religion» فى اللغات . وهذا الأصل اللاتينى هو كلمة «Religion» فيقول انها ترد الى مادة تفيد معنى الربط الشامل وربط الناس ببعض الأعمال من جهة التزامهم لها وفرضها عليهم ، وربط الناس بعضهم ببعض ، وربط البشر بالآلهة . ثم يوضح لنا أن الدين عند دوركهايم يشمل العقائد والعبادات ويضيف أن هذه

العقائد ليست عقائد الفرد ، بل هي عقيدة الجماعة ، وهي مابه تصبح الجماعة جماعة ٠ ومن هذا ينضح أن كلمة الدين فى أصلها الاشتقاقى فى اللغات الأوربية لا تنفصل عن معنى الطائفة ٠ الأمر الذى يشعرنا بأن الدين ينبغى أن يكون شأنا من شئون الجماعة ، وأن تقوم جماعة ما بالعبادات التى يفرضها الدين أو أن تعتنق هذه الجماعة العقيدة التى أتى بها ، ويصبح أفراد هذه الجماعة ملتزمين بتلك العبادات وهذه العقيدة ٠

ويتضح هذا الارتباط بين الدين والجماعة أو المجتمع أكثر وأكثر عندما نلتفت الى استعمال كلمة الدين فى اللغة العربية ٠ يقول أستاذنا فى هذا الصدد :

« لعل أسلم الآراء هو ما يدل عليه كلام الراغب الأصفهانى (فى الآيات القرآنية على معنى الجزاء أو الطاعة أو الملة » ٠ ثم يقرر فى وضوح أن الدين بالمعنى الثالث وهو ارتباطه بالملة أى بالمجتمع أكثر أصالة ودلالة على معناه الحقيقى من ارتباطه بالمعنيين الأول والثانى ، وهما الجزاء والطاعة ٠ وذلك لأن الطاعة ــ كما يقول الشيخ مصطفى ــ تستلزم آمرا مطاعا وأمرا يطاع ، فهى تستدعى أن يكون الدين ذا اله وشريعة ، وكذلك الجزاء والحساب يستدعيان مجازيا محاسبا ٠ بيد أن من أديان العرب فى الجاهلية التى تسمى فى لسانهم دينا من غير شك ما ينكر الاله القادر وينكر الحساب والجزاء ٠ والقرآن نفسه يسمى ما كان عليه العرب دينا ، اذ يطلب الى الرسول أن يقول للكافرين « لكم دينكم ولى دين » (الكافرون ، ٦) » ٠

فالدين اذن مرتبط فى أساسه بالمجتمع أو الملة ٠ وارتباطه بالجماعة فهو الذى يجعل من الدين دينا ، فيما يرى أستاذنا الشيخ ٠

لكن بالاضافة الى ارتباط الدين بالمجتمع على هذا النحو الوثيق فان ارتباط الدين بالوحى أمر هام لا يجب اغفاله ٠ فالدين ينبغى أن يكون موحى به ، اذ ليست كل عقيدة تحقق ارتباط أفراد جماعة معينة بعضهم بالبعض الآخر تسمى دينا ٠ يقول الشيخ مصطفى : « فالدين لا يكون الا وحيا من الله الى أنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله ٠ وذلك مصداقا لقوله تعالى على سبيل المثال : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به

ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »
(الشورى ، ١٣) .

وهذا كلام عميق يستحق وقفة بل وقفات . فالدين فى معناه العام ومن الناحية الاشتقاقية اللغوية يتميز أول ما يتميز – فيما يرى الشيخ مصطفى – بارتباطه بالمجتمع . ولابد – من ناحية ثانية – أن يكون هو الدين الموحى به ، أو هو الدين المنزل من عند الله ، أى أنه دين التوحيد . وبعبارة أخرى فان هذا يعنى أن الايمان بالمجتمع والايمان بالله واحد هما الطريقان الموصلان الى الدين الحق . أما تلك البراهين العقلية الجافة التى قدمها لنا الفلاسفة حول وجود الله ، سواء بدأوا فيها من الأثر متجهين الى المؤثر أى من الطبيعة ليستدلوا منها على وجود الصانع أو الخالق ، أو بدأوا فيها من فكرتنا الذهنية عن الله الكامل أو عن واجب الوجود متجهين الى وجود الممكن ، فلم يشر اليها الشيخ مصطفى بالرغم من احاطته بها ومعرفته لها حق المعرفة ومن تدريسه لها لطلبته كأستاذ للفلسفة الاسلامية . وآثر أن ينحو منحى آخر .

وبوسعنا أن نقول ان هذه العلاقة المزدوجة للدين بوجود وطن من ناحية وبعقيدة التوحيد من ناحية ثانية تمثل فى نظر الشيخ العلاقة الراسخة الواقعية الجديرة بالاهتمام عند شرح ماهية الدين . واليكم بعض خواطرى حول تلك العلاقة :

فمن الناحية الأولى أى من ناحية ارتباط الدين بوجود وطن نجد غاندى مثلا يقول ان الدين لابد أن يكون « سواد يشى » أى اقليمى ، بمعنى أنه لابد أن يرتبط بوجود اقليم أو بوجود وطن معين . وكنا نحن فى طفولتنا وفى شبابنا الباكر نربط ربطا كاد أن يصبح تلقائيا بين العقيدة الدينية والوطنية أو بين الدين وحب الوطن ، دون أن نسأل أنفسنا عن سر تلك العلاقة التى وحدت لدينا بين حب الله وحب الوطن . كنا نردد مثلا ونحن نتحدث عن شهدائنا أنهم ماتوا فى سبيل الله والوطن . وكنا ننادى بالجهاد فى سبيل الله والوطن ، بل كنا نستعذب ذلك الجهاد ، وتتوق نفسنا له وللاستشهاد على طريقه . ومن منا – حتى بعد أن تقدم العمر ببعضنا – لا يشعر – لا سيما اذا ما باعدت الظروف بينه وبين أرض الوطن – بأن شيئا ما فى أعمق أعماقه يجذبه نحو هذا الوطن ، فيتحرق لسماع أخباره ، والاهتمام بمصيره وتقدمه ، ويتلهف

على أن يعفر جبهته بترابه ، وأن يتنسم هواءه ، وأن تكتحل عيناه برؤيه سمائه ، وأن يشرب من مياه نيله الخالد ؟ ومن منا لا يجد وجه شبه قوى بين هذه العاطفة المشبوبة التي يستشعرها المرء في هذه الحالة والعاطفة الدينية التي تظل تقوى وتشتد حتى تمتزج بكيانه كله لتصبح نارا فى الرأس تتحرك بها الجبال ؟

هذه التساؤلات والخواطر وأمثالها من الممكن أن تخطر بالبال عندما ننعم النظر في ربط الشيخ مصطفى ، الدين بالمجتمع أو بالملة ، ومن قوله بأن هذا المعنى للدين أكثر أصالة من ربط الدين بفكرة الجزاء أو بفكرة الطاعة • ولا أحسب أننا سنجد اجابة هذه التساؤلات عند الفلاسفة الاسلاميين الذين تورطوا في الطريق العقلانى اليونانى ، فتشابه ما قدموه لنا حول قضية وجود الله مع ما وجدناه فى التراث اليونانى ، وهجروا بهذا فى كثير من الأحيان الطريق القرآني • واذا أردنا أن نجد الاجابة الصحيحة على مثل تلك التساؤلات التى أثارتها فى نفسى كلمات أستاذنا الشيخ مصطفى فلن نجدها الا فى القرآن الكريم ذلك الكتاب القيم الذى يعرض لنا قضية التوحيد على أنها قضية كرامة الانسان • واذا كنا نعلم جميعا أن الوطنية فى صميمها ليست هى أيضا الا قضية كرامة الانسان ، ومقاومة كل من تسول له نفسه العدوان عليها من الخارج أو في الداخل ، فلن يكون من العسير علينا بعد هذا أن نجمع بين الدين والوطنية تحت سقف واحد ، وسيسهل علينا الربط بين الدين فى أصالته وبين وجود الأمة أو الوطن كما يذهب الشيخ مصطفى •

أجل !! فان قضية التوحيد التى قدمها الاسلام وقدمتها الأديان المنزلة كلها ليست الا المدخل السليم الذى رأت هذه الأديان أن تدخل منه لترويض الانسان وتدريبه على الخضوع لقوة عليا واحدة قاهرة ، يتعلم عن طريق الخضوع لها وحدها أن لا يقبل التبعية لأية قوة أخرى• ولهذا نجد الاسلام يضع التوحيد فى مقابل الشرك الذى يعرض أمام الانسان ـ على العكس تماما مما يعرضه التوحيد ـ أندادا وأربابا اذا ما قبل الانسان الرضوخ لها فسيكون هذا معناه قبوله للعبودية ، واهداره لكرامته • وبهذا سيكون الفارق بين التوحيد والشرك هو نفس الفارق بين الحرية أو الاستقلال من ناحية وبين العبودية والذل والهوان من ناحية ثانية • ونحن هنا فى مصر كثيرا ما استعملنا هذه الكلمات الأخيرة كلها عندما كان الاستعمار يدنس أرضنا الطاهرة ، فعرفنا

يومها ذل العبودية . عرفناه كمسلمين وكمسيحيين على السواء وعرفنا كذلك ضربا آخر من الهوان على يد مراكز القوى التي أرادت فى فترة من فترات تاريخنا الوطنى أن تتحكم فى مقدرات البشر ومصائرهم وعندما ننادى اليوم ، مسلمين ومسيحيين ، بالتحرير من ذلك الهوان بجميع ألوانه ، ومن تلك العبودية بجميع صنوفها فلا شك عندى أننا بهذا نسير فى طريق التوحيد ، وهو هو بعينه طريق كرامة الانسان .

وما دمنا قد أشرنا هنا الى التفرقة بين منهج القرآن وأساليب الفلاسفة اليونان منهم والاسلاميين على السواء فى معالجة قضية التوحيد ، فمن الخير أن نربط بين هذه التفرقة وتلك التفرقة الأخرى بين الدين والفلسفة بوجه عام ، من وجهة نظر أستاذنا الشيخ مصطفى بطبيعة الحال . فأستاذنا يشير فى كتابه « التمهيد » وأيضا فى الكتاب الذى ضم مجموع مقالاته وهو كتاب « من آثار مصطفى عبد الرازق » الى أن الفارق بين الفلسفة والدين أن غاية الفلسفة نظرية ، أما الدين فغايته عملية . وقد استغرقت هذه التفرقة فعلا فى عقولنا . لكن علينا أن نعمقها بعض الشىء فنقول مثلا :

التوحيد الذى يعرضه علينا القرآن الكريم عقيدة ، ولكنه ليس « دوجما » نظرية ، انه سلوك عملى أولا وقبل كل شىء ، ينعقد عليه خلق المرء حتى يصير طبعا . أما الفلسفة فانها عندما تثير من بين قضاياها الكثيرة قضية وجود الله والبرهنة عليها ، فانها لا تثيرها الا كقضية نظرية معرفية أو ابستمولوجية فقط . واثارتها لها على هذا النحو موجهة الى الالحاد والملحدين فقط ، سواء كانوا دهريين أو طبيعيين . وما هكذا ينظر اليها الدين ، اذ أن قضية وجود الله بالنسبة الى الدين قضية مفروغ منها ، ولهذا يقرر الاسلام أن الايمان بالله فطرة الله التى فطر الناس عليها منذ آدم . وتصبح مهمة الدين تثبيت هذا الايمان عمليا عن طريق هداية الناس الى عبادة الله الواحد ، ونبذ الشرك بجميع ألوانه الظاهر منها والخفى ، وتدريب الناس فى سلوكهم وفى جميع علاقاتهم الاجتماعية على تحطيم كافة أنواع الأوثان . وبهذا المعنى تصبح مهمة الدين عملية وليست نظرية ، أى أنها موجهة بصفة رئيسية ضد الشرك والمشركين . واذا كانت كذلك فانها تكون مرتبطة بكيان المجتمع وببنائه على أسس سليمة . الأمر الذى يدور حول موضوع « الدين والمجتمع » . وهو ما حاولت أن أوضحه فى هذه الكلمة .

وأخيرا تستوقفنى عبارة أو فكرة أخرى من أفكار أستاذنا الشيخ مصطفى لا تقل عمقا فى دلالتها عن الأفكار السابقة • وهى قوله عن التوحيد أو عن عبادة الدين الواحد التى لم تتغير بتغير الأنبياء ، ان هذا الدين الواحد هو ما عبر عنه القرآن الكريم بالايمان وعن أتباعه بالمؤمنين • فيقول فى كتابه الصغير القيم « الدين والوحى والاسلام » (ص ٣٣) ما نصه : « هذا الدين الواحد هو المعبر عنه فى آيات من القرآن بالايمان وعن أهله بالمؤمنين والذين آمنوا » • والمقصود طبعا بالمؤمنين جميع المؤمنين من المسلمين والمسيحيين واليهود والموسويين على السواء ، من آمن منهم •

ومن أجل هذا يميل أستاذنا الى التوحيد بين معنى الاسلام ومعنى الايمان ويرفض كل المحاولات التى قيلت فى مجال التفرقة بين هذين اللفظين ، وذلك لأنها محاولات ــ كما يقول هو بنص عبارته الرشيقة دائما ــ « لا تمثل الا تمحلات الفرق والتماسها دقائق البحث اندفاعا وراء جموح النظر ، وهو مصطنع اصطناعا » (الدين والوحى والاسلام ، ص ٩٤) • ويفسر معنى الآية القرآنية : « ان الدين عند الله الاسلام » بمعنى أنه التوحيد واخلاص النفس والضمير لله وحده ، وتوجه الانسان ــ أى انسان ــ لهذا الاله الواحد الذى لا شريك له ، بصرف النظر عن اختلاف الشرائع والأحكام العملية التى تختلف باختلاف الأنبياء والأمم • ولكن هذا لا ينفى طبعا أو لا يتعارض مع القول بأن الاسلام هو الدين الذى نزل على محمد ، وأنه هو خاتم الأديان السماوية كلها وتمامها ، وأنه بهذا المعنى المحدد هو الدين عند الله مصداقا لقوله تعالى : « اليوم آكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » • ولهذا يضيف أستاذنا الى ما سبق قوله : « الدين الذى هو الاسلام هو التنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع التى كملت فى القرآن » (الدين والوحى والاسلام ، ص ٩٧) • ويقول أيضا : « ودين الله الواحد الذى لا يدخله النسخ ولا يختلف باختلاف الأنبياء هو فى عرف القرآن المسمى اسلاما » •

والذى استوقفنى هنا بصفة خاصة من كلام الأستاذ وأردت أن أنوه به هو عدم الأخذ بالتفرقة التى يذكرها الكثيرون بين الاسلام والايمان، وعدم الجرى وراء تواترها • فمن المألوف القول بأن الاسلام يتصل بالأعمال الظاهرة : اقرار الشهادتين باللسان والصلاة والزكاة والصيام والحج لمن استطاع اليه سبيلا ، فى حين أن الايمان يتصل بالقلب ،

ويتجاوز الظاهر الى الباطن ، ويقرن الطاعة فى أداء الفرائض بالعمل الصالح الذى نتعرف عليه بآيات وعلامات منها خشية الله والإطمئنان القلبى والتقوى والاخبات والصبر عند الابتلاء ... الخ • وحديث أبى هريرة فى هذا مشهور متواتر ، قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه رجل فقال : ما الايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث • قال : وما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان • قال : وما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » •

فأمامنا هنا اذن ثلاث دوائر متداخلة • باعتبار أن الاحسان يمثل الايمان بعد أن يكون قد استقر فى القلب تماما أو يمثل أقصى غايات البذل • وبعبارة أخرى فان الاحسان يمثل أرقى درجات الايمان • ولنترك الاحسان جانبا ، لنوجه نظرنا فقط الى التفرقة بين الاسلام والايمان • وعندما نمعن النظر فى العلاقة بين الاسلام والايمان سنجد – كما يقول ابن تيمية فى كتاب « الايمان » – أن « الايمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه من الاسلام » • والأمر هنا شبيه تماما بالعلاقة بين الرسالة والنبوة : « فالنبوة داخلة فى الرسالة ، والرسالة اعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها ، فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا • فالأنبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة » (من كلام ابن تيمية) • وعلى هذا النحو تماما نجد أن المؤمنين أخص من المسلمين ، مع أن الاسلام ليس الا جزءا فقط من الايمان أو مجرد مرحلة على طريق الايمان •

ومن هنا نفهم وقفة الشك التى وقفها أستاذنا الفاضل عند هذه التفرقة المشهورة بين الايمان والاسلام وقوله عنها انها مثال على جموح النظر عند أصحاب الفرق وانها مصطنعة اصطناعا لأنها من قبيل المماحكات أو كما يقول هو بنفسه من قبيل « التمحلات » • ولهذا لم يأخذ بها • وأحسب أن هذا موقف جديد طريف ينبغى التوقف عنده والعمل على نشره •

واذا كان لنا أن نستخلص من هذا الموقف درسا ينفعنا فبوسعنا أن نقول ان السر وراء عدم أخذ أستاذنا بتلك التفرقة بين الاسلام والايمان أنه – فى أغلب الظن – كان على وعى تام بأن الاسلام الحق لا يمكن أن يقوم بغير مسلمين صح ايمانهم ، أما الاسلام الذى انفصل

عن سلوك معتنقيه والقائلين به وانفصـــل عن سلوك أبناء الملة فانه ليس الا اسلاما لفظيا ، لا يحمل من الدين الا اسمه ٠

نسأل الله صدق الاسلام والسلام والسلامة ، وأن تكون أعمالنا متكافئة مع أقوالنا لتحقق ذلك الربط المحكم بين الدين والمجتمع فى جو يسوده الحب على نحو ما كان يعتقد أستاذنا المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ٠

د ٠ يحيى هويدى

مدرسة مصطفى عبد الرازق

بقلم

الأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني

١ ـ فى تاريخنا المعاصر شخصيات لاتتكرر ، ولاتنساها الاجيال التالية لجيلها لما تركته من اثر بعيد المدى فى الحيــاة الثقافية ، ومن ابرزها شخصية أســتاذنا المغفور له الشــيخ مصطفى عبـد الرازق (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧ م) .

لقد عرفت الاستاذ الجليل فى السنوات الأخيرة من حياته ، وكان المغفور له والدى السيد محمد الغنيمى التفتازانى (١٨٩٣ ـ ١٩٣٦ م) من أحب أصدقائه الى نفسه ، جمعهما جهـاد مشترك ، وتزامـلا فى الرابطة الشرقية حينا من الزمن ، ولذلك كنت أحس منه كلمـا لقيته بحنان الأب ، وهو الذى وجهنى الى دراسة الفلسفة بكليــة الآداب بجامعة القاهرة ، فالتحقت بها فى عام ١٩٤٦ م ، وفى نفسى اجلال عميق له ، ورغبة اكيدة فى السير على منهاجه فى الدراسة والبحث ، وجعلت منه ـ على حد تعبير الصوفية ـ شـيخا لى أقتدى به فى العلم والخلق ، وكان رحمه الله فيهما مثـلا أعلى يحتذى ، وببركة هذا الاقتـداء سرت الى منه علوم ونفحات ، فقـد كان الأســتاذ من الايمـان والتقوى وحب الخير وصفاء النفس مايجعل منه صوفيا عارفا بالله ، الم يقل ابو الفتح البستى فى تعريف الصوفى :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا   فيه وظنوه مشتقا من الصوف

ولست انحل هذا الاسم غير فتى   صا فى فصوفى حتى لقب الصوفى

التحقت بقســم الفلســفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة بعد أن تركه استاذنا ببضع ســنوات ، وكان وقتها شــيخا للجامع الأزهر ، فوجدت بالقسم نخبة ممتازة من تلاميذه الذين اخذوا على عاتقهم آنذاك اكمال رسالته العلمية التى بدأها ، فانست اليهم واحببتهم ، وشجعونى منذ كنت طالبا على المضى فى دراسة الفلسفة الاسلامية لما لا خطوه من ميلى الواضح اليها ، ومن هؤلاء المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى ، والمرحوم الأستاذ الدكتور عثمـان امين ، والمرحوم الأســتاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، والأســتاذ الدكتـور محمد عبد الهادى أبو ريدة أمد الله فى عمره .

٢ ـ ويعتبر تعيين الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذا بالجامعة

من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٤١ م فاتحة عهد جديد لدراسة الفلسفة الاسلامية على أسس منهجية استفادها من عمق دراسته الأزهرية وتلمذته على الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، من ناحية ، ومن اتصاله بجامعات فرنسا حيث درس بها حينا من الزمن ، من ناحية اخرى .

وقد عنى الاستاذ بتدريس شخصيات الفكر الاسلامى البارزة كالكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن طفيل وابن رشد ، وقد حدثنى بعض أساتذتى ممن درسوا عليه أنه كانت لديه قدرة ممتازة على الغوص فى معانى نصوص الفلسفة الاسلامية ، وتوصيلها اليهم فى عبارة سهلة واضحة جعلت من الفلسفة الاسلامية مادة محببة الى نفوسهم ، وكان ذلك يحدث فى نفوسهم توازنا بين القديم والجديد ، فقد كان معظم أساتذة قسم الفلسفة آنذاك من الأجانب ، وكانوا يقومون بتدريس معظم المواد فى قسم اللغة الفرنسية ، وقد صور أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى تلك الفترة من تاريخ الدراسة الفلسفية بالجامعة قائلا :

« فى عام ١٩٢٥ حولت الجامعة المصرية من جامعة أهلية الى جامعة حكومية ، وكنا وقتئذ سبعة من الطلاب قد التحقنا بالسنة الأولى من قسم الفلسفة بكلية الآداب بهذه الجامعة الحكومية التى كانت الهيئة القائمة على التدريس فيها من كبار الأساتذة الأجانب فى الجامعات الأوروبية . ولم يكن بين أعضاء هيئة لاتدريس هذه الا أستاذ مصرى واحد هو أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين ، فلم نكن نتلقى بطبيعة الحال محاضرات بالعربية الا محاضراته التى كانت فى الأدب العربى ، على حين كنا نتلقى محاضرات المواد الاخرى بلغات أصحابها من أساتذة باريس وبروكسل ولندن وغيرها . فدرسنا الفلسفة فى أول عهدها بالدراسة الجامعية فى السنة الاولى على يد أستاذ جليل من أساتذة السربون هو الأستاذ أميل برييه ثم على تعاقب السنين الدراسية حتى آخر مرحلة الليسانس على أيدى الأساتذة الاجلاء لالاند وربى وأسرتييه وروجييه وبواييه ، الا الفلسفة الاسلامية التى أبى أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين الا أن يقوم بتدريسها أستاذ مصرى مسلم فعين لها المغفور له أستاذنا الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى عام ١٩٢٧ كما كان قد عين من قبل فى عام ١٩٢٣ أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور منصور فهمى أستاذا لعلم الاخلاق ، فكانت الفلسفة الاسلامية والاخلاق

النظرية والعملية هما المادتين الوحيدتين اللتين تدرســان باللغة العربيــة من بين المواد الفلسفية جميعا ». (١) .

وكان لتعيين الشيخ فى الجامعة صداه فى خارجها كذلك ، وعلقت عليه الآمال فى النهوض بالفلسفة الاســلامية وابراز أهميــة شخصياتها ودورهم فى الحضارة الاوروبية ، فقد ذكر والدى رحمه الله فى احــد احاديث الصــيام ، التى كان يكتبها سنوات طويلة بجريدة الأهرام ، وذلك فى رمضان عام ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٨ م ، أن جماعة من علماء الألمان والانجليز من المستشرقين ممن تخصصوا فى الفلسفة الشرقية واللغات السنســكريتية والفارســية وفــدوا الى مصر ، واتصــلوا بالســيد عبد الحميد البكرى وبــه لمعرفة شيء عن الطرق الصــوفية فى مصر ، وسأل أحدهم قائلا :

« هل يدرس التصوف فى الازهر ؟ فأجابه : نعم ولكن مع عــدم اعتباره علما أساسيا . وهنا قال المستشرق : وهل يدرس فى الجامعة المصرية ؟ فأجابه : نعم تدرس الفلسفة الاسـلامية ، وقد علمت أن الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق صاحب كرسى تدريس الفلســفة الاسلامية يحاضر عن الامام الغزالى هذا العام . قال الســائل : وهلا يحاضر عن غير الامام الغزالى من فلاسفة الاسلام ؟ فأجاب الوالد : قد يكون ذلك بعد هذا العام بحيث يفرد بكل عام فيلسوف مسلم ، قال : وابن رشد ؟ فقال الوالد : وابن طفيل قد يكون لهما من عناية أستاذ الجامعة نصيب .

وهنا قال المستشرق : هل تستطيع أن تطلعنى على مقدار ماوصل اليه درس الاستاذ (مصطفى عبد الرازق) فى فلسفة الغزالى ؟ فأجابه الوالد قائلا لا أســتطيع لأن دروســه لم تذع بعد . فقال المستشرق : يؤخذ من مجمل اجابتك انكم لاتعنون بدرس الفلسفة الاسلامية مع أنها ثروة عظيمة من ثروات تعاليم الاســلام . قال الوالد : سنعنى ان شــاء الله ، ولكن جامعتنا حديثة النشأة وستؤتى اكلها بعد حين ، واسأل الله أن يكون شهيا » .

وقد تحقق ماتوقعــه الوالد ، فقد آتت دروس الأســتاذ الشــيخ مصطفى عبد الرازق فى الجامعة اكلها ، وكان ماآتته شهيا ، وقد شهد

(١) محمد مصطفى حلمى (د) : مقدمة مقال عن المنهج ، ترجمة الخضيرى ، دار الكاتب العربى ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

الوالد ، الذى توفى فى ٧ يناير ١٩٣٦ م بعض هذه الثمار فى حياته ، ولو قدر له أن يعيش بعد ذلك لشهد من ثمار الأستاذ ما هو أوفر واشهى .

٣ ــ وكان للأستاذ الجليل من تلاميذه فى الجامعة مدرسة فكرية متميزة عن غيرها ، وكان لها ولايزال اثر قوى فى توجيه حياتنا العلميه والثقافية ، ولى ما يقرب من ثلاثين سنة وانا ارصد اثره فى ميدان الفلسفة الاسلامية ، ولست مبالغا اذا قلت ان هذا الأثر ممتد الى عصرنا ، وانه سوف يمتد الى المستقبل ، وما ذلك الا لان مصطفى عبد الرازق مفكر اسلامى أصيل ، لم يستورد أفكاره من شرق أو غرب ، ولم يخضع نفسه لثقافة أجنبية مهما كان مصدرها ، مع أن ثقافته اشتملت فيما اشتملت عليه من مكونات على معرفة واسعة بالفلسفات الأوروبية الحديثة والمعاصرة ، والأوضاع السياسية والاجتماعية فى أوروبا ، فقد درس فى فرنسا وعاش فترات من حياته فيها ليست بالقصيرة .

لقد آثر ببصيرته النافذة أن يطور ثقافتنا الاسلامية بحيث تلائم العصر ، لا أن يتخلى عنها كما فعل بعض معاصريه بدعوى التجديد أو التقدم ، ومن هنا كان عميق الجذور فيما ذهب اليه من آراء فلم تجرفه تيارات عصره وكانت عنيفة أشد العنف .

٤ ــ على أن اثر الشيخ على تلاميذ مدرسته لم يكن محصورا فى اطار الدراسات الاكاديمية وحدها ، وانما كان يتجلى أيضا فى مجال خلقهم وسلوكهم ، فقد كان يحمل قيما اسلامية رفيعة تأثر بها أولئك التلاميذ الى أبعد مدى ، وحسبنا أن نشير الى بعض هذه القيم التى آمن بها وتجلت فى سلوكه :

(أ) لقد آمن الشيخ بحرية الفكر والقول والعمل ، والحرية فى هذه المجالات مبدأ لا غنى عنه فى تقدم العلم ونهوض الأمم ، وهو القائل : « اللهم ان كانت خطواتى فى سبيل الحياة تقربنى من الحذر ، وتجعلنى أخاف بشرا فاقبضنى اليك (١) » . وهو القائل أيضا : «على اننا نحب لخير الانسانية ــ ان يشيع فى الناس الشعور بحريتهم واختيارهم ،

---

(١) من آثار مصطفى عبد الرازق ، صدرها على عبد الرازق ، وكتب مقدمتها طه حسين ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٧ ، ص ١١٥ .

لأن هذا الشعور ينعش النشاط البشرى ، ويدفعه فى سبيل العمل ، وهو يكبر فى المرء الثقة بنفسه ، ويجعل آماله عالية (١) » .

ولا يمكن أن يكون الدين فى رأيه غلا للقلوب ، ولا قيدا للافكار ، ولكنه ــ على حد تعبير أستاذه محمد عبده ــ « قد كفل للانسان أمرين عظيمين طالما حرم منهما ، وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت انسانية ، واستعد لان يبلغ من السعادة ماهيأة الله بحكم الفطره التى فطر عليها (٢) » .

(ب) ودعا مصطفى عبد الرازق الى حب العلم ، وعاب طريقة التعليم فى عصره لانها لا تغرس هذه القيمة فى نفوس الطلاب قائلا : « معاهد التعليم فى بلادنا لا تغرس فى نفوس طلابها حب العلم ، ولاتفلح فى تشويقهم الى طلب الكمال فيه ، وذلك داء من شر أدواء المدارس . ولابد ان تكون طرائقنا فى تلقين العلم متعسفة لانها تورث العقول مللا ، فلا يفارق متعلمنا المدرسة الا ضجرا ملولا يكره الدرس ، ولايجد على المطالعة صبرا » ، ثم يقول : « ويجب أن نجاهد أنفسنا حتى يزول عنها الفزع ، وتذوق لذة المعرفة ، وتأنس الى الكتاب الذى هو خير انيس فى الحياة ، كما يجب على أساتذتنا ان يحرصوا فى المدرسة على ان يحببوا العلم الى اولادنا من قبل ان يعلموهم فاننا أحوج شيء الى أن نحب العلم (٣) » .

وكما دعا مصطفى عبد الرازق الى حب العلم دعا كذلك الى ضرورة تقدير العلم والعلماء فى المجتمع على كل المستويات فيه ، ذلك « أن العلم يغنى الأمة الفقيرة ، ولكن الغنى لا ينفع الأمة الجاهلة (٤) » .

وكتب مرة يقول : « اذا لم يكن لأهل المنتجين من قومنا ــ وقليل ماهم ــ مكسب مادى من وراء ماينشرونه على الناس من ثمرات عقولهم لان اقبال أمتنا على شراء الكتب وقراءتها لا يزال ضئيلا بعيدا عن ان يشجع طالب ربح بل طالب كفاف على الاقبال على صناعة العلم ، واذا كان هذا العزوف عن قراءة الكتب الجديدة يحرم المؤلفين أيضا لذة النجاح التى يحتاج اليها كل عامل من البشر ــ اذا كان هذا كله فلا أقل من أن

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٤٤

(٢) نفس المرجع ، ص ٥٠١ ــ ٥٠٢

(٣) من آثار مصطفى عبد الرازق ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٢٣

يجد المصنفون والكتاب منا نحن معشر المشتغلين بالعلم عناية تريهم أن تعبهم غير ضائع سدى (١) » .

(ج) وشغف المغفور له مصطفى عبد الرازق بحب الوطن ، وكان يشعر بالألم الشديد من أجل تخلفه في مضمار الحضارة ، وكتب في ذلك يقول : « يشغل تصفح جريدة التان منى زمنا طويلا لان بها أشياء كثيرة يهمنى الاطلاع عليها ولانني بطيء في قراءة الفرنسية . وكثيرا ما يخطر في بالي ان أقارن بين هذه الجريدة وبين صحفنا فأجد فرقا متناسبا مع ما بين فرنسا ومصر من التفاوت العظيم في الرقي العلمي والاجتماعي ، ويخيل الى انني أصبحت ألمح هذا التفاوت في كل شيء في حديث الناس وحركاتهم ، وفي كل وجه من وجوه الحياة بل في هذه الطبيعة التي نالتها نفحة من بركة المدنية والرقي .

« أحس اشد الاحساس بانحطاط أمتي وأجد أكبر الآلام لهذا الاحساس ويكاد كل شيء يحرك في نفسي هذا الشعور المؤلم » .

« أنا استبطيء سيرنا في سبيل التقدم شغفا برؤية مصر حرة راقية تلعب دورها في العالم . وكم أتمنى أن ألقي في قلب كل مصرى شعلة من هذا القلق الذى عندى لان شعورنا جميعا بالحاجة الى الرقي هو الذى يسرع خطواتنا اليه (٢) » .

(د) ويدعو الشيخ مصطفى عبد الرازق في عصره الى السلام بين الشعوب في صدق وحرارة ، فكتب مرة (على لسان الشيخ الغزارى) ابان اقامته في باريس سنة ١٩١٤ يقول : « ليس في نيتي ان أقف الى جانب الراية المثلثة الألوان (يقصد علم فرنسا) محاربا ، وان كانت محببة الى تلك الراية التي يرجع اليها خط عظيم من فخار التاريخ الانساني ذلك بأن اعتبارات مقدسة تقضى على بأن أقف بعيدا عن هذه الحرب الطاحنة وعن كل عمل لا يتفق مع مانرجو للانسانية والسلام . أنا من أولئك الذين يكرهون الحروب ويريدون للبشر رقيا منتظما في ظل السلام والحرية ، وآلم شيء لقلبي أن يفترس الانسان الانسان كما تصنع الوحوش في البيداء (٣) » .

(هـ) وأساس الفضائل الانسانية كلها عند شيخنا محاسبة

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٢٣

(٢) من آثار مصطفى عبد الرازق ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٠

النفس على الفعل والترك ، وكان رحمه الله فى هذا المجال شديدا على نفسه يراقب حركاتها باستمرار ، وقد صور حال محاسبته لنفسه قائلا فى عبارات عميقة الدلالة : « أنا بالرغم من كونى عصبيا سريع التأثر فاننى قادر على كتمان احساسى لذلك يغر الناس منى منظر هادىء وفم غير ضنين بالابتسام وحلم قلما يستغفره غضب . ولو كشف للناس باطن امرى لرأوا فؤادا قلقا وضميرا يراقب حركات النفس ويحاسبها حسابا عسيرا واحساسا يضطرب بعنف لكل مايهز احساس الناس هزا لينا .

« أنا صبى مفرط فى الحياء وخجول . ولهذين الخلتين دخل كبير فى اظهار مزاجى الحاد فى مظهر ساكن (١) » .

(و) أبرز القيم التى تحقق بها أستاذنا رحمه الله الايثار والتواضع ، وكان بهاتين الصفتين محببا الى النفوس . اما عن ايثاره فلم يكن يتوانى عن بذل العون لمن كان محتاجا اليه ، لايرجو فى مقابل ذلك عوضا . وكان يعين أبناءه من طلبة الجامعة على مواصلة تعليمهم بكل الوسائل ، ويتبرع لمن كان محتاجا منهم بمصروفات الدراسة ، وكان يساعد العائلات التى أخنى عليها الدهر بمرتبات شهرية ثابتة ، وكان خلق الايثار فيه طبعا لا تكلفا ، وهو باب من ابواب القرب من الله حجب عنه كثير من أغنيائنا . وأما عن تواضعه فكان صفة لاتفارقه أبدا ، فيجعل محدثه يأنس اليه ولايهابه ، ويحبه ولايخشاه مع ماله من سمت الشيوخ ووقارهم ونشأته فى اسرة عريقة فى النسب والعلم والمال والجاه .

كل أولئك وكثير غيره مما كان يتحلى به مصطفى عبد الرازق ، فلا غرابة أن يتخذه تلاميذه قدوة حسنة فى العلم والسلوك معا ، وأن يحبوه حبا صادقا ، وقد عبر تلميذه المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى عن ذلك قائلا :

« كنت من زكاء الفطرة ، وجلاء البصيرة ، ونقاء السيرة ، وصفاء السريرة حتى لم أجد فيك الا القدوة الحسنة فى العلم ، والاسوة الصالحة فى العمل . وكنت من البر لى والنصح لى والعطف على حتى لم اعهد منك الا المثل الأعلى فى الأستاذية والأبوة والصداقة جميعا . واذا لم تتح لى الاقدار أن أهدى اليك فى عالمك الدنيوى ماتهيأ لى من نتائج البحث العلمى التى ليست فى الحقيقة الا نفحة من نفحاتك وثمرة

---

(١) نفس المرجع ص ٣٢٨ .

من ثمراتك فلا أقل من ان أهدي اليك في عالمك العلوى هذه الصفحات، اجـلا لا لشخصـك ، واعترافا بفضـلك ووفاء بعهـدك ، واحيـاء لذكرك (١) » ..

وكتب تلميده المغفور له الأستاذ الدكتور عثمان أمين مشيرا الى أثره على نفسه وحبه له قائلا : « أما أنا فقد تتلمذت عليـه أكثر من عشرين عاما فأحببته وشرفنى هو بحبه واصطفانى ، وكان لى أبا روحيا، وكان بى حفيا .. كان أستاذنا يعتقد أن هنالك شيئا فوق العلم وفوق الفن ، وهذا الشيء هو مايطلق عليه اسم «الأخلاق» .. وكان يرى أن الأخلاق ينبغى أن تكون فنا للحياة ، أى أن ترسم قاعدة ثابتة لسلوك الشخص مع نفسه وبازاء الله والناس ، بمعنى أن يكون للانسـان فى حياته موقف مقرر وخطة مرسومة حتى لاتتجاذبه الأهواء والشهوات والانفعالات فاذا بلغ الانسان هذه المرتبـة كان حكيما ... ان بنـاء المجتمع يجب أن يقوم على الأريحية والايثار ، أى على الشعور بأننـا جميعا أسرة واحدة متصافية متآزرة أصلها واحد ومصيرها واحد ... وهل هناك أسخى من أن يمارس الأسـتاذ فلسـفته تلك وأن يعيش عليها ؟ وهل هناك أصفى من أن يعلم الناس بسيرته ومثاله أن المحرك الطبيعى للانسان انما هو الأريحية والاحسان ؟ » (٢) .

٥ ــ فاذا انتقلنا بعد ذلك الى منهج مصـطفى عبـد الرازق ، لوجدنا أنه قد أصل منهجا لدراسة الفلسفة الاسلامية نلمسه بوضوح فى دراساته ودراسات تلاميذه على ابتلافهم ، ويمكننا أن نبرز المبادىء الرئيسية لهذا المنهج فيما يلى :

أولا : الجمع بين الحديث والقديم فى بناء الثقافة واعادة مجـد الأمة .

ذلك أن الاستعمار قد نجح فى أن يثير منذ أواخـر القرن الماضى وأوائل هذا القرن شكوكا كثيرة حول قيم تراثنا العـربى الاسـلامى الأصيل . وتساءل كثير من المفكرين فى مصر وغيرها من البلدان العربية والاسلامية عن كيفية التوفيق بين ثقافة الغرب الوافدة اليهم وتراث

(١) توفيق التطبيق لعلى بن فضل الله الجيلانى ، تحقيق الأستاذ الدكتـور محمد مصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٥٤ ، الاهداء ، ص ٣ .

(٢) عثمان أمين (الدكتـور) : رائد الفكر المصرى ، مكتبة النهضـة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢١٥ ــ ٢١٧ .

الماضي الذى له فى نفوسهم قدسية خاصة . وقد دعا عدد من مفكرينا الى ضرورة الأخذ بالعلم الغربى وبالثقافة العصرية فى كل نواحي حياتنا دون قيد أو شرط ، على حين ذهب آخرون الى الجمود على كل ماهو قديم . وتوسط فريق بين أولئك وهؤلاء ، ومنهم أستاذنا مصطفى عبد الرازق ، فدعا الى الأخذ بثقافة الغرب مع احياء التراث العربى القديم بما انطوى عليه من أدب وعقيدة وتشريع وفلسفة ، وبذلك تمتزج الثقافتان القديمة والحديثة فى مركب واحد ، وبذلك تستعيد الأمة الاسلامية ثقتها بنفسها ، وتستطيع الصمود أمام تحديات الاستعمار التى تواجهها .

وقد نبه الشيخ مصطفى عبد الرازق الى الجمع بين الحديث والقديم قائلا فى عبارة موجزة : « وكل مانرجوه لهذه الأمة أن لايسوء ظنها بالحديث وأن لاتحتقر القديم ، فان مجدها المأمول يقوم على الأخذ بالحديث واحترام القديم» (١) .

ثانيا : تصحيح الأحكام الخاطئة عن التراث الفلسفى الاسلامى، والتى يذهب اليها عدد من الباحثين فى الغرب .

لم يكتف الاستعمار باستغلال موارد الأمة الاسلامية اقتصاديا ، وانما عمد الى حربها حربا فكرية لاهوادة فيها ، ومن أبرز أسلحتها تشجيعه بعض علمائه من المستشرقين على التأليف والبحث لخدمة سياسته البعيدة ، وقد تعمد هؤلاء فى أغلب الأحيان الطعن على قيم وعقائد الشعوب المستعمرة باسم البحث العلمى ليبينوا ــ لأغراض كامنة فى نفوسهم ــ أنها عقبة فى سبيل أى تقدم علمى أو اجتماعى لها .

وتتجلى هذه القاعدة المنهجية بوضوح فى كتاب أستاذنا مصطفى عبد الرازق «تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية» ، فقد خصص الفصل الاول من القسم الاول لنقد مقالات الغربيين عن الفلسفة الاسلامية ، كمقالات تنمان وتوازن ورينان وغيرهم (٢) ، مفندا ما فيها من أحكام خاطئة تستند الى التعصب للجنس أو للدين ، فى هدوء علمى يدعو الى الاعجاب . آملا أن تزول مثل هذه النزوات من الضعف الانسانى التى تشوب أحيانا جهود المستشرقين فى خدمة العلم ، وراجيا أن يكون فى

---

(١) من آثار مصطفى عبد الرازق ، ص ٢٧٣ .

(٢) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، القاهرة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ م ، ص٤ وما بعدها

يقظ عواطف الخير في البشر وانسياقها الى دعوة السلم العام والنزاهة الخالصة والانصاف والتسامح مدعاة للتعاون بين الناس جميعا على خدمة العلم بأعتباره نورا لاينبغى أن يخالط صفاءه كدر » (١) ٠

ثالثا : البحث دائما عن أوجه الأصالة والابتكار فى الفلسفة الاسلامية ٠

ذلك أن بعض الغربيين الذين درسوا هذه الفلسفة ادعوا أنها ليست الا ترديدا لاراء ارسطو او غيره من اليونانيين ، وينكرون أن يكون فيها ماهو جديد «لكن فلاسفة الاسلام على الحقيقة ، من أمثال ابن سينا ، كانوا يعرفون لأرسطو فضله من غير غفلة عن قصوره أحيانا وخطئه ، وكانت تقع لهم علوم من غير أرسطو ، بل من غير علوم يونان ، وكانت وجهتهم أن يشيدوا هيكلا فلسفيا يقوم على قواعد مما محصه النقد من مقالات ارسطو والمشائين ، وترفع أركانه بما عملته أيديهم وماكسبوه من غير اليونانيين » (٢) ٠

ويعتبر الشيخ مصطفى عبد الرازق أن « العوامل الأجنبية المؤثرة فى الفكر الاسلامى وتطوره ، مهما يكن من شأنها ، فهى أحداث طارئة عليه ، صادفته شيئا قائما بنفسه ، فاتصلت به ولم تخلفه من عدم ، وكان بينهما نماذج أو تدافع ، لكنها على كل حال لم تمح جوهره محوا » (٣) ٠

رابعا : الرجوع الى مصادر الفلسفة الاسلامية ، ونشر مالم ينشر من مخطوطاتها ليتبين دورها فى بناء التراث الفلسفي العالمى ٠

ذلك أن مالم ينشر من مؤلفات فلاسفة الاسلامية وعلمائه أقل بكثير مما نشر منها ، كما أن ما نشر منها لم يدرس بعد حق الدراسة ، فيقول استاذنا مصطفى عبد الرازق عن ذلك مانصه : «ومتى درست آثار الفلاسفة الاسلاميين حق دراستها — وذلك يحتاج الى كد الذهن وطول الصبر وحسن الاستعداد وتحصيل الآلة المعينة على تفهم تلك الأساليب — ومتى نشر للباحثين مالم ينشر من آثار القوم ، وهو كثير ، فسنعرف عن يقين نصيب الفلسفة الاسلامية من التراث الفلسفى فى العالم » (٤)٠

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧ ٠
(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٤٤ — ٤٥ ٠
(٣) نفس المرجع ، ص ٩٨ ٠
(٤) نفس المرجع ص ٤٥ ٠

خامسا : البذور الأولى للتفكير الفلسفى الاسلامى اسلامية :
ولابد من الرجوع الى النظر العقلى فى بساطته الأولى وتتبع مدارجه في ثنايا العصور وأسرار تطوره (١) .

وقد رأى شيخنا مصطفى عبد الرازق ان الاجتهاد بالرأى فى الاحكام الشرعية كان بداية النظر العقلى عند المسلمين ، والترتيب الطبيعى لدراسة الفلسفة الاسلامية يقتضى أن يتقدم السابق اللاحق ، والاجتهاد بالرأى فى الاحكام الترعية أقل نواحى التفكير الفلسفى تأثرا بعناصر أجنبية ، وهو يمثل لنا التفكير الاسلامى مخلصا بسيطا يكاد يكون مسيرا فى طريق النمو بقوته الذاتية وحدها فيسهل بعد ذلك أن تتتابع أطواره فى ثنايا التاريخ وأن نتقصى فعله وانفعاله فيما اتصل به من أفكار الأمم (٢) .

واعتبر أستاذنا الامام الشافعى فيلسوفا اسلاميا لأنه حاول ان يجعل من أصول الاستنباط الفقهى وقواعده علما ممتازا وأن يجعل الفقه تطبيقا لقواعد هذا العلم ، وحلل رسالته فى الأصول مبينا أن فيها مباحث تكاد تهجم على الالهيات أو علم الكلام (٣) .

واعتبر اسناذنا علم أصول الفقه علما مصطبغا بصبغة فلسفية ليس الى انكارها من سبيل ، وهو يدخل علمى الكلام والتصوف في اطار الفلسفة الاسلامية بمعناها العام (٤) . ولم يسبق أستاذنا — فيما أعلم — الى هذا الرأى .

٦ — خلاصة القول أن مصطفى عبد الرازق كان يرى أن بناء ثقافتنا واعادة مجد أمتنا يكون بانفتاحنا على ماهو جديد مع احتفاظنا بالقديم ، بحيث لايطغى القديم على الجديد ، ولا الجديد على القديم ، وأن نكون يقظين تجاه محاولة تشويه تراثنا الفكرى الاسلامى ، كما أنه يريد لنا أن نثق بأنفسنا وبتراثنا الحضارى ، فلا هو خلو من الابتكار والأصالة ولا هو بغير دور بارز فى التراث الفلسفى العالمى ، وعلينا أن ننشر مالم ينشر منه حتى نحكم عليه الحكم الصحيح . لقد بدأ الفكر الفلسفى الاسلامى اسلاميا فى مجال الاجتهاد بالرأى فى

---

(١) نفس المرجع ، المقدمة ، ص ط ، وانظر أيضا ص ١٠١ .
(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ١٢٣ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٢٤٥ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٢٧ ، ص ٧٤

الأحكام الشرعية ثم تطور مستفيدا من تراث الامم الاخرى دون أن يذوب في هذا التراث ، بل ان تراث اليونان أو غيرهم كان بمثابة أحداث طارئة عليه ، اتصلت به ولكنها لم تخلقه من عدم .

وكانت مثل هذه الآراء تعد فتحا جديدا في دراسات الفلسفه الاسلامية ، ولاشك أنها حددت خط السير لتلاميذه ودفعتهم الى مزيد من التعمق في دراسة الفكر الاسلامي لاكتشاف مافيه من أوجه الأصالة ودفعتهم كذلك الى القيام برسالة الاحياء للتراث ، فنشروا قدرا لايستهان به من المخطوطات لفلاسفة الاسلام ومتكلميه وصوفيته ، كما أنهم قاموا بدراسات علمية جادة لعديد من شخصيات الفلسفة الاسلاميه ومذاهبها كانت مجهولة او شبه مجهولة ، وتنبهوا الى ضرورة مناقشه المستشرقين فيما يذهبون اليه من آراء فلا تقبل على علاتها . واستطاع مصطفى عبد الرازق أن يغرس في عقل كل من اتصل به من تلاميذه الايمان بتراثنا الفلسفي الاسلامي وأهميته في تطور الحضارة الاوروبية وفي تطور مجتمعاتنا ، فالماضي يفعل في الحاضر وفي المستقبل .

واذكر من تلاميذ مصطفى عبد الرازق الذين تابعوا منهجه المرحوم الأستاذ الدكتور عثمان أمين الذى اتجه الى دراسة محمد عبده وآثره في حياتنا الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية ، والمرحوم الاستاذ محمود الخضيرى والأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة اللذين اتجها الى ميدان علم الكلام أساسا ، ونشرا كثيرا من نصوصه محققة الى جانب ماصنفا في ميدانه من دراسات ، والمرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمي والأستاذ الدكتور توفيق الطويل اللذين اتجها الى دراسات التصوف وشخصياته ، فدرس أولهما ابن الفارض وثانيهما الشعراني ، ونظرية الأحلام عند مفكرى الاسلام ، والمرحوم الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني الذى اتجه الى دراسة التربية عند المسلمين وعند أحد علمائها وهو القابسي ، والمرحوم الأستاذ الدكتور عبد العزيز عزت الذى اتجه الى دراسة ابن مسكويه وآرائه الأخلاقية ، والمرحوم الأستاذ الدكتور على سامي النشار الذى عنى بدراسة مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، وكثير غيرهم . ولهؤلاء الاساتذة الاجلاء دراسات عميقة منوعة لنواحي الفكر الفلسفي الاسلامي ، لها قيمتها واصالتها ، وقد نجحوا بدورهم في خلق جيل جديد من الباحثين يسيرون الآن على مناهجهم في الدراسة والبحث في الجامعات المصرية والعربية .

لقد أدى شيخنا مصطفى عبد الرازق رسالته ، وكان ولاشك

صاحب رسالة سامية فى الحياة ، عانى فى سبيلها ماعانى ، ولقى مالقى من عنت الجامدين ، وسوء ظن الجاهلين ، ولكنه مضى فى سبيله لتحقيق أمانيه ، غير عابىء بأولئك وهؤلاء ، ولا أجد أبلغ وأروع من قوله عن فلسفته فى الحياة :

« ان الحياة ينبغى أن تكون سبيلا الى أمنية عالية ، فمن ضحى فى سبيل أمنيته كل عزيز عنده حتى نفسه التى بين جنببه فذلك الانسان كل الانسان ، والذين يضنون بأرواحهم ويضمون آمالهم وأغراض حياتهم أولئك لا يقام لهم وزن عند الله ولا عند البشر » (١) ٠

لقد صدقت أيها الشيخ الجليل ، فان وزنك عند الله وعند الناس عظيم بقدر ماضحيت فى سبيل رسالتك ، وبقدر ماقدمت لأمتك من أسباب النهوض والتقدم ، وبقدر ماهديت الناس الى طريق الخير والحق والجمال ٠

د ٠ أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

---

(١) من آثار مصطفى عبد الرازق ، ص ١٥٩ ٠

دروس من فكر

الشيخ مصطفى عبد الرازق

بقلم

الدكتور محمد كمال جعفر

يرى المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مستهل تمهيده لتاريخ الفلسفة الاسلامية قاعده نفيسة يجب أن يحرص عليها كل باحث جاد فى أى فرع من فروع الدراسة أو المعرفة . وتتلخص هذه القاعدة فى ضرورة الالمام بجهود وآراء الرواد والسابقين (١) فى هذه الدراسة قبل الافضاء بما يقدمه الباحث أو يعرضه الدارس . وتطبيق هذه القاعدة يخدم غرضين أساسيين : أولهما التعريف بالأبعاد التى انتهت اليها الدراسة فى هذا الميدان أو ذاك ، وثانيهما اتاحة الفرصة للنقاد وللاحقين من الدارسين لتكوين حكم سليم فى تقدير الانجاز أو الاضافة التى حققها الباحث بالفعل .

ووفاء لهذه القاعدة فقد عرض الشيخ لجهود من تناولوا الفلسفة الاسلامية تاريخا وتقويما سواء أكانوا مستشرقين ممن عنوا بتأريخ الفلسفة بوجه عام أو بتاريخ الفسلفة الاسلامية على وجه الخصوص ـ أو كانوا من المؤلفين الاسلاميين على تنوع مجالات تخصصهم (٢) . ولذا نجد بدء الشيخ باستعراض مقالات الغربيين منذ صدر القرن التاسع عشر ، باعتباره ممتلا لاستقرار معالم النهضة الأوربية الحديثة حتى عصر المؤلف ـ أى منتصف القرن العشرين .

أما بالنسبة لآراء أهل هذا القرن من المستشرقين فقد خص الشيخ أهمها بالعناية من حيث العرض والتحليل ثم التعقيب والنقد المدعم بالنصوص الموثقة ، أو بالاستنباط العقلى المتزن . ولعلنا نذكر على سبيل المثال لا الحصر ملاحظاته الدقيقة النفاذة على آراء «تنمان» Tennemann (٣) التى عرضها عرضا أمينا مقتبسا من مصادرها الأصلية . ويعكس الشيخ فى هذه الملاحظات خصائص المفكر اللماح الذى يسرع ذهنه الى لب الأمر وجوهر الموضوع وخلاصة الحكم فى غير عناء ، والذى يتمتع الى جانب ذلك بالهدوء والاتزان وعدم التعصب .

لقد أوجز الشيخ ما يلاحظه على دراسة تنمان كما تنطق نصوصه فيما يلى :

أولا ـ أنه ـ أى تنمان ـ ينسب الفلسفة الاسلامية الى الشعب العربى .

ثانيا ـ أنه يعتبرها شاملة لما يسمى فلسفة على الحقيقة ، مع ما اتصل

به عرضا فى بعض الأطوار من منازع الاشراقيين ، كما أنها شاملة أيضا لمذاهب المتكلمين ٠

ثالثا ـ أنه يصف هذه الفلسفة بأنهـا مجرد شرح مضعف ومشوه لمذهب أرسطو ، كما أنها محاولة لتطبيق هذا المذهب على قواعد الدين العربى ٠

رابعا ـ أنه يجعل من المعوقات التى عاقت العرب عن الفلسفة ما هو راجع الى أسباب دينية كطبيعة الدين أو القرآن أو حزب الأغلبية وهو أهل السـنة ، ومنها ما هو راجع الى أسباب قوميـة أو عنصرية كطبيعة استعداد العرب للتأثر بالأوهام وخضوع عقولهم لسلطان أرسطو ٠

خامسا ـ يعترف تنمان بأن مؤلفـات الفلاسفة العـرب لم تدرس حق دراستها (٤) ٠:

ومن الأهميـة بمكان أن نحتفظ بهـذه الملاحظات التى أضحت فيما بعد قضايا ومسائل ومشكلات يحتدم حولها الخلاف وتتصارع عليها الآراء ، وقد أفلح الشيخ فى جعلها أرضا مشتركة تشكل ساحة المعركة بين المستشرقين أنفسهم ، على حين يقف الشيخ واصفا محللا وشارحا ومعللا ليتم له فى النهاية تكوين الحـكم المتزن الهادىء الموضوعى الذى تعودناه منه ٠

واذا كان الشيخ قد عرض لآراء تنمان فانه تعرض أيضا لآراء غيره من مستشرقى القرن التاسع عشر بنفس الروح الهادئة الواعية التى تريد حقيقة أن تصل الى الصواب ٠ لقد عرض لكوزان ثم خص آراء « مونك » و « رينان » (٥) بمزيد عنـاية لما كان لآرائهما من سـطوة على الفكر فى عصرهما وبخاصة الأخير الذى اكتسب شهرة مطبقة نتيجة لكثرة أسفاره للشرق والمامه بكثير من اللغات وتاريخ الديانات ٠ ومع أن « رينان » لم يكن المبتكر لفكرة التمييز بين السامية والآرية فى الكفاءة الفلسفية ، الا أنه كان أشـد خطرا من حيث سمعته العلمية ، ومن حيث ارتبـاط الدراسات اللغوية فى عصره بفكرة الأجناس مما كان يكسب آراءه جلالا علميا لا يجاريه فيه الا القليل ٠

لذلك نرى الشيخ يسلط الضوء على مؤلف « رينان » الذى أصر فيه على تأكيد « دونية الجنس السامى بالنسبة للجنس الآرى وهو تاريخ اللغات السامية Histoire générale et systeme compari des langues.

كما يوجه الأنظار الى كتابه « ابن رشد والرشدية » Averroès et l'Averroisme ويقتبس منه نصوصا مختلفة اذا ضمت الى بعضها نطقت بتناقض مؤلفها وتهافت آرائه مما يتيح للشيخ في النهاية أن يقول :

« ويستخلص من أقوال رينان المختلفة بعد تجريدها من زينة البلاغة ، وخيال الشعر ، ووثبات الحماسة والهوى والتناقض : أن هناك فلسفة عربية هي تعريب للفلسفة اليونانية ، وهناك فلسفة اسلامية هي علم الكلام ، ويصرح رينان في كتبه بأن في هذه الفلسفة الاسلامية موضعا للطرافة » (٦) ثم يقول :

« وجملة القول ، أن « رينان » ـ الذى هو خصيم الجنس السامى والدين الاسلامى جميعا ، كان فيما يتعلق بالفلسفة شديد الشكيمة على ما سماه « فلسفة عربية » ، لكنه ألين جانبا لما دعاه « فلسفة اسلامية » (٧) ٠

ونلحظ فى هذين النصين اللذين اقتبسناهما من كتاب الشيخ أنه استطاع بحق أن ينصف « رينان » وأن يعلن فى الوقت نفسه العقبات الحقيقية التى تحول دون رينان والحقيقة ، ومفتاح هذه العقبات يتمثل فى الخصومة والمعاداة المسبقة للسامية وللاسلام ٠

ولكن براعة الشيخ لا تقف عند حد هذا التعقيب بل تتبعه بنقد معاصرى « رينان » من الفرنسيين أنفسهم له مع الدقة والأمانة فى عرض هذا النقد الذى يتلخص فى وصف آراء « رينان » ومن شايعه بالحيف فى الحكم على الفلسفة عند العرب ، وهذا الحيف وليد سوء التحديد للفلسفة من جهة ، والجهل بما للعرب من مصنفات غير شروحهم لأرسطو من جهة أخرى (٨) ٠

ويخلص الشيخ بعد تناول آراء كثير من معاصرى « مونك » ورينان الى أن هذه القضايا أو الملاحظات الخمس التى أشرنا اليها سابقا ظلت مجال أخذ ورد فى مطلع القرن التاسع عشر ولكنها ما لبثت أن تهاوت ولم تعد لدى العقلاء والباحثين الجادين مسلمة ما عدا قضية واحدة لعلها ما تزال (وربما لن تزال) غير مكذبة وهى : أن مصنفات الفلاسفة الاسلاميين لما تدرس حق دراستها (٩) ٠

ومعنى ذلك لكل لبيب أن اصدار الاحكام بعد العامة على حصيلة الفكر

الاســـلامى ما يزال سابقا لأوانه ، ومن ثم فلا ينبغى أن تؤخـذ آراء المستشرقين بهذا الصدد مأخذ التسليم والاستيثاق ٠

على أن انصاف الشيخ لدارسى الفلسفة الاسلامية من الغربيين لم يقتصر على مجـرد عرض آرائهم والحاقها بالتعليق الهادىء المتزن ، وانما شمل أيضا تصنيف هؤلاء الدارسين من حيث منهج الدراســة الذى توخوه ، ومن حيث النزعة الأصلية التى كانوا يصدرون عنها فى هذه الدراسة ٠

لقد أوضح جانب هؤلاء الذين وضعوا الحـــدود والفواصل بين الجنسين السامى والآرى ، وهؤلاء الذين لم يدخلوا فى حسابهم مشكلة السامية والآرية ٠ ومن الأولين مونك ورينان واشتروس D. Strauss وجوتييه Léon Gauthier ولابى Lapie ومن الآخرين هورتن الذى عبر عن وجهـة نظر هذا الفريق فى الفصـل الذى عقده للفلســفة فى دائرة المعارف الاسلامية (١٠) ٠

واذا كان الشيخ قد أدرك تناقض أقوال بعض هؤلاء الدارسين فى العديد من المؤلفات فان أعجب من هذا أن تلاحظ التنـاقض الذى يحمله النص الواحد للدارس الواحد ٠ وذلك يتجلى بحق فيمـا يذكر فون كريمر عن النشاط العلمى عند المسلمين ، وفيما يذكره مكدونالد فى حكمه على الفكر العربى الاسلامى ٠

أما الأول فيذكر أن أعظم نشاط فكرى قام به العرب يبدو جليا فى المعرفة التجريبية « فانهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا عجيبين حين يلاحظون ويمحصون ٠٠٠٠ وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة وبصفتهم مفكرين مبدعين فانهم قد أتوا بأعمـال رائعـــة فى حقلى الرياضيات والفلك ٠٠٠٠ ولكن من جهة ثانية نجد أنهم فى حقل المعرفة النظرية والتفكير التجريدى لم يستطيعوا أن يتعدوا حدود الفلسفة الارسطاليـسية والأفلاطونيــة ٠ وعنـــدما كانوا يحاولون الخـروج من اطار الفلســفة الاغريقية ، كان الخيال الشارد يؤدى بهم الى خيالات وأوهام ، وأخيرا الى نوع من الغيبة التى لا شكل لها (١١) ٠

ولا يخفى ما فى هذا النص من أفكار متناقضة : فهو فى قسم منه يصف العرب المسلمين بدقة الملاحظة وابداع الفكر وانتاج الروائع فى الرياضيات والفلك ـ على ما فيهما من تجريد ـ وهو فى قسم آخر يصمهم بالتقليد والجمود وعدم القدرة على مجاوزة المأثور من الفكر اليونانى ٠

ونحن نعلم بالاضافة الى هذا أن « كريمر » (١٢) من هؤلاء الذين يرون أن العرب ربطوا دائما بين المعرفة والنفع ، أى أن الحافز العملى كان يثير حماس مفكرى الاسلام وكان سبيل التقدم ، فهل يريد بذلك أن يقول مثلا ان العرب قد سبقوا « البرجماتيين » •

في أوربا وأمريكا الى قياس المعرفة بنتائجها العملية النافعة ؟ أو هو يريد أن يقول : ان المغريات الحسية والمادية هى التى دفعت العقلية العربية الى تحصيل المعرفة ، وان لم يكن هناك ميل أو رغبة أو استعداد لها ؟ وعلى الاحتمالين فان ذلك لا يغض من قيمة المعرفة ذاتها ، ولا من قيمة العقلية التى حصلتها •

أما مكدونالد Macdonald فيتناقض حقيقة حين يقول : فى حكمه على الفكر العربى الاسلامى « مما لا شك فيه أننا نجد هنا أسرارا من أسرار ذلك النقص الفاضح فى الفكر الاسلامى ، نعم هناك شواذ لهذه القاعدة ، واعية أو غير واعية • ولكن الاتجاه العام فى استغلال القوة والتأثير قد تجاوز كل حد فأفسد حرية الفكر **فان الغاية يجب أن تكون عند المسلم محددة واضحة المعالم قبل الشروع فى أى بحث ••• أما البحث الذى لا يعلم صاحبه الى أين سيؤدى به ، ولا النتائج التى قد يسفر عنها ، ولا يأبه سلفا بها فمحرم فى الاسلام » (١٣) •**

ومناط التناقض فى هذا النص أن المؤلف يعتبر من الفساد الفكرى أن تكون الغاية من البحث محددة واضحة المعالم قبل الشروع فيه « فهل تحديد الغاية من البحث والارتباط بها يعتبر عيبا فى البحث العلمى ، أو يعتبر وفاء بالدقة المنهجية التى تفرضها طبيعة هذا البحث ؟ وهل يوجد عالم واحد لا يعرف ماذا يعمل أو الى ماذا يهدف ؟

لقد مدح المؤلف الاسلام من حيث أراد ذمه بقوله : **ان البحث الذى لا يعلم مساره ، ولا يدرى فيه أى سبيل أو يؤمل فيه الوصول الى نتائج محرم فى الاسلام** — (مع أن لنا نحن هنا بعض التحفظات) •

اذ أن مفهوم هذه العبارة **أن الاسلام يحرم العبث وتبديد الوقت والطاقة فيما لا طائل تحته • فهل ذلك مما يوجب المذمة والملام ؟**

وتتجلى قمة التناقض فيما يعزوه بعض المستشرقين الى الاسلام وعقيدة الاله والقدر فيه من تجميد للفكر وحجر للحرية ودعوة الى الهمود والخمود ، اذ أنهم يعرضون التصور الاسلامى للألوهية مشوها حيث

يقتصرون فى هذا العرض على جانب القهر والجلال والجبروت ، ويغفلون جانب اللطف والرحمة والعلم والرعاية والتدبير والمحبة • مع أن الجانبين معروضان باتساق واتزان فيما يتضمنه القرآن الكريم من صفات الله جل جلاله ، ومع أن الفكرة الصحيحة للقــدر لم تحل بين المسلمين وبين النهوض وصنع وتطوير الحضارة •

ولكن الشيخ مصطفى ـ رغم ادراكه صحة كل هذه الحقـائق آثر أن يظل وفيا للروح الاسلامية فى افساح المجال ورحابة الصدر لاستقبال وشرح الآراء من وجهة نظر قائليها ، والأناة والتؤدة والهوادة والاقنـاع المتدرج بصحة أو فساد هذه الآراء ، وسنرى أنه يتوج ذلك كله بتلخيص مركز ومنصف لموقف الغرب من الفلسفة الاسلامية بعد أن عرض عـلى القارىء ما يشـهد بسعة الاطلاع ودقة الفهم والاستيعاب ، ومما يمنح دارس الفلسفة الاسلامية آفاقا عريضة ينفتح منها على الأبعاد التى يمكن أن تؤدى اليها مجالات هذه الفلسفة لدى الآخرين • فقد فجر النقاش حول هذه الفلسفة بأنها عربية أو اسلامية ، واستنفر الأدلة على كليهما بين فلاسفة كثيرين فى الغرب والشرق ، وانتهى بعد الموازنة والتحليل والتعليل الى ما يطمئن اليه ، والتمس بعد ذلك ـ وان شئت قلت رغم ذلك ـ التأييد لما ذهب اليه بما توثق من نصوص المتخصصين على وجه الدقة والتحديد (٤) •

لقد كان تلخيص موقف الغرب من الفلسفة الاسلامية كما عرضه فى تركيز الشيخ الراحل بمثابة الترمومتر الدقيق والرسـم البيـانى الواضح والخريطة الفكرية المضبوطة لما آل اليه الحال فى عصره بالنسبة لدراسة الغرب لهذه الفلسفة • لكانه لقطة تصويرية سجلت عيون نتائج الدراسة فى لحظات ، وان يكن تجميع قسماتها قد تم فى سنوات ، وهذا من اهم خصائص العقلية النفاذة •

أدرك الشيخ أنه فى القــرن العشرين تلاشى القول بكون الفلسفة الاسلامية تشويها لمذهب أرسـطو ، وبدأ التسليم بأن لها كيانا خاصا يميزها عن مذهب أرسطو ومذاهب مفسريه ، كما أدرك أيضا تلاشى القول بكون الاسلام وكتابه الكريم عقبة فى سبيل الفكر أو سجنا لحرية العقل ، أو وشوكه على التلاشى • وهذا احتراس واستدراك دقيق من الشيخ لأننا ما نزال نجد بين الحين والآخر احياء لمثل هذا القول أو ذاك (١٥) •

ومما أدركه الشيخ بحق شمول لفظ فلسفة عربية واسلامية لما

يسمى فلسفة أو حكمة ولمباحث علم الكلام ثم اشتداد الميل الى اعتبار التصوف أيضا من شعب هذه الفلسفة ، وبخاصة فى العهد الأخير الذى عنى فيه المستشرقون بدراسة التصوف ٠

وهذه النقطة على جانب كبير من الأهمية لأنها تمثل فى الواقع نقطة انطلاق حقيقية للمنهج الفريد الذى وضعه الشيخ لدراسة تاريخ الفلسفة الاسلامية ، وهى على جانب كبير من الأهمية أيضا لأنها تمس حقيقة الميادين التى يجب أن تشملها الفلسفة الاسلامية ، ثم هى أخطر من ذلك لأنها توجه الأنظار الى ضرورة استيعاب هذه الميادين قبل اصدار الحكم على الفلسفة الاسلامية أو الفكر الاسلامى ، وهى فى النهاية تمكننا من تفسير بعض أسباب الخطأ فى أحكام بعض المستشرقين ممن لم تكن لهم نزعات عدائية أو تعصبية ٠

أما أنها نقطة انطلاق حقيقية لمنهج الشيخ ، فلأن **ملاحظة الشيخ اتجاه بعض المستشرقين الى اعتبار « علم الكلام » ممثلا للفلسفة الاسلامية** الخالصة باعتباره يدور حول العقيدة ذاتها وما يستتبعها ، ثم **ملاحظته ادراج بعض المستشرقين للتصوف ضمن النطاق الفلسفى** ــ هاتان الملاحظتان جعلتا من الطبيعى أن يفكر الباحث فى فرع عقلى آخر أنتجه المسلمون وكان الجدل بين المستشرقين من جانب ، والجدل الذى دار بين المسلمين من جانب آخر حول أصول التشريع والفقه والرأى وما يتصل بذلك مشجعا أكيدا للشيخ فى اعلانه ضرورة ضم أصول الفقه الى شعب الفلسفة أو ميادينها (١٦) ٠

نعم ان الشيخ حين أبدى هذا الرأى أراد أن يدعمه بأدلة عقلية موجزة ، مشفوعة بأدلة نصية أو نقلية موثقة على سبيل الايجاز أولا ثم على سبيل التفصيل المحلل أخيرا ٠ ومن الأدلة الأولى ما يلاحظه من أن مباحث علم أصول الفقه أو أصول الأحكام تكاد تكون فى جملتها من جنس المباحث التى يتناولها علم أصول العقائد أو علم الكلام ٠ وقد لا نعدم فى بعض المصادر القديمة لفظ الأصول الشامل لأصول الفقه والعقيدة أى الشامل للعلمين أصول الفقه وعلم الكلام ٠ وقد نضيف هنا بالمناسبة أن هناك من المؤرخين من كان يطلق الأصول لتتضمن أصول الفقه مع التصوف باعتبارهما ينتميان الى الأصول ٠

ونرى أن نقف مليا عند هذه القضية وهى قضية ما يجب أن تشمله الفلسفة الاسلامية أو الفكر الفلسفى الاسلامى ٠ فمما لا جدال فيه أن

حقيقة الطابع الموسوعي والشمولي للبحث في الفلسفة الاسلامية يفرض على الباحث نشدان الحصول على تصور كامل للتفكير الفلسفي في الاسلام وذلك لا يتأتى الا بتلمس ذلك وتحديد معالمه في ميادين أربعة متميزة ٠

الميدان الأول علم الكلام أو البحوث الكلامية التي تبودلت بين الفرق الاسلامية باعتبار هذا العلم باكورة من بواكير العقلية الاسلامية تحت ضغط الظروف المختلفة التي اكتنفت نشأته وأذكت ناره وفي هذا العلم لا نعدم وجود نظريات وآراء لا يعوزها العمق الفلسفي وان تكن قد أفادت في مراحلها المتأخرة من خارج المحيط الاسلامي (١٧) ٠

والميدان الثاني ميدان أصول الفقه : وفي هذا الميدان نجد القواعد المنهجية والتحليلات المنطقية الدقيقة للغة والفكر مما يخلع عليها طابعا فلسفيا مميزا ، كما نجد فيها بوضوح مقدرة العقلية التي أنتجته على التنظيم Systematization ، وعلى الاستنباط والاستقراء معا deduction & induction ٠ وواضح من تعريف المتخصصين لهذا العلم كأبي الحسين محمد بن علي الطبيب البصري المعتزلي (ت٤٣٦هـ/١٠٤٤م) ـ ولاحظ وصف المعتزلي ـ أن هذا العلم يحمل الخصائص المعيارية التي تجعله بالنسبة للفقه والتشريع بمثابة المنطق بالنسبة للفلسفة الخالصة ٠ فهو تقنين عام يراعي أصول الاستدلال بنوعيه الاستنباطي والاستقرائي (١٨) ٠

أما الميدان الثالث فهو ميدان التصوف : وفيه هذا الميدان لا نجد ثمرة العقل وحده ، أو الحدس وحده ، أو السلوك والعمل فحسب ، وانما نجد ثمرة تكامل الطاقات الانسانية المبدعة عند ما سلمت فطرته وطهرت سريرته وحسن تعلمه وتفهمه وقد تمثلت هذه الطاقات الابداعية في آراء ومذاهب ومبادىء قد تبز في العمق والدقة كثيرا من النظريات والآراء التي حوتها الفلسفة اليونانية ذاتها ٠

لهذا دعونا الى منهج في دراسة التصوف (١٩) يراعي فيه التمييز بين جوانب ثلاثة : الجانب العملي أو السلوكي وهو جانب الطريق وما يتصل به مما يؤديه الصوفي من أعماق وما يتمثله من فضائل وما يقوم به من وسائل بغية التطهر ، وما يؤديه من أوراد وأوجه رياضية الخ ٠ والجانب الثاني هو جانب المشاعر والعواطف والوجدان وأوجه النشاط النفسي وما يصحبه من تأمل ومراقبة ، وما ينتاب الصوفي من أحاسيس وخواطر ونوازع وميول ووحشة وأنس وقبض وبسط

وما الى ذلك من الأحوال النفسية العديدة التي يعانيها السالك في طريق التصوف • ويمكن أن نطلق على هذا الجانب لفظ « التجربة » •

أما الجانب الثالث والأخير فهو الجانب النظرى أو الفكرى الذى تظهر فيه آراء الصوفى مصوغة فى ألفاظ وعبارات شارحة ، وان تكن فى كثير من الأوقات غامضة • وفى هذا الجانب نلتقى بالنظريات والقضايا الميتافيزيقية والنفسية والأخلاقية • ويمكن أن نطلق على هذا الجانب لفظ « المذهب » •

وهذا التقسيم الثلاثى لا يعنى تميز هذه الجوانب تميزا يوحى بالانفصال أو الاستقلال ، وانما هو تقسيم أريد به تسهيل الدراسة وتمكين الدارس من القاء الضوء المركز على هذه الجوانب حتى تتضح مقومات الأصالة والصدق والعمق فى هذه الجوانب ومن ثم يمكن تقدير التصوف تقديرا صحيحا ، من حيث صلته بالدين من جانب ، ومن حيث صلته بعلم الكلام والفلسفة المدرسية من جانب آخر •

ورابع الميادين وخاتمتها هو ميدان الفلسفة التقليدية أو المدرسية أو المشائية والاشراقية •

ونرى أنه من الناحية الواقعية قد دخل التصوف عنصرا أساسيا فى فلسفة كثير من الفلاسفة المسلمين ــ وان يكن قد ظل فى حدود النطاق العقلى فى كثير من الأحيان • وقد أدرك هذه الحقيقة أستاذنا الدكتور ابراهيم مدكور حين أشار الى أن هناك نزعة صوفية سادت الفلسفة الاسلامية وقد خصص فى دراسته للفارابى جانبا هاما لمعالجة تصوفه ، كما بحث نظريته فى السعادة فى ضوئها • كما أشار بحق الى مواضع وأهمية هذه النزعة لدى أهم أعلام الفلسفة الاسلامية وعرض بالتفصيل لهذه النزعة لدى الفارابى وابن سينا والسهروردى فى المشرق ، وابن باجة وابن طفيل (٢٠) ــ ونضيف ابن مسرة ــ فى المغرب •

وهذا بلا شك يدل على أهمية دراسة التصوف فى فهم آراء الفلاسفة أنفسهم ، ناهيك بالصوفية الذين برعوا فى التأمل والفلسفة •

واذا كنا نؤمن الآن نظريا ، ونطبق فى دراساتنا ومناهجنا فعليا شمول الحقل الفلسفى لهذه الميادين فان ذلك قد تم بفضل الجهود التى بذلها دارسون وباحثون أجلاء يقف الشيخ مصطفى عبد الرازق بينهم عملاقا متميزا •

. حقا ان الظروف لم تتح للشيخ أن يفسح مجال التطبيق الكامل لمنهجه فى تأريخ الفلسفة الاسلامية ، الا أنه خطا أشق الخطوات التى يهابها الباحث ما لم يكن قد أحسن الاعداد والاستعداد ٠

أما الاعداد فقد ترسخت فيه حصيلة طيبة من التراث الفكرى الاسلامى ، مسبوقة بحفظ القرآن ووجوه تفسيره ومشفوعة بالمام واسع بالمصادر المنوعة فى الثقافة والفكر والحضارة الاسلامية وقد أثرى ذلك ونماه وفجر عيونه انفتاحه على الدراسات الغربية ودرايته البصيرة بأنماط وأبعاد هذه الدراسات ٠

وأما الاستعداد الأصيل فقد يبرهن عليه نجاحه فى الوصول عبر هذه الأنساق المتباينة المتضاربة من الفكر الى **التقاط الخيط الذى يمثل نقطة البدء الصحيحة لتأريخ الفلسفة الاسلامية أو الفكر الاسلامى وهو نشدان نقطة البدء هذه باستكشاف « الجراثيم الأولى للنظر العقلى الاسلامى فى سلامتها وخلوصها »** (٢١) ٠

وهو يبرهن مرة أخرى على سلامة هذا الاستعداد والكفاءة حين يرسم خطته بعد تحديد نقطة البدء بأن يساير خطاها فى أدوارها المختلفة **« من قبل أن تدخل فى نطاق البحث العلمى ، ومن بعد أن صارت تفكيرا فلسفيا »** ٠

اذ أن هذه الخطة تكشف عن وعى الشيخ بالتفرقة بين حدوث أو اختراع الفكرة ، وبين فلسفتها ونظمها مع نظيراتها فى تصنيف محكم ٠ اذ لا شك أن كثيرا من الثمرات العقلية ينشأ منتثرا لا يجمعه نظام حتى تأتى المرحلة التى تصبح هذه الثمرات جميعها موضوعا للفكر نفسه فيتحدد بذلك العلم وتحدد معه مسائله وقضاياه بعد أن يتضح منهجه وغاياته ٠

ولذا بدا من الطبيعى للشيخ أن يتلمس البراعم الأولى للنظر العقلى لدى المسلمين ، وقد رأى عرض الحالة العقلية ابان ظهور الاسلام ليكون من السهل على المتتبع معرفة دور الاسلام فى تأصيل النظر العقلى والتأمل الفكرى وهما عماد الحياة الفلسفية فى أية أمة (٢٢) ٠

وبهذا يضع الشيخ مفكرى أصالة الفكر الاسلامى ، والقائلين بأنه استعاره بالجملة من الخارج ــ يضع جميع هؤلاء أمام شواهد دامغة لا سبيل الى التغاضى عنها أو التقليل من شأنها ٠

وإذا كانت الدروس المستفادة من فكر الشيخ لا يفى بحقها اضعاف هذا المقال فاننى أرى لزاما على القلم أن ينوه ببعضها فى حدود ما يتيحه الوقت والمساحة مع الاشارة بأن ما نشير اليه قل من كثر ، ولكنه مع ذلك مدعاة للاعتزاز بهذا المفكر الجليل ، وحافز على المزيد من الدراسة وعلى المزيد من التطبيقات التى تستلهم فكره وتتأسى منهجه ٠

ولعل أبلغ هذه الدروس بالنسبة لأى باحث داخل المحيط الاسلامى أو خارجه هو الموقف الفكرى النزيه الشجاع الذى يتوخى الانصاف والحيدة والعدل والوصول الى الحقيقة فى هدوء وتؤدة واتزان ٠

أسنمع اليه معلقا على جهود الغربيين فى دراسة الفلسفة الاسلامية ، اذ يقول : « ان الناظر فيما بذل الغربيون من جهود فى دراسة الفلسفة الاسلامية وتاريخها لا يسعه الا الاعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم ٠ واذا كنا ألمعنا الى نزوات من الضعف الانسانى تشوب أحيانا جهودهم فى خدمة العلم ، فانا نرجو أن يكون فى تيقظ عواطف الخير فى البشر وانسياقها الى دعوة السلم العام ، والنزاهة الخالصة والانصاف والتسامح مدعاة للتعاون بين الناس جميعا على خدمة العلم باعتباره نورا لا ينبغى أن يخالط صفاء كدر » (٢٣) ٠

أرأيت أروع من هذا التعليق الذى يكشف عن النقاء والانصاف وعدم بخس الناس أشياءهم ؟ أرأيت الى هذا الرجاء المفعم بالحب والتقدير للانسان بما هو انسان أن تتحرر العقول من العصبية والاستعلاء ، وأن يتبادل الانسان العون مع أخيه الانسان فى سبيل اتساع رقعة النور أى انفساح ساحة العلم الذى هو نور ؟ أرأيت الى البراعة فى التعبير عن الروح الاسلامى فى أنقى صورة دون أن يثير نعرة ، أو يحدث تشنجا ؟

ألا ما أحوجنا وما أحوج العالم الى أن نتمثل هذه الخطوات التى تقود الى السلام والأمن والخير والرفاهية والتقدم ان الشيخ بهذا التعليق يقنع الجميع بأن الفلسفة الحقة لا يمكن أن تكون أداة لتدمير أقدار الناس أو قيمهم أو آمالهم فى الخير والسلام والرفاهية ، كما لا يمكن أن تكون وسيلة بث الكراهية والشحناء والخصومة بين بنى البشر ٠

واذا كان الشيخ قد نقد بعض الغربيين وفند آراءهم فقد استعمل أرق الأساليب وأكثرها تهذيبا ، ثم لم يقنع بهذا بل عزا زلات بعض هؤلاء فى سوء تقديرهم للانجازات الفكرية الاسلامية الى ألوان من الضعف

الانساني ، وكأنه يلتمس لهم العذر فيما ذهبوا اليه شأنه في ذلك الكبار المترفعين عن السفاسف ، والمترفقين بمن يخالفون ٠

ان هذا الانصاف الذى توخاه الشيخ مع الغربيين هو نفس الانصاف الذى توخاه مع الاسلاميين ، بالرغم من تطرف آراء بعض هؤلاء ، وبالرغم من تنوع هؤلاء الاسلاميين من حيث التخصص فلم ينحز فى أحكامه الى فريق على حساب فريق آخر ، وانما ذكر ما لكل فريق وما عليه ثم عقب بالحكم الهادىء الطبيعى الذى تقتضيه المقدمات المستمدة من النصوص الموثقة ٠

ففى موضوع « العلاقة بين الدين والفلسفة » ينتهى بالتعليق الذى لا يخطىء قارئه فى أن هذا هو تعليق الشيخ مصطفى عبد الرازق لما يحمل من سمات ومميزات تعليقاته التى أهمها الايجاز والتركيز والهدوء والموضوعية والانصاف ٠

يقول الشيخ معلقا على آراء الاسلاميين فى هذه العلاقة « اذا كان الفلاسفة يحاولون غالبا التوفيق بين الشريعة والحكمة فى أسلوب ليس فيه عنف ولا نزوع الى كبرياء ، **فان لبعضهم أساليب تكاد تكون مهاجمة الدينيين أو دفاعا لعنف** » (٢٤) ٠

ويستشهد للحالة الأخيرة بمثال وهو نص عن « المقدسى » فيه يقول ان « **الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الأصحاء ٠ والأنبياء يطبون للمرضى** حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية ٠ أما الفلاسفة **فانهم يحفظون الصحة** على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا ٠٠٠ » (٢٥) ٠

ولا يتخلى الشيخ عن انصافه حين يذكر أن علماء الدين قد وقفوا من الفلسفة موقف الخصوم فى غير هوادة ولا رفق ، ويتبع ذلك بنصوص مستفيضة نوعا ما ليبرز بذلك مدى التجنى الذى وقع فيه بعض هؤلاء (٢٦) ٠

ومن الدروس القيمة التى يجود بها فكر الشيخ **حسن الافادة من النصوص** الى أقصى حد ممكن دون افتعال أو تحامل ، مهما بدت المادة غزيرة ، والنصوص متنوعة ٠ ويتجلى ذلك أوضح ما يكون عند معالجته لموضوع الفلسفة لدى العرب ٠ فهو قد عرض سلفا آراء بعض المستشرقين الذين أنكروا أن يكون لدى العرب فكر أو فلسفة لموانع

طبيعية ودينيـة ، ومع ذلك عنـــدما استعرض آراء الاســلاميين مثـل الشهرستاني والمقريزى وصاعد الأندلس وابن خلدون وابن أبى أصيبعة وغيرهم وغيرهم من الفلاسفة كالفارابى وابن سينا وابن رشد ـ عندما استعرض آراء هؤلاء لاحظ أن بعض النصوص التى تعرض للمقارنة بين العرب وغيرهم من الأجناس كالفرس قد يستغل فى التقليل من شـأن الكفاءة العربية اذا فهم على وجهه القريب • عندئذ تنبرى ألمعيته وذكاؤه لتفسير هذه النصوص بما يشهد بعكس ما يريد المستغل ، ولكنه لايجعل ذلك مجرد تأويــل أو اســتنباط تحكمى أو تعصبى ، بـل يجعله مدعوما بنصوص أخرى مقارنة توضح المراد الذى يشهد بتأييد وجهـة نظره ومثال ذلك باختصــار تعليقه على كلام الشهرستانى الخاص « بأن أكثر حكم العرب فلتات الطبع ، وخطرات الفكر » وبأن « الغالب عليهم الفطرة والطبع » • فقد فسر الشــيخ كلام الشهرستانى فى ضــوء كلام الجاحظ فى « البيــان والتبيين » عن الفرس والعرب اذ يقول « الا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم فانما هو عن طـول فكرة ، وعن اجتهــاد وخلوة ، وعن مشورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ••• وكل شىء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام » (جـ٣/١٢ ، ١٣ ط ١٣٣٢ هـ) •

ويعقب الشــيخ بقوله ان الجاحظ لا يريد بمقاله « الا أن يصف العرب بسرعة الذكاء وحدة الذهن واصابة الرأى فيما يحتاج غيرهم فيه الى أناة وطول تفكير واستعانة وبحث » • ثم يتعمق الشيخ أكثر حين يعلل كل تخالف بين مقال صــاعد الأندلسى ومقــال الشهرســتانى بعدم اتفاقهما على المراد بالفلسفة التى يتكلمان عنها ، ثم يسترسل الشيخ فى ايضاح ما يريد خطوة خطوة بوثوق وهدوء (٢٨) •

ولا يستطيع باحث أن يتجاهل الاجمــال القيم والســخاء النفسى والعقلى الذى يختتم به الشيخ مبحثه فى مقالات الغربيين والاسلاميين فى الفلسفة الاسلامية ، ضاربا بذلك خير مثل لرواد البحث فى الفلسفة الاسلامية بخاصة والفكر الانسانى بعامة ، ومهيئا بذلك سبيلا الى التوفيق والربط بين الآراء والأفكار التى قد تبدو متباعدة ، ومذكرا لنا مـرة أخرى بالفارابى الذى أولع بالجمع بين مختلف الأفكار ، ولعه بالجلوس عند ملتقى الأنهار وتحت مشتبك الأشجار •

يقول الشيخ : « وليس بين العلماء نزاع فى أن الفلسفة الاســلامية متأثرة بالفلسفة اليونانية ومذاهب الهند وآراء الفرس ، ولعل هــذا هو

الذى يجعل الباحثين فى تاريخ التفكير الاسلامى والفلسفة الاسلامية من الغربيين ، يقصدون فى دراستهم الى استخلاص العناصر الأجنبية التى قامت الفلسفة الاسلامية على أساسها أو تأثرت بها فى أدوارها المختلفة ، يجعلون ذلك همهم ، ويتحرون على الخصوص اظهار أثر الفكر اليونانى فى التفكير الاسلامى واضحا قويا » ٠

« وليس من العدل انكار ما لهذه الأبحاث من نفع علمى ، برغم ما قد يلابسها من التسرع فى الحكم على القيمة الذاتية لأصل التفكير الاسلامى، وعلى مبلغ انفعال هذا التفكير بالعوامل الخارجية ، من غير اعتبـار لما يمكن أن يكون له من عمل فيها ٠ والعوامل الأجنبية المؤثرة فى الفكر الاسلامى وتطوره ، مهما يكن من شأنها فهى أحداث طارئة عليه ، صادفته شيئا قائما بنفسه ، فاتصلت به ، لم تخلقه من عدم ٠ وكان بينهما تمازج أو تدافع ، لكنها على كل حال لم تمح جوهره محوا » (٢٩) ٠

وقد آن لنا أن نشير الى درس جليل أفاد منه فعلا كثير من الدارسين والباحثين فى الفكر الاسلامى ٠ وهذا الدرس يتصل بمبدأ الانتقال من البسيط الى المركب ومن الوحدة الى الكثرة ٠ فقد أشـار فى مستهل منهجه الذى رسمه تمهيدا لتاريخ الفلسفة الى ضرورة تتبع نشأة النظر العقلى والتفكير الفلسفى لدى المسلمين فى ضوء حالة العرب الفكرية عند ظهور الاســلام ٠ وقد انتهى فعلا الى أن الاجتهاد بالرأى هو بداية النظـر العقلى ٠

ان الشيخ بهذا قد وجه الدارسين الى العناية بهذا الموضوع الحيوى وهو نشأة التفكير الفلسفى عند المسلمين ، حتى تعددت دراسات النشأة للميادين الفكرية فى الاسلام كما أشرنا اليها آنفا (٣٠) ٠

ان الطرافة والجد والجدة التى قدمها الشيخ فى فكره ســواء فى تعقبه للآراء ، أو تتبعه لأطوار الفكر والمفكرين لا يمكن أن تحجب هـذه الحقيقة وهى تلاحم وتكامل النظرة الاسلامية فى فكر الشيخ ، مما يشجعه على تنـاول المشـكلات الفلسفية لدى المسلمين فى ترابط بين ميادينها المشار اليها ٠ فذلك خير وأدق من تناولها فى كل ميدان على حدة ، منفصلة عما يناظرها فى الميادين الأخرى ٠

حقا لقد أثمرت خطة الشيخ من حيث العناية بتأريخ النشأة للفكر الاسلامى فى شـموله واسـتيعابه وآتت أكلها فى صورة مؤلفات حديثة متتابعة ، ولكن من الحق كذلك ان نقول ان أمنية الشيخ فى التوسع فى

دراسة تاريخ الفلسفة الاسلامية بغية الانتهاء الى ضم أصول الفقه الى شعب أو ميادين الفلسفة - نقول - ان هذه الأمنية ما تزال تنتظر التحقق الواعى الذى لا يطمس المعالم ولا يلغى الحدود ولا يضيع القسمات ٠

ان علم الأصول ذاته قد أفل نجمه فى سماء فكرنا الاسلامى المعاصر كشعبة من شعب المجالات الفلسفية ، ولم يعد موضع عناية الا لدى القليلين من رجال القانون والشريعة ، ولم تقم محاولة جادة بأى قسم من أقسام الفلسفة فى العالم العربى والاسلامى لرعاية هذا العلم وتوثيق عراه بالبحث الفلسفى ، وقد يكون ذلك راجعا الى أن تطبيق ذلك يقتضى الماما واسعا بالمدارس الفقهية والأصولية ، وخلفية عريضة من التراث الاسلامى الى جانب الدراية بالقرآن والحديث وأوجه دلالاتهما وتفسيرها مما لا قبل لكثير من الباحثين به ٠

وقد نضيف الى ذلك أيضا أن بعض صيحات الشيخ قد ذهبت بددا فيما يتعلق بدراسة المسألة أو المشكلة دراسة مقارنة فى ميادين الفكر الاسلامى المعروفة ، اذ ما زال كثير من الدارسين المعاصرين يحصرون دراساتهم فى ميدان أو فيلسوف واحد أو مدرسة واحدة من مدارس هذا الفكر رغم تسليمهم بترابط هذه الميادين وعلاقات تلك المدارس ٠

ان مشكلة « الحرية » أو القدر مثلا قلما تبحث باستيعاب لوجهات النظر الأصولية والكلامية والصوفية والفلسفية الخالصة ، وانما يقتصر عادة على علاجها لدى علماء الكلام أو الفلسفة ، ونرى أن أجمل تحية نقدمها لفكر الشيخ مصطفى عبد الرازق هو أن نحرص على تصفية مشكلاتنا الفكرية من جميع أوجه علاجها فى هذه الميادين مجتمعة ٠ حتى يكتمل لنا اطار موحد شامل يصور فلسفة متكاملة تحمل طابع الموسوعية والشمول الذى يمثله الاسلام أجل تمثيل ٠

ان الشيخ - حتى فى اشاراته العرضية - يحرص أشد الحرص على على الاستيعاب والشمول من حيث المصادر ومن حيث أصحاب هذه المصادر ، الذين يجمعون بين الأدب والتاريخ والفلسفة والعلوم الدينية وان شئت قلت هؤلاء الموسوعيين وذلك فيما نعتقد ليرسخ معنى وحدة وتماسك الكيان الفكرى لدى المسلمين اذا ما حسنت أداة البحث وأجيد اعداد الباحث ٠

واذا كان برتراند رسل B. Cassiere قد قارن بين من وهب عقلا وتأملا دون أن يكون له وجدان شاعر أو انطلاقة واشراقة صوفية وبين من وهب الوجدان وحـرم التأمل الدقيق · وفضل الأول على الآخر فانه لم يتردد في تفضيل من جمع الموهبتين معا ·

وفي ضـوء ذلك نقول اذا كان هذا المقيـاس منصفا فان الشيخ مصطفى ولا شك قد نال حظا وفيرا من الموهبتين فلا تعدم في فكره نبض الحياة كما لا تعـدم في احساسه دقة الفكر ، غير أن الهدوء والاتزان والتساوق في عرضه ودراسته ربما حجب عن الأعين ازدواج الموهبة ، وتآزر العطاء في هذه الشخصية الممتازة ·

الدكتور محمد كمال جعفر

الهوامش والتعليقات

(١) أنظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلاميه\الفصل الاول (ط١٣٦٢هـ١٩٤٤ القاهرة)

(٢) لقد أشار باحثون جادون من العرب ، ومنهم أستاذنا الدكتور توفيق الطويل الى مسئولية ابن خلدون عن الحملة الظالمة التي شنـها المستشرقون على الفكر العربي مسايرة لرأيه الذي قدمه في مقدمته وأكده في مواضع أخرى ، هذا الرأى الذى ينسب كل جهد علمي شرعي أو عقلي الى العجم دون العرب ، الذين وصفهم في بعض أقواله بأنهم اذا تغلبوا على أوطان سارع اليها الفساد أنظر\د· توفيق الطويل/العرب والعلم ٢٠/٠٠٠٠ وما بعدها (دار النهضة العربية ١٩٦٨)

(٣) معتمدا في ذلك على ترجمة الفيلسوف الفرنسي كوزان لكتاب تنمان :
Manuel de l'histoire de la philosophic par tennemanne
الذى نشر لأول مرة بالالمانية ١٨١٢م ، أما ترجمة كوزان فقد تمت عام ١٨٢٩م · وقد اعتبر الشـيخ مصطفى عبد الرازق تنمان الخليفة الحر لبروكر J. J. Brucker في تمثيل رأى مؤرخي الفلسفة في الفلسفة الاسلامية ·

(٤) أنظر تمهيد٠٠/٨٠٧ · ولا يغفل الشـيخ التنبيه على روح العصر الدينية عند مؤلفي القرن التاسع عشر وهو يضعهـا بهذه العبـارة المهذبة · ويعرض لآراء كوزان V. Cousin ، ويلاحظ أن الشيخ عندما أراد أن يتناول جانب الجنس أو العنصر استعمل كلمة « التعصب » التي لم يسـتعملها في الجانب الديني مما يشهد بلباقة الشيخ وسمو ذوقه · وقد كشف الشيخ في تعليقاته على نشأة علم مقارنة اللغات عن سر الاعجاب الأوربي بدراسـة الفيـدا ، ثم بتأييد العلاقة بين العقلية الأنـدو أوربية وأوربا · وقد أضيف هنا الى أن هذا يفسر اعجاب باحثي الغرب بالبوذية وزعمهم أنها الديانة العقلية التي لا تحتاج الى وحي ولا الى الوهية أو نبوة · أنظر في E. Conze في كتابه : Budhism, its essence and development نشرة B. Cassiere Oxford 1959)

(٥) S. Munk ; E. Renan

(٦،٧) أنظر تمهيد ٠٠\١٢ ٠

(٨) نفس المرجع/١٣ وما بعدها ٠

(٩) لقد كان لأمثال هذه الاشارات الدالة الفصل فيما وصل اليه الحال الآن بأنه لم يعد هناك مبرر لتلمس مصدر أجنبي لكل فكره أو مسالة أو قضية من قضايا الفكر الاسلامي اذ أن الفروض التى وضعت لمصادر هذا الفكر فى القرن الماضى لبثت أن الغى بعضها البعض الآخر وانتهت الى التناقض التام والى هذه النتيجه التى لا يقرها عاقل وهى أن حصاد هذ الفكر اذا أعيد الى مصادره لم يعد للعرب ولا للمسلمين مايصح أن ينسب اليهم وكان لم يقم دين ازدهرت حوله حضاره وتقدم فى مناخه فكر ٠ انظر M. Sabal, The development of metaphysics in persia (London 1908) Reconsiruction of Islamic Though; M.K. Gaafar, The Sufi Doctrine of sahl al-Tustari)ph. D. dissertation, Conbridge 1965).

(١٠) أنظر تمهيد ٠٠٠\٢٣ وما بعدها ٠

(١١) قارن د٠ توفيق الطويل/العرب والعلم ٠ مبحث علم العرب وفلسفتهم فى حملة خصومهم ص ٢٠ وما بعدها تماما ، قارن أيضا د٠ كمال جعفر/من قضايا الفكر الاسلامى\مبحث الفكر الاسلامى والمستشرقون وأصول نزعتهم ص ١١ ــ ٢٣ ٠

(١٢) أنظر فرانتز روزنتال/مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى\١٦ ومابعدها٠ وبالمثل وقف ميلر A. Miller فى Der Islam in Morgen-Und Abendland .(Berlin, 1825—7) 1,71

(١٣) أنظر Mckdonald, The Religious attitude and Life in Islam (Chicago 1909), p. 121—3

(١٤) أنظر تمهيد/١٦ وما بعدها تباعا ٠

(١٥) كما يتجلى فى بعض الدراسات الاستشراقية الحديثة رغم ظهور كثير من عيون التراث الاسلامى الذى كان يجب أن يصحح وجهة نظر هؤلاء ، ورغم تتابع الدراسات الخاصة بتلمس المصادر الأصلية للفلسفة اليونانية ذاتها ، ولعل من أمثلتها فى العصر الحاضر ما قام به كورنفورد فى مؤلفه من الدين الى الفلسفة F. Cornford, From Religion to Philisophy وقد فتح مثل هذا النوع من الدراسة الباب الى تتبع من الديانات المصرية والهندية والفارسية ٠ ولعل أحدث ما يجب التنويه به فى هذا العدد ما يقوم به بعض الباحثين من الأساتذة السويد من دراسة للروافد المصرية فى التراث الاغريقى مستخدمين فى ذلك معرفتهم الواسعة بالمصريات Egypiclogy والمامهم الشامل بمقارنة الأديان وقد كان لى حظ اللقاء والنقاش وتبادل المعلومات مع وفد من هؤلاء أثناء زيارتهم القريبة لجامعة القاهرة ٠ ولمست بنفسى مدى اهتمامهم بهذا اللون من الدراسة فى روح من الانصاف والاعتزال ٠

(١٦) ولعل ما حققه أستاذنا الجليل الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور بنفس الروح السمح الهادىء المتزن عن دراسة بالفرنسية أولا فى La place d'al-Farabi dons l'éscole Muslim وبالعربية فى كتابه « فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه » يعتبر من أخلص وأدق المناهج الدراسية فى هذا السبيل وبخاصة فى الجزء الثانى من الكتاب الذى يمثل ثراء وعمقا وايحاء يشحذ همم طلاب الفلسفة الاسلامية فى ميدانها الرحب الكبير ٠

(١٧) وقد سلم كثير من الدارسين فى العرب والشرق باعتبار هذا الفرع من شعب البحث الفلسفى الاسلامى وكذلك الأمر بالنسبة للتصوف الذى درسه كثير من المستشرقين مثل ماسينون ونيكلسون وآربرى باعتباره كذلك ٠

(١٨) أنظر له « أصول المعتمد »

(١٩) أنظر كتابنا التصوف طريقا وتجربة ومذهبا » مبحث مبررات وكيفية دراسة التصوف الفصل الثانى/١٤ وما يليها تباعا (دار الكتب الجامعية ١٩٧٠) ٠

(٢٠) أنظر د٠ ابراهيم مدكور/فى الفلسفة الاسلامية ٠ منهج وتطبيقه (دار المعارف) ويذكر رسل فى مقدمة كتابه Mysticism and Logic تقوى من جمع بين الطابع الصوفى والطابع التأملى العقلى ٠

(١٢) أنظر تمهيد : «القسم الثانى الفصل الأول» بداية التفكير الفلسفى الاسلامى/١٠٦

(٢٢) بعد أن عرض الشـــيخ فى الفصل الثانى من القســـم الثانى مختلف الآراء الغربيه والشرقية فى الفقه الاســـلامى ، خصص الفصل الثالث لغايته فى التعرف على ظهور الرأى باعتباره أمارة الاجتهاد والنظر الفعلى/١٣٦ ـ ١٦٦ من المرجع السابق ٠

(٢٣) تمهيد ٠٠٠\٢٧

(٢٤) تمهيد ٠٠٠\٨١

(٢٦) أنظر تمهيد ٠٠٠/٨٢ وما بعدها ٠

(٢٧) تمهيد ٠٠٠\٣٤ وما بعدها

(٢٨) نفس المرجع

(٢٩) تمهيد ٠٠٠/٩٨ ٠

(٣٠) ومن هؤلاء المرحوم الأستاذ الدكتور على سامى النشار الذى أصدر دراساته عن نشأة التفكير الفلسفى فى الاسلام فى أجزاء متتابعة راعى فيها ميادين الفكر الاسلامى كما عرضناها ٠

بعض المصادر والمراجع

١ ـ ا • د • ابراهيم مدكور — فى الفلسفة الاســلامية منهج وتطبيقه (جزءان دار المعارف)

٢ ـ ا•د• توفيق الطويل — العرب والعــلم (فى عصر الاســلام الذهبى) دار النهضة العربية

٣ ـ أبو حيان التوحيدى — المقايسات (السندوبى)

٤ ـ ابن خلدون — المقدمة ط مصر بدون تاريخ

٥ ـ ابن رشد — مناهج الأدلة فى عقــائد أهــل الملة (الأنجلو المصرية ١٩٥٥)

٦ ـ ف روزنتال — مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى (بيروت)

٧ ـ الشيخ مصطفى عبد الرازق — تمهيد لتاريخ الفلسفة الاســـلامية (القاهرة ١٩٤٤)

٨ ـ اقبال (الشــاعر الفيلسوف محمد)

-- The Development of metphysics in persia (London 1908)

٩ ـ — Reconstruction of Islamic though.

وقد ترجم هــذا الكتــاب الى العربية بعنوان «تجديد التفكير الدينى فى الاســلام • ترجمة عباس محمود

١٠ ـ ا • كونز — E. Conze, Buddhism, its essence and development (Oxford 1959).

١١ ـ تنمان — Tennemanne Manuel de l'histoire de la phdoscphic (Frinah trans.).

١٢ ـ مصمد كمال جعفر — التصوف طريقا وتجربة ومذهبــا دار الكتب الجامعية ١٩٧٠

١٣ ـ محمد كمال جعفر — Gcd is the End (unc. in Der Gott des chrisk entums Und des Islams) Mëding.

١٤ ـ The sifi doctrive of Sahl al tustari (Ph. D. diss)

١٥ ـ Siduey Spencer Mysticision in World Religion (Penqun Book)

الشيخ مصطفى عبد الرازق
المفكر المسلم

بقلم

الأستاذة الدكتورة فوقية حسين محمود

من أبرز ما يميز آراء الشيخ مصطفى عبد الرازق ، انطلاقه من أسس تفكير اسلامي ٠

ليس فقط ، لأنه ، وهو في أدق مواقف النشاط الذهني الانساني ، عند بيان مضمون الفلسفة ، يعرض لذكر النصوص المنزلة ، موضحا ما يمكن أن يكون لهذه النصوص من أثر في ترشيد هذا النشاط الذهني الفطري ، بل لأنه طبق هذه الأسس فعلا ، وهو بصدد تحديد موقفه من المسائل ، على نحو ما سنبينه تفصيلا في موضعه بعد ٠

وتظهر هذه الانطلاقة خاصة ، عند حديثه عما سماه : بـ « منهجنا في درس تاريخ الفلسفة الاسلامية ٠ » (١) حيث تعرض لما يسمى في الفكر الاسلامي بـ « الرأي » (٢)

ان الشيخ ، رحمه الله ، في كتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية»(٣) (٣) يقدم رصدا دقيقا لكثير من الآراء التي قيلت في « الفلسفة الاسلامية » قديما وحديثا ، عند دارسي هذه الفلسفة من أوروبيين وعرب ٠

وقد قسم هذه الآراء كما نعلم الى قسمين (٤) :

ثم خصص بابا لبيان منهجه في درس الفلسفة الاسلامية ، (٥) ثم أضاف ما سماه بـ « ضميمة في علم الكلام » (٦) ٠

ان مجرد تقسيم مصنفه هذا ، وهو أبرز كتاباته ، الى هذه الأبواب ، يعني ما يلي :

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ــ للشيخ مصطفى عبد الرازق ، القاهرة ١٣٦٢ هـ سنة ١٩٤٤ من صفحة ٩٩ الى ٢٥٣ ٠

(٢) نفس المرجع السابق صفحة ١٣٦٠ ٠

(٣) أنظر هامش رقم ١ من هذه الصفحة ٠

(٤) القسمان هما :

(أ) قسم يضم آراء الغربيين من مستشرقين ومشتغلين بتاريخ الفلسفة ٠

(ب) وقسم آخر يمثل آراء فريق المؤلفين المسلمين ٠

(نفس المرجع السابق من صفحة ٤ الى ٩٨) ٠

(٥) أنظر هامش رقم ١ من هذه الصفحة ٠

(٦) نفس المرجع السابق من صفحة ٢٥٣ الى صفحة ٢٩٥ ٠

أولا : أنه أراد ان يضمنه صورة دقيقة للبيئة الفكرية المضادة للاسلام الممثلة فى آراء فريق الغربيين بما تحتويه من اتجاهات تقل حدتها أو تزيد ، طبقا لرؤية هؤلاء المستشرقين لمقتضيات الحرب الفكرية ضد الاسلام

« الفلسفة الاسلامية » لتوضيح الرؤية حول هذا المفهوم ، وان كان كما أراد أن يقدم سجلا وافيا ، لكثير من مقالات المسلمين فى ما انتهى اليه من أن الفلسفة الاسلامية أو ما يطلق عليه « فلسفة اسلامية » عند أهلها من المفكرين المسلمين ، قد تأثرت تأثرا عميقا بالفلسفة اليونانية وغيرها ، لا يتفق مع وجهة نظرى فى هذا الموضوع (١)

ثانيا : حرص على تقديم دراسة ثرية للنظر العقلى فى مجال الفكر الاسلامى مدعمة بالنصوص المنزلة من قرآن وسنة ، وآثار كبار الأئمة فى دعم النظر العقلى ، وهذا أمر له قيمته فى ابراز أسس أصالة هذالفكر •

ثالثا : ان تخصيص قسم لدراسة العقائد من جهة ما بذله المسلمون من جهود فى الدفاع عنها ، يكشف عن وعى المفكرين المسلمين ، فى ذلك الحين ، كما يعرف فى مجال مبحث المعرفة باختلاف موضوعات المعرفة : فهناك الموجود الأعلى وهو الله سبحانه وتعالى، وهناك الموجود المخلوق • والأول موضوع للكلاميات التى تضم أيضا الأمور الغيبية الأخرى ، والثانى موضوع للدراسات الفقهيه •

ولكل موضوع مقتضياته من ناحية متطلبات كسب معرفته •

وهذا يعنى أن الشيخ ، رحمه الله ، قد صدر فيما قدم من دراسات عن دراية واسعة • بمختلف محاولات النيل من الاسلام فى عصره بالاضافة

---

(١) أنظر كتاب : « مقالات فى أصالة المفكر المسلم » القاهرة ـ دار الفكر العربى ١٩٧٦ بقلم كاتبة هذه السطور • حيث بينت أن فلاسفة المسلمين وهم الذين اشتغلوا بما سموه « صناعة الفلسفة » مثل الكندى (المتوفى سنة ٢٥٢هـ\٨٦٣م) والفارابى (المتوفى سنة ٢٣٩ هـ\٩٥٠ م) ومن جاء من بعدهم وأطلق عليه تعبير « فيلسوف مسلم : لم يصدروا فى كتاباتهم عن أسس تفكير يونانى ، وانما انطلقوا من أسس تفكير اسلامى ألبسوها لباسا يونانيا ممثلا فى بعض الألفاظ « كجوهر وعرض » وقسمة وقسمة الموجود ذهنيا الىهما لم يفصلوها الا أن خلصوا هذه الألفاظ والتقسيمات من مضمونها اليونانى وأعطوها مضمونا اسلاميا يؤكد الوجود الخارجى منفصلا عن الذات العارفة

الى وعي كامل لأبعاد الفكر الاسلامي المترتب على دراسة الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، والعلوم التى قامت حولهما .

كما يعنى أن تعرفه على آراء الغربيين ، لم يكن له أثره على حكمه على ما يمكن أن يسمى بـ « فلسفة اسلامية » وأن الصورة الجلية التى ارتسمت فى نفسه عن الفكر الاسلامى قد بقيت نقية خالصة رغم محاولات التشويه .

وهو فى هذا يخالف غيره من الباحثين العرب الذين تابعوا آراء المستشرقين دون وعى لأصالة لفكر الاسلامى .

ولا غرابة فى ذلك ، والشيخ ، رحمه الله ، ابن الأزهر الشريف بل هو علم من أعلامه العظام .

اذن فموقفه موقف مفكر مسلم يضع قدميه على أرض صلبة حيال المؤامرات التى كانت تحاك للتقليل من شأن النظر العقلى فى الاسلام .

ولعله يكون من المفيد ، لكى تتبين لنا قوة هذه الوقفة الصلبة أن نذكر ببعض ما ورد من أقوال عن هؤلاء الغربيين مثل ثنمان ، وكوزان ، ورثان وغيرهم . وما كان من الشيخ حيال هذه الأقوال ، وعزفه عنها الى النظر العقلى الإسلامى كمضمون للفلسفة الاسلامية .

أما عن هذه الأقوال ، فيقول ثنمان :

« .. ان هناك عقبات ثبطت تقدمهم (يقصد العرب) فى الفلسفة وهذه العقبات هى :

١ ــ كتابهم المقدس الذى يعوق النظر العقلى الحر .

٢ ــ حزب أهل السنة ، وهو حزب قوى مستمسك بالنصوص .

٣ ــ أنهم لم يلبثوا أن جعلوا لأرسطو سلطانا مستبدا على عقولهم ذلك الى ما يقوم دون حسن تفهمهم لمذهبه من الصعوبات .

٤ ــ ما فى طبيعتهم القومية من ميل الى التأثر بالأوهام (١)

هذه نقاط حيكت من أجل اخفاء مصادر الفاعلية والتقدم فى الاسلام،

---

(١) التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية : للشيخ مصطفى عبد الرازق طبعة القاهرة ١٣٦٣ هـ/١٩٤٤ م صفحة رقم ٥

اذ الأولى تهاجم المصدر الأول للدين ، وهو « القرآن الكريم » وتصفه بأنه يعوق النظر العقلي ، والثانية تعرض للسنة ، وتصف أهلها بالتمسك بما اعتبره صاحب هذا القول ، معوقا ، وهو النص المنزل ، وفي الثالثة وضع المسلمين أتباعا لأرسطو ، وجعلهم غير واعين لآرائه ، لتفوق مستوى هذه الآراء على مستوى عقولهم ، وأخيرا في الرابعة ، أبعدهم عن مجرد التمتع بالقدرة على الوقفة العقلية الرصينة ، اذ اعتبرهم ميالين « الى التأثر بالأوهام » بحكم طبيعتهم •

أما كوزان (١) ، فانه يتحيز للمسيحية ، ويصفها بما لا ينطبق عليها حين يرى أنها أخرجت للناس الحريات والأنظمة النيابية ، والفنون والآداب •• وأكثر من هذا كله ، الفلسفة الحديثة ، نافيا عن الأديان الأخرى ، وخاصة لاسلام ، كل مقدرة على العطاء •

ولا يخفى على القارىء أن أسس الفلسفة الحديثة ، التى تتمثل خاصة فى واقعية الاتجاه الى البحث التجريبي ، لايمكن أن تكون عن التراث الأرسطي المتوارث الذى ساند المسيحية ، فى دفاعها عن نفسها ، لما فيه من اتجاه الى المتعقل دون الحسي والتجريبي •

ان أسس الفلسفة الحديثة وخاصة النهضة العلمية ترجع الى أسس الفكر الاسلامي التى تنطلق من احترام ما هو حسي ، وقلبي ، الى جانب المنزل والمتعقل ، ولقد اكتشف أصالة الفكر الاسلامي عقم أقوال أرسطو (٢) ، وصرحت بأن آراءه لا تعدو أن تكون مبادىء مبتورة للحقائق فى الوجود •

ثم تقسيم الناس الى ساميين وآريين ، وادعاء رنان أن العرب ساميين ، وأن طبيعتهم السامية بالتالي ، لا تسمح بالتفلسف لعدم قدرتهم الذهنية على التركيب العقلي (٣) وقد أحاط علماء مقارنة اللغات

---

(١) المرجع السابق • صفحة رقم ٨

(٢) من أبرز مواقف مفكرى المسلمين حيال الفكر الأرسطي ونقده ما يقدمه الشيخ ابن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هـ\١٣٢٧ م) فى كتابه « الرد على المنطقيين » حيث وضح مافى المنطق الأرسطي من عقم وكيف يجب مواجهة الموجود الخارجي بحيث تؤدى هذه المواجهة الى كشف جديد وما قاله ابن تيمية قد ورد على لسان الفيلسوف الانجليزى « فرنسيس بيكون » من بعد ، فى كتابه «الأورجانون الجديد» حيث نقد «الأورجانون القديم» لأرسطو (أنظر هامش ١ من صفحة ٢ من هذا المقال •

(٣) نفس المرجع السابق صفحة ١٠

هذه الادعاءات برخرفة علمية ، كما يقول الشيخ ، رحمه الله ، حتى يظن أنها تمخضت عن مجهود صادق في البحث عن الحقيقة ، بينما هي في الواقع مجرد محاولة لتشوية الحقائق في الاسلام هذه الحقائق التى لها فاعلية في بناء الفرد ٠

ثم لعبة الخلاف حول تسمية الفكر الاسلامى أو الفلسفة الاسلامية بـ « عربية لم « اسلامية « (١)

ثم ادعاء أن الفلسفة الاسلامية توفيق وتلفيق (٢) بين مختلف مؤثرات دخيلة على الفكر الاسلامى ٠

ان آراء الغربيين فى « الفلسفة الاسلامية » تقدم صورة مشوهة ، بل سلبية للحقائق الاسلامية ٠

ومن الواضح أنها تهدف الى النيل من القدرات المتفجرة التى تتولد فى الفرد الذى يتدبر آى الذكر الحكيم ، أى التى تتكون عن التعرف على المعانى الثرية ، ذات الأثر الفعال فى الفرد ، التى يتضمنها النص المنزل ٠

نقول « الثرية » و « ذات الأثر الفعال » ، لأنها معان تحتضن الفرد ، لترتفع به الى أعلى مراتب التكون ، اذا ما عرف كيف يجتهد ليواصل الرقى بذاته الى احكام النظر والعمل ٠

فهذا التشوية للحقائق الاسلامية ، فى الآراء المناوئة ، يمس أكثر نواحى فى الاسلام ذات فاعلية فى بناء الفرد ٠

وأغلب الظن أن أصحاب هذه الآراء قد عرفوا الحقيقة وهلعت نفوسهم لما يمكن أن تؤدى اليه من معالم التقدم ، فغيروا منها عن عمد ، فكلامهم لا يمثل علما حقيقيا ، لأن العلم الحقيقى هو الذى يرسى الحقيقة ويعترف بها ، دون محاولة لطمسها ، عن عمد ٠

ومما يؤسف له أن أقوالهم هذه ، كانت على ما فيها من مغالطة ذات أثر على مفكرى المسلمين المحدثين بصفة عامة ، فقد فرضت نفسها ، بسبب الحال التي كانوا عليها ، فى ذلك الحين ، وهى حال الانحطاط الذى ساهم فى توطيد أركانه ، فكانت أدعاءاتهم هذه نوعا ، من أثر الاستعمار الفكرى المدعم بالاستعمار السياسى للبلدان العربية ،

---

(١) نفس المرجع السابق صفحة ١٤

(٢) نفس المرجع السابق صفحة ١٥ ، ١٦

التي أكسبت هذه الأقوال في أعين من قيلت في تراثهم سمة امكانية القبول والتصديق ٠

ومازال حال الخنوع الذهني واقعا ، حتى يومنا هذا ، اذ مازال الغزو الفكرى الأوروبى بالنسبة للأصالة الفكرية في الاسلام مسيطرا على عقول الكثيرين ، رغم زوال الاستعمار السياسي ، ومرور نصف قرن أو يزيد على هذه التصريحات الاستشراقية ، وان كان تسلطها قد اهتزت عمده قليلا ، وأصبح يترك فسحة في الأذهان لقبول ما يخالف ادعاءاته خاصه وان محاولات النيل من الاسلام قد تنوعت ، وتطلبت جهودا أخرى للرد عليها ٠ وكانت دائما عنيفة ونفاذة ، حتى وهي في أسلوب هجوم غير مباشر ٠

لقد واجه الشيخ ، رحمه الله ، هذا الغزو الفكرى العنيف ورفع صوته ، في الوقت الذى كان فيه الناس نياما عن الحقيقة المرة وناقش هذه الأقوال ، ودار نقاشه حول ابراز ما فيها من تناسق أو تناقض ، من قرب من الحقيقة أو بعد عنها ٠

ذلك لأن تعقيبه الأكبر عليها كان في رفضها برمتها ٠ وهنا نقول ان معالم أصالة فكره الاسلامي قد بدت في هذا الرفض الذى جعله يتبين سمات الفكر الاسلامي الحقيقية في أبعد مجالات البحث عن التأثر بالعناصر اليونانية وغيرها ، أى في « الرأى » ٠

لأنه أيضا عندما درس مقالات المسلمين القدامى في « الفلسفة الاسلامية » انتهى الى انها متأثره تأثرا عميقا بالفكر اليوناني خاصة (١)

ولعله يكون من المفيد أن نقف مع الشيخ ، رحمه الله ، تجاه هذه المقالات لفحص ما انتهى اليه من رأى

يبدو من واقع دراسة تصريحات الشيخ ، رحمه الله ، في هذا الجزء من بحثه ، أنه فهم أن المقصود بلفظ « فلسفة » ، النظر العقلي المتعلق بالبحث عامة ولم يتبين في هذا اللفظ أنه يعنى خاصة مجموعة الأنسقة الفكرية التى تمثل مضمون آراء اليونانيين في تفسير المعرفة والوجود والقيم ٠٠٠ الخ ٠

---

(١) يقول في ذلك : «وليس بين العلماء نزاع في أن الفلسفة الاسلامية متأثرة بالفلسفة اليونانية ، ومذاهب الهند وآراء الفرس» ـ أنظر صفحة ٩٨ من نفس المرجع السابق ٠

ونقصد بالأنسقة الفكرية ، مذاهب الفلاسفة وخاصة أرسطو الذى قيل انه سيطر على عقول العرب ٠

ومذاهبهم وخاصة أرسطو كما ذكرت لاتنبع من الواقع والتصديق فى وجوده ، وانما تنطلق من مجموعة أفكار متعلقة وقع عليها الفيلسوف بالتأمل ، دون احترام لمبدأ الاحتكاك بالواقع ،لذلك جاءت تفسيراتهم للوجود والمعرفة وأيضا القيم ، تفسيرات لا تمثل حقيقة واقعة وانما تعرض حقيقة متعقله انبثقت من خلال التأمل الخالص ، خاصة بالنسبة لمبحث الوجود ٠ وما يوجد لدى أرسطو من محاولات للتجربة وفحص العينات ، يتلاشى أثره أمام مذهبه فى تفسير وجود مادة هذه التجارب ٠ اذ يرى الوجود الحقيقى فى مبدأين متعلقين هما : الهيولى والصورة ٠

والهيولى ، بحكم تعريفه لها مادة لا متعينة ، وما هو غير متعين لابد وأن يكون متعقلا فقط ٠٠٠

والصورة شكل أى أمر متعقل ٠

لذلك آلت تجارب أرسطو فى نظرنا الى اثبات وجود معقول فقط لا يتحقق فى الواقع الخارجى منفصلا عن الذات العارفة ٠

وقد ظهر من بين الأوروبيين أخيرا ، باحث يؤكد وجهة النظر هذه وهو بيير أوبنك Pierre aubénque فى كتابه « مشكلة الوجود عند أرسطو » : «Le Problême de l'être chez Aristote»٠

فاذا كان الأمر كذلك ، وتبين أن المقصود بلفظ « فلسفة » فى مقالات المسلمين عن « الفلسفة » هو تلك الأنسقة الفكرية أى فهم اليونانيين وخاصة أرسطو لمسائلها ، وليس النظر العقلى بالمفهوم العلمى الحديث الذى يؤكد الوجود الخارجى فى ذاته فان تصريحاتهم بأن الجبلة العربية غير مهيأة « للفلسفة » (٢) أمر مقبول ، لأن الفلسفة بهذا المعنى تمثل

---

(١) درس بيير اوبنك مشكلة الوجود عند ارسطو دراسة مفصلة وانتهى الى النتيجة التى اثبتناها وهى ان الوجود لديه يرجع الى مبدأين متعقلين ، وبالتالى فكل موجود متعقل
Le Problême de l'être chez Aristote — Par Pierre Clubénque. paris, 1942.

(٢) كتاب «تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية» للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٣٥

تفكيرا لا يتفق وطبيعـــة هـذه الجبـلة ، وهي الاهتمـــام بالمتكامل • أو الواقعي ، ومفهوم الوجود في فلســـفة أرسطو مبتور لأنه متعقل فقط ومصـــادر المعرفة وموضـــوعاتها أيضا مبتورة فى أقواله لأنه لا يعترف الا بالعقل فقط كمصدر للمعرفة الحقيقية والموضـوعات المتعقلة فقط هى التى تمثل الوجود الحقيقى لديه •

هذا بالنسبة لما كان يمكن أن يفهم من مقالات المسلمين فى « الفلسفة الاسلامية » •

أما عن توكيد الشـيخ ،رحمـه الله ، فى نهـاية جولتــه مع أقوال المسلمين فى الفلســفة ، أن هذه الفلســفة تتأثر تأثرا عميقا بالفلســفة اليونانية وغيرها ، فاني أرى خلاف ذلك ، وهو ما سبق أن أشرت اليه (١) اذ تبينت بعد فحص نصوص الكندى ، والفارابى ، وابن باجة وغيرهم أن هؤلاء المفكرين المسلمين الذين ســموا فلاســفة ، انما أطلق عليهم اللفظ لأنهم اشتغلوا « بصناعة الفلسفة » ، والاشتغال بصناعة ما يقتضى مزاولة بعض خصوصياتها ، والخصوصيات قد تمثلت عندهم فى الاحتفاظ ببعض الألفاظ والتقسيمات ، بعـد أن خلصوها من مضمونهـا الذى كان لها فى تراثها ، وأعطوها مضمونا جديدا يتفق وأسس الفكر الاسلامى بالنسبة لحقيقة المعرفة والوجود والقيم ومختلف العلوم التى كانت ضمن الفلسفة فى ذلك الحين خاصة بالنسبة للنظرة الواقعية •

فكأن الفلاســفة المسلمين قد قدموا فكرا اســلاميا ، مغلفا بلباس يونانى ، ليكون ما يقدمونه من « صناعة الفلسفة » (٢) •

غير أن توكيد الشيخ ،رحمه الله ، للنتيجة التى انتهى اليها بالنسبة « للفلسفة الاسلامية » ، لا يؤثر على أصالتــه الفكرية بالنسبة لتقديره لأسس الفكر الاســلامى ، ذلك لأنه قد نبه الأذهان الى وجــود نظر عقلى أصيل ، ولكن فى مجال آخر هو : الرأى (٣) فى مجال الدراسات الفقهية •

ويلاحظ ان أقوال الشيخ ، رحمه الله ، فى « الرأى » تتضمن نقاطا يمكن ان تعتبر ردودا على ادعاءات هؤلاء المستشرقين فقد حرص ، بصفة

---

(١) انظر هامش رقم ١ من صفحة ٢ من هذا البحث

(٢) يتضمن كتاب «مقالات فى أصالة المفكر المسلم» أربع مقالات منها ثلاثة تنصب على بيان هذه الحقيقة وهى : «المفكر المسلم والواقع» ، الكندى فيلسوف العرب الأول» ، «الفارابى بين الخلق والابداع» ــ القاهرة ١٩٧٦ وأيضا مقالة «ابن باجه فى شديد المتوحد»

(٣) كتاب «التمهيد » لتاريخ الفلسفة الاسلامية» للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ١٠١

عامة على ان يكون تعريفه للرأى بعد التعريف بحقيقة الطبيعة العربية وذلك من خلال دراسة للجهود الفكرية للعرب قبل الاسلام • فأتاح لنفسه فرصة دحض بعض مقالات المناوئيين عن الطبيعة السامية ، على نحو سنبين ذلك بعد ، كما تحدث بعد ذلك عن النص المنزل وما تحققه هذه الطبيعة من تقدم وهى فى رحابه •

أما تعريفه للفطرة العربية، فقدكان من خلال بيان أنه كان هناك فكر ونظر عند العرب قبل الاسلام ، واعتبار أن هذا الفكر هو الطاقة التى تؤكد الوجود العربىفى مجال البحث ، وأن هذه الطاقة قد احتوت الجراثيم الأولى للنظر العقلى الاسلامى •

وقد اعتمد ، رحمه الله ، فى اثبات ذلك على ما ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، من نصوص تصور حال العرب قبل الاسلام ، فهما أصدق مرجع يكشف عن اهتمامات العرب فى تلك الفترة الزمنية السابقة على نزول الوحى المحمدى ، كما اعتمد على أقوال كبار مؤرخى أحوال العرب مثل الألوسى (١) (المتوفى ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٠ م) وغيره •

ولهذا يتبين أبعاد النشاط الذاتى للطبيعة العربية قبل لقائها مع الحضارات المجاورة وتفاعلها معها •

والذى يهمنا هو تتبع ما وقع عليه من أبعاد لهذه الجبلة العربية فى تلك الفترة •

ويسجل الشيخ ، رحمه الله ، أن اهتمامات العرب قبل الاسلام كانت خاصة فى مجالى العقائد ، والأمور النفعية فى الحياة •

كما يسجل أنهم عرفوا لفظ « حكمة » ويعرفنا بمضمون هذا اللفظ من حيث اللغة فيقول : انه اتقان النظر والعمل •

ومما هو جدير بالذكر أنه يحرص على ابراز ما فى هذه الفطرة ميول اكتسبته هذه الجبلة من الاحتكاك بالنص المنزل •

وبهذا يبرز ما للجبلة النقية من أثر فى دعم النظر فى الاسلام وما ميول تقترب مما ورد بالنص المنزل •

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٠٥ هـ ٢ •

فمثلا مفهوم لفظ « حكمة » من حيث اللغـة ، وهو ما كان متحـددا قبل ظهور الاسلام ، وما كان يشير اليه من امتناع للزيغ والفساد ، والجور بحيث نجد « الحكمة » هى العلم الكامل النافع (١)

هذا المفهوم يقترب جدا من المقصـود بـ « العلم » و « الفقـه » فى الاسلام ، لأن الفقه فى الاسلام ، كما يبين الشيخ ، رحمه الله ، من بعد يفيد صلاحا للناس فى أبدانهم ، ويحقق معنى العـدل والنظام بينهـم ، ويمنع الخصام • (٢)

وحرص الشيخ ، رحمه الله ، على ابراز تقارب هذه المدلولات اللغوية والاصطلاحية ، يعنى أنه أراد بيان ان الطبيعة العربية ، لها كيانها بخلاف ما ادعاه أصـاحب نظرية « السـامية والآرية » وانهـا انطوت ، أى هذه الطبيعة ، تحت لواء الاسلام ، مسترشدة بالنصوص المنزلة حيث التوجيهات والتعاليم الأكثر دقة ونفعا •

ويواصل الشيخ ، رحمه الله ، وصـفه لهذه « الجبلة » امعـانا فى تقديم الأدلة المحسوسة لدحض آراء الخصم ، فيقدم أسماء متعددة لحكماء وحكيمات هذه الفترة • توفرت فى طبيعتهم أسس الفهم الانسانى الصحيح لتحقيق ذاتهم فى مجالى الفكر والعمل •

ومن يتتبع هذا الوصف يقع على صورة ثرية المعالم ، لهذا النشاط الانسانى لدى هذه الجماعة (٣)

فالطبيعة العربية اذن لا تتنافى مع القدرة على الفكر الحكيم ، أى القدرة على الربط والتركيب •

هذا فيما يتعلق بوقفة الشيخ ، رحمه الله ، مع العرب قبل ظهور الاسلام وقد بذل ، كما تبينا ، جهودا مشـكورة فى دعم أصـالة الجبلة العربية •

أما وقفته مع النظر العقلى فى رحـاب الدين الحنيف ، فانا نجـده يؤكد أول ما يؤكد أن الاسلام : « دين وشريعـة » (٤) يقصد انه عقيدة وعمل •

---

(١) نفس المرجع السابق صفحة ١٠٦
(٢) نفس المرجع السابق صفحة ١٠٧
(٣) نفس المرجع السابق من صفحة ١٠٨ الى ١١٢
(٤) نفس المرجع السابق صفحة ١١٢

ومن خلال بيانه لذلك ، يعرف بمقتضيات النص المنزل ، والفرق بين نصوص تخص العقيدة ، فهذه « هدى أبدا » (٢)

ونصوص تخص المعاملات ، وهذه « هدى ما لم تنسخ » (٢)

وناسخها هو شارعها : الله عز وجل ٠

والاشارة الى « النسخ » في مجال ما ، نفيد ما يمكن أن يكون من امكانية وجود نسبية تساير تغير الظروف والملابسات على مر الزمن خاصة وأن من الآيات ما يقدم احكاما جملية ، تحتاج الى الاجتهاد من بعد لتحديد الموقف من الجزئيات ٠

ويستعين ، رحمه الله ، بأقوال أوائل علماء الاسلام ومن جاء بعدهم عند تقديمه للحقائق الذهنية فى الدين الحنيف ٠ مؤكدا بذلك دعمه للعقلية العربية المسترشدة هذه المرة بثراء تعاليم الدين ٠

ويثبت ما رواه الطبرى (المتوفى ٣١٠ هـ ـ ٩٢١ م) عن قتادة (المتوفى ١١٧ هـ ـ ٧٢٨ م) مثلا اذ يقول : « الدين واحد والشريعة مختلفة » (٣)

ويبين أن الدين قد استوفاه الله كله في كتابه الكريم ، ولم يكل الناس الى عقولهم في شيء منه ، وما سوى ذلك ، فقد استوفى الله سبحانه وتعالى أصولها وترك للنظر الاجتهادى تفصيلها (٤) ٠

ولهذا يقدم ردا على ادعاءات بعض المستشرقين ممن قالوا بأن النص المنزل يجمد الفكر (٥)

ويحرص ، رحمه الله، على بيان ثراء الفكر الاسلامي ، فيعرض لمفهوم « الكلى » و « الجزئى » وأقوال كبار أئمة المسلمين فيه وقد توصلوا الى ما قالوه ، بفضل التعامل الذهنى مع النصوص المنزلة ، وكيف أن ما يتعلق بالكليات والجزئيات في الدين ، يعبر عن أمور

(١) نفس المرجع السابق

(٢) نفس المرجع السابق

(٣) نفس المرجع السابق صفحة ١١٣

(٤) نفس المرجع السابق صفحة ١١٤

(٥) أنظر صفحة ٣ من هذا المقال ٠

نظرية دقيقة جدا ، تفوق في دقتها ما جاء في الأنسـقة الفكرية الواردة في المنطق اليوناني الذى يرد اليه المستشرقين نشاط المسلمين الفكرى ٠

ونحن نعـلم ، في يومنـا هذا ، بعد نقـد ابن تيميـة (المتوفى ٧٢٨ هـ ـ ١٣٢٧ م) (١)أقوال المناطقة اليونايين ، واتباع فرنسيس بيكون (٢) ، وان كان مدى بعد آراء أرسطو المنطقية عن العقد الجديد لعقمها ، (١٥٦٠ م ـ ١٦٢٦ م) كمـا لاحظـه لقـوله وتسـجيله لآرائه (٢) ، مدى بعد آراء أرسطور المنطقية عن العقل الجديد لعمقها ، فليس بها ما يؤدى الى كشف الجديد ٠ وأنه لابد من العزوف عنهـا ، وهو ما فعله العرب بعد شرحها ، لبعض أساليب تؤدى الى الكشف عن الجديد ٠

ومما هو جدير بالذكر ، أنه يحرص على أن يقـدم نموذجا حيـا من أقوال أحد أئمة الفقه ، هو من أوائل من ظهر في مجال أصوله وهو الامام الشافعى (٣) (المتوفى ٢٠٤ هـ ـ ٨١٥ م) صاحب « الرسالة » مبينا ان هذه الرساله ، تحتوى على أصول فكرية ، لها قيمتها ، في ضبط الفكر ٠

ولا يقف عند الشافعى ، بـل نراه يجول مع القارىء ، بدأب ودراية جولة واسعة بين فقهاء المسلمين ، وأصولييهم ، مبينا جهودهم ومحدثا عن الجدل ، ومرتبته في الدين ، وما الجدل المحمـود ، والجدل المذموم ؟ ٠

ومرة أخرى نقع على وعى الشيخ ، رحمه الله ، للتفرقة بين موضوعات المعرفه ، اذ يجيز الجدل في كذا ولا يجيزه في كذا ٠

ومن يدرس كتب الجدل (٤) يتبين ما له من مكانة في مجال التحصيل العلمى الدقيق لأمـور الدين وغيرهـا ٠ وأنه ليس هو الجـدل اليونانى الصاعد والهابط ، المشهور لدى أفلاطون ٠ وانما هو جدل يمثل مدافعة ذهنية بين خصمين يتدارسان أبعاد مذهبيهما ٠

والجدل الاسلامى قد اعتنى بـ « الترجيح » وهو ما لا تعترف به الثقافة اليونانية وتعتبره « معرفة ظنية » غير جديرة بتوكيد يقين ما ٠

---

(١) ابن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هـ\١٣٢٧ م) من أوائل الشخصيات التى عبرت في دراسة تفصيلية عن ضرورة الفروق عن آراء أرسطو ٠

(٢) ان فرنسيس بيكون استفاد من الدراسات العربية الاسلامية التى كانت قدمت الى اللاتينية في عصره ، ولكنه كغيره من مفكرى الغربيين لم يعترف بمصدر آراء ونسب أحكام نقد ارسطو لنفسا ٠

بينما الترجيح فى الحقيقة قد مهد للأذهان وعى مفهوم « النسبية »

فالترجيح يضعنا أمام حقائق علمية نابعة من واقع الاحتكاك بالنصوص الكريمة المنزلة ، ويؤكد علو مرتبة البحث عند المسلمين فى مجالى النظر والعمل ٠

وكما تعرض لمفهوم « الحكمة » قبل الاسلام ، وقرب بينه وبين ما هو مطلوب فى الدين الحنيف ، نراه يتعرض له بعد ظهور الاسلام (١) بالصقل والتهذيب ٠

ويثبت أن الحكمة فى الاسلام تتحقق عن دربة ذهنية تحدث مع ممارسة مسائل الفقه (٢) وأن هذه الدربة كان لها أثرها فى صقل الذهن الانسانى فى مجالات العلوم على اختلافها ٠

ويكثر الشيخ ٠ رحمه الله ، من ذكر المراجع فى الفقه واصوله ، وبيان جهود أصحاب هذه المصادر فى مجال تحديد معالم الحقائق الدينية وغير الدينية مما يتعلق ببعض جزئيات الحياة ويستشهد بقول ابن عباس رضى الله عنهما ، حين يقول : «الحكمة في القرآن ، علم الحلال والحرام»(٣) ثم يثبت قول زمرة من الفقهاء أثبتوا أن : « الحكمة علم الفروع الذى هو علم الفقه » (٤)

وبهذا يتبين أن الشيخ ، رحمه الله ، كان يود أن ينبه الى ان بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ما يحقق صقلا ذهنيا له قيمته بالنسبة لتقدم العلوم على اختلافها ٠

ويواصل الشيخ ، رحمه الله ، تقديم أدلة من كتب علماء الأصول فيذكر قول ابن العربى (المتوفى ٦٣٨ هـ ـ ١٢٤٠ م) فى كتابه « العواصم من القواصم » ٠

« وليس للحكمة معنى الا العلم ، ولا للعلم معنى الا العقل ، الا أن فى الحكمة اشارة الى ثمرة العلم وفائدته ، ولفظ « العلم « مجرد عن دلالته ، على غير ذاته ، وثمرة العلم العمل بموجبه (٥) والتصرف بحكمه والجرى على مقتضاه فى جميع الأقوال والأفعال » ٠

---

(١) كتاب « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » ص ١١٧
(٢) كتاب «تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ١١٨
(٣) نفس كتاب تمهيد
(٤) كتاب تمهيد لتاريخ الفلسفة هامش ٤ من نفس الصفحة ٠
(٥) نفس المرجع السابق صفحة ١١٩

أما قول مالك بن أنس (المتوفى ١٧٩ هـ ـ ٧٩٠ م) رضى الله عنه ، حين تحدث عما يجوز فيه الكلام وما لا يجوز فيه ، فانه يقدم دليلا آخر على الوعى بتنوع موضوعات المعرفة عند المسلمين .

قال مالك : « الكلام فى الدين أكرهه ، ولا أحب الكلام الا فيما تحته عمل . » (١)

فهناك نظر فى العقائد ، وهو غير مستحب ، ونظر فى المسائل الشرعية العلمية ، وهو مؤيد من الدين ويمثل الاجتهاد « بالرأى »

ويصرح الشيخ ،رحمه الله ، بأن الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية أوجد علما فلسفيا هو علم « أصول الفقه » (٢)

ويؤكد أن ذلك كان من قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها فى توجيه النظر العقلى فى الاسلام حسب ادعاء بعض المستشرقين وهو يعتبر أن « أصول الفقه » أقل نواحى التفكير الاسلامى تأثرا بالعناصر الأجنبية على مر الزمن .

وهذا يتعارض مع وجهة نظر بعض المستشرقين (٣) الذين أرادوا أن يجعلوا علم أصول الفقه متأثرا بعناصر أجنبية .

ويواصل الشيخ تتبع الاجتهاد فى أطواره خلال العصور . مبينا ما تميزت به هذه الجهود من أصالة ، وعلم حقيقى بحيث يتبين الباحث فى كل ما قدم دراسة ثرية الى حد كبير لهذا المجال النظرى والعملى الذى يؤكد وجود أصول أو أسس للفكر الاسلامى .

لذلك رأى الشيخ . رحمه الله ، أن الفلسفة الاسلامية الحقيقية فى هذا النظر العقلى الممثل فى الفقه وأصوله .

هذا هو وصف الشيخ ، رحمه الله ، « للرأى » وقد تبينا أنه يقوم على أصول لم ترد اليه من مصادر أجنبية ، وانما هو نتاج العقلية العربية المسترشدة بالتعاليم الدينية .

هذه الأصول أو الأسس ، يمكن للباحث أن يستخلصها من مواقف الشيخ ، رحمه الله ، من المسائل التى درسها .

---

(١) نفس المرجع السابق صفحة ١٢٠ هامش رقم ١ وأيضا صفحتى ١٢١ ، ١٢٢

(٢) نفس المرجع السابق

(٣) مثل كارادى فو وجولدزيهر ـ (نفس المرجع السابق صفحة ١٢٣)

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأسس التى سنستخلصها من أقوال الشيخ باعتبار أنها أسس الفكر الاسلامى التى انقدى الامام تحتها بحكم ثقافته الاسلامية الأولى منذ الصغر والتى ازداد توطدها مع تدرجه فى سلم العلم

نقول ان هذه الأسس : منها ما هو عام يشمل شخصية المسلم ككل .

ومنها ما هو خاص أى يتعلق بالمجال الذى نحن بصدده وهو مجال تحصيل المعارف .

والنظر العقلى الاسلامى ينفرد بكثير من هذه الأسس العام منها والخاص .

أما عن استخلاص هذه الأسس من مواقفه فانا نقول :

أ ــ ان موقف الرفض الذى وقفه الشيخ ، رحمه الله ، تجاه ادعاءات الخصوم ، لا يصدر الا عن شخصية قوية تفرق بين ما يرد عليها من ظروف، خاصة وأن موقف رفضه هذا لم يتحدد الا بعد فحص ودراسة .

ان الصقل الاسلامى الذى تلقاه الشيخ فى الأزهر الشريف عرفه أنه لا عبودية الا لله وحده

وهذا المبدأ يخلص شخصية المسلم من العبودية لغير الله ، أى أن فكر المسلم يتدرب منذ البداية على أن كل ما سوى الله قابل لاعمال الفكر فيه .

ومن هنا أصبح المتوارث من الأقوال ليس له التأثير الأعمى على عقلية الفرد . على نحو ما يحدث للكثير من الناس بالنسبة للآراء التى يتلقونها عن بيئتهم الفكرية الخاصة والعامة .

هذا المبدأ عزقه الشيخ كمفكر مسلم وطبقه ويسهل استخلاصه من أقواله .

وهو يمثل مبدأ من أهم مبادىء البحث فى الفكر الحديث

ولعل القاعدة الأولى من قواعد ديكارت (١) تعبر عنه أو نرجع أن

---

(١) المقال فى المنهج » ترجمة المرحوم الدكتور محمود الخضرى ، القاهرة ١٩٤٦

يكون هذا الفليسوف قد أخذها هو أيضا عن المسلمين ، من خلال كتبهم التى نقلت الى اللغة اللاتينية ، لأن التراث اليونانى الذى احتواه الترث المسيحى ، والذى هو المتوارث بالسبة لديكارت ، ليس فيه مفهوم الرفض للمتوارث الذى هو مضمون القاعدة الأولى من قواعد المنهج الديكارتى ٠

فالشيخ ، رحمه الله ، قد صدر فى هذا الموقف عن مبدأ من أهم مبادىء الصقل الاسلامى المترتب على تدبر النصوص المنزلة ، حيث العبودية والتقديس ، والتكبير لله وحده ، لا اله الا هو ، جل جلاله ، وماعداه سبحانه ، فهو قابل للفحص ، وما الفحص الا رفض لتحقيق القبول الا بعد الدراسة ٠

ب ـ ثم هناك موقف آخر للشيخ تجاه آراء المستشرقين ، انطلق فيه من أساس فكر اسلامى ٠

هذا الموقف يتمثل فى رفضه لادعاء تنمان وغيره ، بأن النصوص المنزلة تحد من نشاط الفكر الانسانى ، ذلك لأن هذا الادعاء لا يتفق وما يتبينه المسلم ، وهو فى رحاب النصوص المنزلة ، من معان تتآزر لتؤكد مفهوم « التكامل » ٠

ومن أبرز دواعى الشعور بهذاالمفهوم تكاتف النصوص المتعلقة بالعقيدة مع تلك التى تخص العبادات والمعاملات لتوكيد حياة أخروية خيرة ، ترتبط بحياة العبد فى هذه الدنيا بل تترتب عليها ٠

ان الاسلام كغيره من الديانات السماوية الأخرى ، يظل حياة الفرد بشقيها ، ولكنه ينفرد بقدر كبير من الجزئيات التفصيلية التى تعين على تحقيق هذا التكامل فى أحسن صورة ، اذا ما عرف الفرد كيف يستعين بالنص المنزل ، وهو ما تخلو منه الديانتان السماويتان الأخريان ٠

واذا ما قابلنا النصوص الاسلامية المتعلقة بهذا المفهوم بما ورد فى الفكر اليونانى ، الذى ادعى أصحابه أنه سبب الانطلاق الفكرى عند المسلمين نجد أن هذا الفكر أى اليونانى يخلو تماما من مفهوم التكامل ، لأنه لا يقيم وزنا الا للعقل كمصدر للمعارف ، ثم هو فكر لا يعرف المعتقد

الديني ، وبالتالى يخلو تماما من تقدير وجود حياة أخرى مكملة للحياة فى هذه الدنيا ٠

فمبدأ التكامل ، المرتبط الى حد كبير بمعتقد دينى الذى تدعمه جزئيات محسوسة متعددة من تعاليم الحياة فى هذه الدنيا ، أمر يخص الصقل الفكرى الاسلامى ٠

جـ ـ ان دراسة اللغويين الأوروبيين المزخرفة ، للأجناس والتى قسمت الناس الى آرى وسامى ، وفرقت بين الجنسين دراسة تتعارض تماما مع مفهوم اسلامى هو : أن الله سبحانه وتعالى ، قد خص الناس بالعقل ٠ وميزهم به على غيرهم من المخلوقات ، ولم يقل سبحانه أنه فضل الآرى على السامى ، فالناس جميعا سواسية ٠

وهذه الحقيقة تنسحب على الناس جميعا ، انها سمة « عالمية الدين » ، صدر عنها الشيخ ، رحمه الله ، فى موقفه من ادعاءات القائلين بنظرية الجنس ٠ والتى رفض على أساسها هذه الترهات المخالفة للواقع والدين ٠

د ـ ثم تركيزه ، رحمه الله ، منذ شروعه فى الحديث عن النظر العقلى ، فى الاسلام الى أن انتهى منه ـ على مبدأ ارتباط النظر بالعمل ، وذلك حين قال :

« الاسلام دين وشريعة » يقصد عقيدة وعمل ، وحين قال ان هذا المبدأ يتفق وطبيعة الانسان ٠

هذا المبدأ لا مقابل له اطلاقا فى الفكر اليونانى ، وخاصة فى فلسفة أرسطو الذى يحتقر ما هو حسى وعملى ٠ ويرى الكمال والثبات ، بل يرى الوجود الحقيقى فيما هو متعقل ٠ والمتعقل مجرد مفهوم أو معنى لا صلة له بالحياة والعمل ٠

ومن يتتبع فلسفات الغربيين الحديثة ، بعيدا عن مجال البحث العلمى ، الذى تأثروا فيه بالعرب ، كما سبق وأشرنا الى ذلك ، يجد أن هذه الفلسفات لم تعرف مبدأ ارتباط النظرية بالعمل حتى أوائل القرن التاسع عشر ، بدليل ما تقع عليه من ثنائية فى فلسفة عمنويل كانط الفليسوف الألمانى (المتوفى ١٧٢٤ م ـ ١٨٠٤ م) وأن أول من صرح

بمفهوم ارتبــاط النظر بالعمل فى الفلسفة الأوروبية الحديثة الفيلسوف فشته أو فخته (المتوفى ١٧٦٢ م ــ ١٨١٤ م) (١) ٠

والشيخ ، رحمه الله ، عندما تعرض لهذا المبدأ أثناء توكيده لثراء النظر العقلى الاسلامى ، صدر عن أدلة نصية منزلة ، وأدلة مأخوذة من جهود الفقهاء والأصوليين ٠

فمبدأ « ارتبــاط النظر بالعمــل » من أبرز المبادىء التى تميز الفكر الاسلامى ، والتى تجعل لمن يأخذ به ، قدرة على ضبط الحقائق بما يتفق ومبدأ التكامل الذى سبق وأشرنا اليه ٠

وأقوال الشيخ رحمه الله فيما يتعلق بـ « الرأى » مليئة بالأدلة على تقديره لهذا المميز المنظر العقلى الاسلامى

هـ ــ ثم عزوف الشيخ ، رحمه الله ، عن الأقوال الضحلة التى صرح بها المستشرقون ٠٠٠

ان هذا العزوف يرجع أيضا الى وقوعــه على ما فى النظر العقــلى الاسلامى المتعلق بالفقه وأصوله خاصة ، من ثراء ، ليس فقط فى الأسس الموجهة للعقل أثناء تحصيل المعارف وهوما عرض له عند حديثه ، رحمه الله ، عن الإمام الشـــافعى (المتوفى ســنة ٢٠٤ هـ ــ ٨١٥ م) وغيره من الأئمة ، وانما أيضا فيما يتعلق بالمعاملات حيث الحيــاة الاقتصـــادية ، وحياة الجماعات ، وحياة التعامل مع الشعوب ، وأسس توطيد المجتمعات

ان الدارس الذى يتعــرف على هذا الثراء ، لا يمكن أن يهتز أمــام ادعاءات خاوية ، أصــدرها الحقد ودفعت اليها الرغبــة فى الكيد لدين الله الحنيف ٠

وعندما نقــول « ثراء » ، نقصــد ثراء فى التفاصــيل التى وردت بالنصوص المنزلة من أجل ترشيد سلوك الفرد مع نفسه ، ومع الجماعة التى يعيش فيها ، وقبل كل شىء مع ربه السميع العليم المطلع على ما فى القلوب ٠

ان الإسلام ثرى بالآيات التى تقوم على مفهوم الترغيب والترهيب الى جانب الآيات التى بها أحكام ٠

---

(١) أنظر الدراسة (تقديم) لكتاب « غاية الانسان » لفيشته ٠٠ نقلته الى العربية كاتبة هذه السطور طبعة أولى ١٩٦٥

وهذا كله يؤكد مفاهيم الالزام الخلقي والمسئوليه والجزاء والجهد الأمر الذى يترتب عليه شعور بالقوة الذاتية المدعمة بالتوجيه الربانى .

فالثراء الذى نتحدث عنه فى الاسلام هو ثراء فى الجزئيات والتفاصيل ، وقد أبرزه الشيخ ، رحمه الله ، بقوة فى الوصف التاريخى لتطور مفهوم « الرأى » الذى قدمه فى كتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » .

هذا الثراء هو الذى عاون الشيخ على تبين الأصالة فى النظر الاسلامى

ووقفته مع ما يسمى « بالجدل » فى الاسلام . تكشف عن مجال درية دهنية لا مثيل له فى الثقافات الأخرى ، لأنه مجال تدافع ، يتطلب قدرا رفيعا من الالمام بالحقائق : الدينى منها وغير الدينى ، ويسمح بالتالى بالتقدم فى التحصيل الفكرى والرقى الذهنى ، وهو ما وضحه الشيخ فى وضعه لأطوار « الرأى »

و — ثم الحث على العلم ، المتوفر فى آى الذكر الحكيم والسنة النبوية الشريفة ، والذى يدحض قول من ادعى الخمول والبعد عن التفكير بالنسبة لمعتنقى الاسلام .

ان الشيخ رحمه الله ، بتعريفه « للرأى » أكد هذه السمة وصدق فيما قاله عن تقديره لها ، ان مبدأ الحث على العلم فى الاسلام من أبرز الأسس المميزة للنظر العقلى عند المسلمين .

هذا فيما يتعلق بالأسس العامة ، التى صدر عنها الشيخ ، رحمه الله فى فكره الاسلامى . والتى تيسرلنا استخلاصها من مواقفه الفكرية ضد ادعاءات المناوئين .

أما بالنسبة للأسس الخاصة للفكر الاسلامى ، وهى المتعلقة بتحصيل المعارف ، فانه من الواضح أن الشيخ ، رحمه الله ، قد تحقق بها كمفكر مسلم .

وهذا يتضح اذا نظرنا فيما يمكن أن نسميه « مذهب الشيخ فى تحصيل المعارف »

ومذهبه هذا يمكن أن تتضح معالمه الاسلامية من خلال الحديث عن مصادر المعرفة لديه وموضوعاتها ، ومناهج التحصيل فيها ودرجات اليقين لديه ، ثم الهدف من أنواع المعارف .

ودراسة « الرأى » على نحو ما عرضه الشيخ رحمه الله يؤكد أن المسلم يعترف بالحس والعقل والقلب والخبر المنزل وغير المنزل (مع اختلاف درجة اليقين) كمصادر للمعرفة ٠

فتقدير الفقيه لظروف « النازلة » التى لم يرد فيها نص مثلا ، يكشف عن تقديره للحس كمصدر للمعرفة ٠

ثم أعمال الفكر فيها توكيد لتقديره للعقل ، كملكة تعين على تحصيل المعرفة ، ثم الانطلاق من الايمان بوجود اله واحد لاشريك له ،والاعتقاد فى الغيبيات ، يثبت اعتراف المسلم بالقلب كمصدر ، ثم الرجوع الى النص المنزل عند تحديد مختلف مواقف الحياة للاسترشاد بالتوجيهات الربانية والتعرف على أحوال القوم قبل ظهور الاسلام ، اعتراف بالخبر المنزل كمصدر ٠

ويجب أن نلاحظ أن هذا ثراء لا يتوافر فىمذاهب المعرفة التى كانت معروفة حتى ظهور الاسلام ٠ ومن أبرزها مذهب اليونانيين ثم بالنسبة لموضوعات المعرفة ، فقد سبقت الاشارة الى أن الشيخ كمفكر مسلم يفرق بين الخالق والمخلوق كموضوعات للمعرفة ٠ من جهة أن الأول فوق مستوى العقل البشرى « الغيبيات » والثانى فى مستوى القدرة العقلية لدى البشر ٠ ولذلك كان التعامل مع موضوع الاعتقاد ٠ وهو الله جل جلاله ، غير التعامل مع موضوعات الشريعة العملية ، حيث يتسع للاجتهاد بالرأى كما بينا ٠

وقد اقتضى تعدد الموضوعات تعدد مناهج التحصيل ٠ لذلك نجد الشيخ ، رحمه الله ، كمفكر مسلم يستعين بالاستنباط ٠ كما يلجأ الى الاستقراء ٠ كل فى موضعه وعند الحاجة اليه ٠

أما درجات اليقين فهو مما تميز به الفكرالاسلامى ، وقد ظهر فى أقوال الشيخ تقدير مفهوم « الترجيح » الذى يلائم الابحاثالمتعلقة بمفهوم النسبية فى الفكر الحديث ومما هو جدير بالذكر أن أرسطو لا يعترف بهذا اللون من التفكير ويعتبره معرفة ظنية كما أشرنا ٠

ثم الهدف من المعرفة يختلف باختلاف القصد ، فقد يكون الهدف توكيد عقيدة وقد يكون التعرف على الواقعة فى ذاتها للتعرف على القانون الذى تنضم تحته كجزئية ٠

هذه هي الأسس الخاصة والعامة التى يمكن التعرف عليها فى أقوال الشيخ فيما يتعلق « بالرأى » الذى اعتبره الشيخ ، رحمه الله ، المضمون الحقيقى لما يمكن أن يسمى « فلسفة اسلامية »

وبهذا يكون الشيخ ، رحمه الله ، قد قدم أروع دليل على أنه صدر فيما قدم من آراء فى الفلسفة الاسلامية عن أسس تفكير اسلامى ، وأنه الشيخ مصطفى عبد الرازق المفكر المسلم بحق ٠

د ٠ فوقية حسين محمود

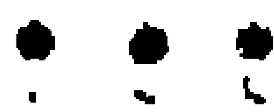
ذكرى عالم

بقلم

الأستاذ الشاعر محمد عبد الغني حسن

عضو مجمع اللغة العربية

مرت عليك السبعة الأعوام فكأنها يا مصطفى أحلام
وكأن صوتك فى المسامع لم يَزَل ينساب منه اللحن والأنغام
ويكاد وجهك فى المحافل مشرقا ينجابُ عنه الغيم والإظلام
وكأنَّ طلعتك الرقيقة لم تزل يفترُّ عنها ثغرك البسام
وكأنَّ فى بُرديك نفحا غاليا وعلى سناك بشاشة تُستام
جذلانَ تفرح باللقاء .. كأنما لك فى بشاشات اللقاء غرام ..
تَزِنُ الكلام ، فإن نطقت فإنما شفتاك بينهما الكلام نظام
متأنقًا فيما تقول ... كأنما للفظ عندك رِعيةٌ ومقام
متحرجا فيما تقول .. كأنما للقول عندك حرمة وذمام
لك فى أناتك ما يصُون ، وربما زلّت من المستعجل الأقدام ..
تَزِنُ المواقع للكلام ... وطالما قد أخطأ المتكلمين كلام
ويعفُّ من أدبٍ لسانُك .. إنه قد عفَّ لما عفَّت الأفهام
هيهاتَ للفكرِ الطهورِ ... فإنه ليست تشوبُ لسانه الآثام ..



يأيها الشيخ الوقور تحية	وعليك فى دار السلام سلام !
المسلمون عليك ضج لواؤهم	لما انطوى ركن ، وهُدّ قوام
جيلٌ من العلماء قلّ مثالُه	فكأنما عقمت به الأيتام !
أو لم تنخ مصرُ عليك ، وينفطر	قلبُ العراق ، ويُستفزّ الشام ؟
أمم تؤلفها العروبةُ وحدةً	ويضمها فى الفكرة الإسلام
إن مال فى لبنانَ منها حائط	مالت له بجلالها الأهرام
أو تختلف رَحِمٌ بهم فبحسبهم	أنّ العروبة بينهم أرحام ..

* * *

يا قائم الليلاتِ فى أبحاثه	والناس غَرْقَى فى الحياة نيام
الآن قرّ بك القرار .. كأنما	لم تضطرب لك فى الحياة خيام
وبلغت فى الدنيا مداك إلى غدٍ	لم تتضح فيه لنا الأعلام
بالله ! هل خلفَ الستارِ بقيةٌ	أو بعدَ مزدَحَم الحياة زحام ؟
وهل المعادُ هناك بالأرواحُ أم	عند المعاد تؤلّف الأجسام ؟
وإذا القبور وما بها قد بُعثرت	أتعودُ قاماتٌ ، وتُنصب هام ؟
مالى وللشكّ المريب ، فإنه	لا تستقيم مع الشكوك دعام !!
آمنتُ أن اللهَ جلّ جلالُه	ليست تحيط بعلمه الأفهام
إن الذى خلقَ الخلائقَ نطفةً	أو ليسَ يجمعُها وهن عظام ؟

* * *

أودعت بعدك فى التراب أعزّةً حُـزني عليهم قاتـلٍ هـدام
قد كنتُ أرجوهم ليوم ضاحك لو كان لليوم الضحوك دوام !

* * *

الملتقى لغدٍ .. فلا بأسٌ إذا ما فرّقت ما بيننا الأيام
لتطلْ بنا أو تقصر الأعوامُ فالعمرُ طيف والمنى أوهَام ..!

محمد عبدالغنى حسن

مصطفى عبد الرازق

ومنهجه فى دراسة علم الكلام

بقلم

الدكتور جلال محمد موسى

بكلية الآداب - جامعة المنيا

كنا نود اعداد بحث مطول عن الشيخ مصطفى عبد الرازق في مجال المنهج بالذات . ولكننا وجدنا الخائضين غمار البحث في هذا الصدد قبلنا حاولوا محاولات صادقة أصاب بعضها وأخفق البعض الآخر . فكان لزاما علينا الاكتفاء بقول مختصر اسهاما منا في هذا المجال .

نضع قولنا في نقاط وتفريعات ثلاث .

عن النقاط الثلاث نقول ان هنالك شروطا ثلاثة لابد من توافرها لقيام اى علم من العلوم .

١ ـ أن يكون هنالك موضوع يبحث فيه العلم . ليس هنالك علم بلا موضوع . موضوع العلم اى طائفة من الظواهر التى يمكن تحسسها او مشاهدتها او اجراء التجارب عليها او اخضاعها للدراسة .

٢ ـ ان تكون هنالك قوانين ونظريات نتوصل اليها في هذا العلم او ذاك .

هذه القوانين والنظريات تفسر لنا موضوع العلم او ظواهره المختلفة . وقد تساعدنا هذه القوانين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر او باحتمال وقوعها .

٣ ـ ان يكون هنالك منهج متبع في هذا العلم .

هذه الشروط الثلاثة تتساند لتؤدى في النهاية الى تحقيق ذاتيه العلم . وهذا ما يجعلنا لا نفاضل في الأهمية بينها . والا فان الركيزة الأساسية لقيام العلم هى المنهج . اذ الأمر يتطلب أن تكون هنالك طريقة تنطوى تحتها شتات الوقائع والمفردات المبعثرة هنا وهنا بغية تفسير ما قد يوجد بينها من روابط وعلاقات نسميها في نهاية الأمر قوانين ونظريات . وهذا ما يجعلنا نرى العلم منهجا أكثر منه طائفة من القوانين والنظريات . لأنه لو كان العلم مجموعة القوانين والنظريات التي بين ايدينا لكان العلم ثابتا جامدا لايقبل تعديلا ولا تغييرا . لكنه متغير متطور .

نظريات اليوم ليست نظريات الأمس ولن تكون نظريات الغد .

وذلك مايجعلنا لاننفي صفة العلم من أصحاب النظريات التي تغيرت . فأصــحابها في نظرنا علمــاء لانهم اتبعوا المنهج العلمي في بحــوثهم . والمنهج العلمي هو الطريقــة المستخدمة من أجل تجميع وتنظيم وتصنيف وتفسير الوقائع واختيارها والتنبؤ بحدوثها .

والآن نسأل ماعسى أن يكون علم الكلام وماعسى أن يبدو عليه في موضوعه وحقيقته . وكيف جــاء في أسلوبه وفي صياغة مصنفاته ؟ ان أسئلة من هذا النوع انما تلزم الزاماً أشد مما يبدو لأول وهله .

علم الكلام موضــوعه الدفاع عن الدين والرد على المخــالفين . الدفاع عن الدين والرد على المخالفين يدخــل في أية مقولة مــن المقولات الثلاث التي ذكرناها .

نقول ان موضوع العلم ظــواهر تتحسس أو تقبــل المشــاهدة والتجربة أو تخضع للاختبار أو تكون موضوعا للدراسة . ان الدفاع عن الدين والرد على المخالفين موضوع يخضع للدراسة .، اذن لعلم الكلام موضوع يبحث فيه ففي هذا الصدد يقول ابن خلدون هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقليــة والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة (١) . وكــذلك فصل الفارابي في كتابه « احصاء العلوم » حيث يقول : وصناعة الكلام يقتدر بها الانســان على نصرة الآراء والافعــال المحــدودة وتزييف كل ماخالفهــا بالأقاويل .، وهذه الصناعة تنقسم الى جزءين جزء في الآراء وجزء في الافعال وهي غير الفقه» (٢) هذا عن الشرط الاول فماذا عن الشرط الثاني .

هل نتوصل في علم الكلام الى قوانين ونظريات ؟ واذا كان الأمــر كذلك فأين هذه القوانين والنظريات ؟ وللجواب نقول : لابد للعلم من أن يتوصل الى قوانين ونظريات يعتبرها نتيجة العلم . نحن نصل الى قوانين ونظريات في علم الكلام بأن نقــدم الأدلة على وجــود الله وحدوث العــالم والعلاقات بين الذات والصفات فعلم الكلام يبحث في الاله ذاتا وصفة وفعلا . يقول الغزالي في كتابه « الاقتصاد في الاعتقاد » جميع أطراف هذا العلم يحصرها النظر في ذات الله تعــالى وفي صفاته ســبحانه وفي أفعاله

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٨ .

(٢) الفارابي احصاء العلوم ص ١٠٧

عز وجل وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وماجاءنا على لسانه من تعريف الله تعالى (٣) .

هذا عن الشرط الثانى . فماذا عن الشرط الثالث (المنهج فى العلم) .

نقول ان علم الكلام مر بمرحلتين واتخذ منهجين . منهج المتقدمين ومنهج المتاخرين .

الفارق بين المتقدمين والمتاخرين يحدده القرن الخامس الهجرى ففى الفترة المتقدمة على ظهور الامام الغزالى كان علم الكلام علما اسلاميا خالصا قائما على القرآن والحديث آخذا من أصول الشريعة بحيث نستطيع أن نقول عنه انه حوار جدلى ذو حدين مخالف للجدل الأرسطى ذى الحدود الثلاثة . لقد أخذ المتكلمون فى هذه الفترة بمنهج اسلامى خالص وضعه او وضع أسسه علماء أصول الفقه وتناوله المتكلمون بالزيادة واستمر هذا المنهج فى دوائر المتكلمين معتزلة وشيعة وأشاعرة . فعن طريقة المتقدمين يقول ابن خلدون فى مقدمته :

ووضع المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لايقوم بالعرض وأنه لايبقى زمانين وامثال ذلك مما تتوقف عليه ادلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الايمانية فى وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول (١)» .

اما عند المتاخرين فقد اختلطت مسائل الكلام بمسائل الفلسفة واستعان المتكلمون بالفلسفة اليونانية وهذا مانجده عند ابن خلدون فى قوله .

« وصار علم الكلام مختلطا بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كأن الغرض من موضوعها ومسائلها واحد . والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب لأن مسائل علم الكلام انما هى عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولاتعويل عليه بمعنى أنها لاتثبت الا به فان العقل معزول عن الشرع وأنظاره وما تحدث به

---

(٣) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٤

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٦

المتكلمون بعد أن لم يكن معلوما هو شأن الفلسفة» (٢) يشير ابن خلدون فى هذا الصدد الى أن المتأخرين من المتكلمين خلطوا مسائل الكلام بالفلسفة لتشابه موضوعاتهما فصارت كأنها فن واحد . غيروا ترتيب الفلاسفة فى مسائل الطبيعيات والالهيات وخلطوها فنا واحدا . قدموا الكلام فى الأمور العامة ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها وذلك ما فعله ابن الخطيب فى المباحث المشرقية ومن جاء بعده من المتكلمين .

وعن طريقة المتأخرين يقول ابن خلدون فى مقدمته :

« ثم نظروا فى تلك القواعد المقدمات فى فن الكلام للأقدميين فخالفوا الكثير منها بالبراهين التى أدت الى ذلك وربما أن كثيرا منها مقتبس من كلام الفلاسفة فى الطبيعيات والالهيات فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم الى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلول لبطلان دليله فصارت هذه الطريقة مباينة للطريقة الاولى وتسمى طريقة المتأخرين (١) .

هذا مانجده حقا عند المتأخرين بحيث أصبح متعذرا الفصل بين مسائل الكلام والفلسفة فى كثير من الأحيان . والسؤال الآن هل كان ثمة منهج اتبعه مصطفى عبد الرازق فى دراسته لعلم الكلام وبالذات فى القضية الملحقة بكتابه « التمهيد » ؟ نجعل اجابتنا على هذا السؤال فى نقاط ثلاث نراها معبرة عن منهج مصطفى عبد الرازق .

١ ــ نقد المصادر فى هذا المجال نجد مراحل ثلاث

(أ) مرحلة تحليل مباشر يستقصى النصوص مأخوذة بحد ذاتها ومن وجه ما بحرفيتها .

(ب) مرحلة الاجتهاد للنفاذ الى القضايا الرئيسية بغية ادراكها فى اقوارها واعادتها الى صياغتها .

(ج) مرحلة العلاقات بين الأفكار بعضها ببعض فى اطار الجداول المقارنة وجداول القيم فى آن واحد .

٢ ــ محاولة تبين المذاهب كيف يتسلل بعضها عن بعض .

---

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٦

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٦

٣ ـ علاقات علم الكلام بالفلسفة والفلسفة اليونانية بالذات وعلم اللاهوت المسيحى .

نعود الى النقطة الاولى الخاصة بنقد المصادر

اذا تصفحنا التمهيد وجدناه يفيض بالنصوص لدرجة أن المتسرعين فى الحكم قالوا ان شخصية مصطفى عبد الرازق اختفت وراء النص . ولكننا نقول ان هذا الفيض من النصوص كان أمرا منهجيا تعلمه مصطفى عبد الرازق فى فرنسا وعلمه لطلبته بجامعة ليون فى فرنسا نجده فى نص من النصوص يعرف علم الكلام فيقول قولة الفارابى فى كتابه « احصاء العلوم » كاملة ويذكر النص أمينا ومخلصا . ان احتفاظ مصطفى عبد الرازق لنا بهذه النصوص يوفر علينا وقتا وعلى الباحثين جهدا فى أن يعيدوا النظر فى النص . فاذا أرادوا أن يحللوه فليفعلوا . نحن نبحث فى ثنايا البحث عن شخصية الباحث وشخص مصطفى عبد الرازق اختفى وراء هذا الكم الهائل من النصوص . هكذا قال البعض . ولكننا نقول ان مافعله مصطفى عبد الرازق كان دليلا على أمانته ودقته . فالأمانة فى العلم أمر مهم يكشف عن شخصية الباحث . ونحن اليوم نطلب من الباحثين ان يكونوا امناء فى تقولهم فاذا كان الباحث أمينا فى نقوله كان أدعى الى الاطمئنان الى صحة نتائجه التى يستخلصها من مقدمات بحثه . ولكن ماذا فعل مصطفى عبد الرازق بعد ذلك ؟

هنا نأتى الى المرحلة الثانية وهى مرحلة الاجتهاد للنفاذ الى القضايا الرئيسية بغية ادراكها فى أغوارها . لم ينقد مصطفى عبد الرازق النصوص فحسب . بل أخذ يحلل النصوص تحليلا مباشرا . النقد الباطن هو النفاذ الى باطن النص . والمنهج التاريخى اليوم يوجه الاهتمام الى النقد الباطن .

كان مصطفى عبد الرازق يذكر النص مطولا لأنك اذا ذكرت بعضا من النصوص وأهملت البعض الآخر كان النص مبتورا . وهنا تصبح الأمانة العلمية موضع شك كان يقدم النص مطولا ثم يبذل جهده ويعمل عقله للنفاذ الى باطن النص . لا يكتفى بما يقوله ظاهر النص انما يبحث فى الأعماق عما فى باطن النص ونحن اليوم نقول أننا لا نبحث عما تقوله السطور . وانما عما بين السطور من أقوال .

ودليلنا فى ذلك أن مصطفى عبد الرازق بعد أن ذكر قولة الفارابى

في التفرقة بين علم الكلام والفقه كاملة أبدى رأيه معلقا حينا وناقدا أحيانا . فمن أمثلة التعليق قوله :

« ولسنا نعرف لغير الفارابي من علماء الاسلام هذا التمييز بين الكلام والفقه بأن الأول يتعلق بنصرة العقائد والشرائع التي صرح بها واضع الملة على حين يتعلق الثاني باستنباط ما لم يصرح به واضع الملة مما صرح به في العقائد والشرائع جميعا » (١) .

ومن أمثلة النقد قوله :

« نعم ان الفارابي في احصاء العلوم » لم يقصد الى بيان الكلام الاسلامي والفرق بينه وبين الفقه على مصطلح أهل الاسلام ، بل قصد الكلام في العلوم الدينية جملة فجعلها طائفتين :

طائفة تبحث فيما يقتدر به الانسان على نصرة ما جاء به الدين من العقائد والأحكام وتزييف كل ما خالفه بالبراهين العقلية . ولهذا التقسيم في نفسه وجه ظاهر وللتسمية بالفقه والكلام وجه . ولكن تطبيق ما يراه الفارابي على المعروف من مصطلح المسلمين ليس بظاهر » (١) .

أما المرحلة الثالثة الخاصة بعلاقات الأفكار بعضها ببعض . لم يكن مصطفى عبد الرازق يكتفي بفكرة ينتزعها انتزاعا . لكن الرجل يعرف أن الفكرة تحتاج الى اطار والاطار الى سياق ـ واذا ما أردت أن تدرس فكرة من الأفكار فتدرسها في سياقها وليس ذلك فحسب . كان الرجل يجتهد في أن يقارن الأفكار بعضها ببعض .

قال قولة الفارابي كاملة وقولة ابن خلدون كاملة . وقارن بين فكرة كل واحد منهما والآخر وعرف كيف تبدأ الفكرة في ذهن شخص وكيف تتطور والام تنتهي .

وقبل أن اقارن أعود الى القيم المعمول عليها في هذا النسق أو السياق مأخوذة بقرائنها الخاصة بها . ويعتبر هذا المنهج غاية في الدقة . فنحن اليوم نطالب بالموضوعية العلمية وهل الموضوعية العلمية الا تجريد الفكرة من سياقاتها لأنظر اليها في ذاتها وبصرف النظر عن ملابساتها . ولكن هل يستطيع أحد أن يفعل ذلك . كان الرجل يجتهد كل الاجتهاد

---

(١) مصطفى عبد الرازق : التمهيد ص ٢٥٧

(١) مصطفى عبد الرازق : التمهيد ص ٢٥٩

ويحاول كل المحاولة • كان ينظر الفكرة في داخل الاطار ويبحث العلاقات المتبادلة بين الأفكار ولذلك درس تاريخ علم الكلام عند الأقدمين والمحدثين• وذلك ضمن دراسته للرأي وأطواره دراسة تاريخية ممتعة • لقد دبج مصطفى عبد الرازق صفحات رائعة ـ فيما كتبه عن علم أصول الفقه • لقد جعل الضميمة امتدادا لما ذكره في كتابه « التمهيد » حيث درس علم أصول الفقه الذى اعتبره بداية حقيقية للفلسفة الاسلامية • وهذا ما جعله يدرس الرأي وأطواره دراسة متأنية تتحسس الأغوار ـ ففي الصفحات المخصصة للشافعي ورسالته في علم أصول الفقه تتجلى روعة مصطفى عبد الرازق في احاطته بمنهج اسلامي مضمر في ثنايا الرسالة • كشف عنه فأصبح مقبولا معترفا به في الدراسات الاسلامية • يقول مصطفى عبد الرازق « كان الناس قبل الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع اليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضتها وترجمتها • فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه • ان الشافعي مهد هذا الفن ورتبه وهو أول من أخرجه » (٢) •

كانت النقطة الثانية خاصة ببيان كيف تتسلسل المذاهب بعضها عن بعض وكيف يأخذ بعضها عن بعض • اذا أخذنا على سبيل المثال نظرية الجزء الذى لا يتجزأ لوجدناها عند اليونانيين وعند المعتزلة والأشاعرة فهل معنى ذلك أن الأشاعرة لم تقل قولا مخالفا للمعتزلة ، وأن المعتزلة لم تقل الا ما قاله اليونانيون ؟ • كان مصطفى عبد الرازق يتتبع الفكرة كيف بدأت عند اليونانيين وكيف نمت وتطورت عند المعتزلة ثم كيف انتهت عند الأشاعرة • صحيح أنه وقف عند حد الأشاعرة لقوله « ان النهضة الحديثة لعلم الكلام تقوم على نوع من التنافس بين مذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية• وانا لنشهد تسابقا في نشر كتب الأشعرية » (١) •

وكانت النقطة الثالثة خاصة بعلاقة علم الكلام بالفلسفة وبالفلسفة اليونانية بالذات •

درس مصطفى عبد الرازق الفلسفة الاسلامية فوجد المستشرقين سبقوه الى دراستها • ولكنهم وقفوا منها مواقف متباينة بين مغال مسرف ومقل منتقص لقيمتها • قال بعضهم ان الفلسفة الاسلامية ليست

---

(٢) مصطفى عبد الرازق : التمهيد ص ٢٣٣
(١) مصطفى عبد الرازق : التمهيد ص ٢٩٥

الا الفلسفة اليونانية نقلت الى العالم العربى وباللغة العربية أى فى صورة معدلة نقلت الفلسفة اليونانية الى العالم الاسلامى • فأخذها الاسلاميون وصبغوها بالصبغة الاسلامية•لم يوافق مصطفى عبد الرازق على هذا الرأى • وكان أول أستاذ للفلسفة الاسلامية بعد المستشرقين قال مصطفى عبد الرازق ان لدينا أصولا نجدها فى علم أصول الفقه • ووجد أن رسالة « الأم » للامام الشافعى اكتمل فيها علم أصول الفقه • وقال ان الفلسفة اليونانية عندما نقلت الى العالم الاسلامى وجدت بيئة صالحة • وكانت العلاقة بين علم الكلام وعلم أصول الفقه فى هذا الوقت علاقة تلاق وامتزاج ، ولكن هذا لا يعنى أن الفلسفة الاسلامية هى الفلسفة اليونانية معدلة • صحيح أننا وجدنا علما كاملا اسمه علم أصول الفقه • كان مصطفى عبد الرازق يحاول ما وسعه الجهد اثبات أن هذا العلم كان البداية الحقيقية التى بدأت منها الفلسفة الاسلامية وبالرغم من أن مصطفى عبد الرازق بذل جهدا أكثر من المعتاد لم تكن النتيجة لنوافق عليها كل الموافقة لأنه أراد وكان صاحب منهج فيما أراد• قال ان الفلسفة الاسلامية نجد بذورها وأصولها كاملة فى علم أصول الفقه • لو لم يقل كاملة لقلنا ان الشيخ أصاب ولكن لقوله كاملة تقول ان الشيخ لم يصب فى قوله • فنحن لا يضيرنا بأية حال من الأحوال أن تأخذ الفلسفة الاسلامية عن الفلسفة اليونانية • انها مسألة حساسية لا أكثر عند الأقدمين والمحدثين •

الحضارة اليونانية ، كانت أسبق من الحضارة الاسلامية • ومع ذلك أخذت الحضارة اليونانية من الحضارات السابقة • السابق يعطى اللاحق• واللاحق لابد وأن يأخذ من السابق • فالحضارات معطية وآخذة وفاعلة ومنفعلة ومؤثرة ومتأثرة • هذا أمر طبيعى لا غضاضة فيه • لتبين أصالة الفلسفة الاسلامية لا نقول اننا وجدنا علم الأصول كاملا • وانما نقول قارنوا بين مرحلتين ، المرحلة التى نقل فيها التراث اليونانى والمرحلة التى ظهر فيها مفكرون اسلاميون أصلاء أى مرحلة الانتاج الفكرى • اذا اتفقت المرحلتان كان حقا القول بأنه لا جديد • واذا وجدنا اضافة وتعديلا كان حقا القول بأن الاسلاميين أنتجوا وأبدعوا • لو لم يكن الاسلاميون على درجة من الوعى والنضج تسمح بهضم واستيعاب التراث المنقول لما كان فى مستطاعهم الانتقال من مرحلة النقل والترجمة الى مرحلة التأليف والاستقلال بالرأى •

وكانت النقطة الأخيرة خاصة بعلاقات علم الكلام بالفلسفة وبالفلسفة

اليونانية بالذات ان الفلسفة اليونانية أثرت وكان لزاما أن تؤثر ، وليس عيبا أن تؤثر •

اذا كان الاسلام التقى في دمشق باللاهوت المسيحى فانه فى بغداد التقى بالفلسفة اليونانية • ففي الفهرست لابن النديم نجد رواية عن اهتمام المأمون بنقل التراث اليونانى • فقد كان ذلك بداية حركة التعريب مما جعل بين أيدى المسلمين أمهات الكتب الفلسفية فى الفكر اليونانى القديم • لقد كان لمنطق أرسطو ومقالاته فى الطبيعة وما بعد الطبيعة التأثير الحاسم على صعيد علم الكلام بالذات حيث تسلح المسلمون فى بعض الفترات بالمنطق الأرسطي وفى فترات لاحقة عارضوه ونقدوه وتوصلوا الى منطق جديد مخالف له تمام المخالفة•انه عن طريق الفلسفة اليونانية اكتشف العقل قواه فالقى بظلاله على المشكلات الدينية دفاعا عن الدين وردا على المخالفين • عمد علماء الاسلام الى الأسلحة المعروضة عليهم واقتحموا غمار النضال • فنتج عن ذلك حركة علم الكلام • وهكذا أخذ الفكر الاسلامى يعى ما انطوى عليه فى ذاته • هذا عن الفلسفة اليونانية • فماذا عن علم اللاهوت المسيحى ؟

كانت هناك مناقشات ومناظرات بين المسيحيين والمسلمين فى أمور الدين • فقد كان يوحنا الدمشقى (١) مثلا يعلم المسيحى كيف يناقش المسلم فى كلمة الله بأن يسأل المسيحى المسلم بم سمى المسيح فى القرآن • فان قال « كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منه » سأله هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة فان قال مخلوقة يرد عليه بأن الله كان اذن ولا روح له • قال يوحنا فان قلت ذلك فسيفحم المسلم لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين •

يدور الحوار هنا — حول كلمة الله محك الخلاف بين المسيحيين والمسلمين • لقد كان المسيحيون يستخدمون البرهان بالكلمة المخلوقة أو غير المخلوقة ليرغموا المسلمين على الاعتراف بلاهوت المسيح فاضطر المسلمون الى الاجابة • وربما كان ذلك الأصل فى المحنة التى سميت فيما بعد محنة خلق القرآن حيث تدون الرحى حول القرآن وكونه كلام الله المخلوق أو غير المخلوق •

---

(١) حارديه/قنواتى : فلسفة الفكر الدين بين الاسلام والمسيحية جـ ١ ص ؟ الترجمة العربية •

فهل ننكر بعد ذلك أن علم الكلام الاسلامي تأثر بعلم اللاهوت المسيحي • اننا اذا لم نتأثر بالأصدقاء نتأثر حتى بالأعداء • وليس عيبا أن يصيبنى من عدوى بعض الشيء •

الظاهر أن الجدل المسيحي في مسألة صفات الله هو الذى أفضى الى مناقشتها عند المسلمين ان المقارنة في علم العقائد وفي الفلسفة بالذات منهجية حديثة بعض الشيء نلتزم شروطا أسلوبية هي شروطها الخاصة بها • فلم يزل علم الكلام في طريقة طرحه للمسائل مطبوعا بأصول مسيحية واسلامية ويونانية مصطبغة بعناصر شرقية • اختلطت وامتزجت وأنتجت علم كلام اسلامي وعلم كلام فلسفي •

ليتنا نتعلم من مصطفى عبد الرازق المنهج كما التزم به الباحثون في منهج مصطفى عبد الرازق قالوا انه اتبع منهجا في دراسة الفلسفة الاسلامية وكان مؤسسا لمدرسة في الفكر الفلسفي الاسلامي أنجبت أقطابا (١) حملوا لواء الدعوة الى المنهج الاسلامي الأصيل في دراسة الفلسفة • واذا كان اتباع مصطفى عبد الرازق ساروا على نهجه • فهل سار الشيخ على منهج أستاذه الامام محمد عبده ؟ كان محمد عبده صاحب دعوة اصلاحية • وكان يدعو الى الناحية العقلية في مجال الدين • قال في رسالته في « التوحيد » أنا لا أظن أن رجلا كابن حنبل كيسا فطنا يفهم الأمور يقول ان القرآن كلام الله غير مخلوق » (٢) •

كان الامام محمد عبده يدعو الى استخدام العقل • وان اختلف العقل والنص كان يقدم العقل على النص بدليل قوله « اذا نشأ نزاع بين العقل والمنقول ، فالى العقل يعود الحق بالحكم • هذا أصل لا يخالف فيه الا القليل من الناس ، هم قوم لا يجوز اعتبارهم » (٣) •

كان مصطفى عبد الرازق خير خلف لخير سلف • ومع ذلك نجد فروقا بينهما •

كان الامام محمد عبده أميل الى مذهب المعتزلة وكان مصطفى عبد الرازق أميل الى مذهب الأشاعرة ففي رأى مصطفى عبد الرازق مذهب

---

(١) من هؤلاء الأقطاب : نذكر محمود الخضيرى • محمد عبد الهادى أبو ريدة ، عثمان أمين ، على سامى النشار وغيرهم كثير •

(٢) جارديه\قنواتى : فلسفة الفكر الدين ج ١ ص ١٥٥ •

(٣) جارديه/قنواتى . فلسفة الفكر الدين جـ ١ ص ١٠٤ •

الأشاعرة هو المذهب الذى يتعبد عليه الملايين من المسلمين منذ انتصار المذهب الأشعرى وانتصاره فى المغرب العربى على يد ابن تومرت • يبدو أن مصطفى عبد الرازق كان يرى النصرة لمذهب الأشاعرة فى نهاية الأمر • فقد أخذ تلميذه الدكتور على سامى النشار وتلامذته من بعده يكتبون الكتابات المستفيضة عن المذهب الأشعرى • ومع ذلك كان موقف مصطفى عبد الرازق من الفكر الاسلامى بوجه عام ومن أستاذه الامام محمد عبده بوجه خاص أصدق من موقف أتباعه منه • ولذلك ليس ضروريا أن يكون الطالب تابعا لأستاذه • فمن حق الطالب أن يخالف أستاذه ومن واجب الأستاذ أن يوجه الطلبة • فقد كان هذا شأن مصطفى عبد الرازق مع أستاذه وأتباعه •

هذا ما قدمه لنا مصطفى عبد الرازق •• وسؤالنا الآن هذا ما قدمه الأسلاف لنا • فماذا نقدم نحن للحاضر وماذا سنقدم للمستقبل ؟

الجواب على سؤالنا رهن بجهدنا فى الوقوف على الماضى والنظر فى الحاضر والتطلع الى المستقبل •

د • جلال محمد موسى

الشيخ مصطفى عبد الرازق

بقلم

الدكتورة سعاد عبد الرازق

كلية البنات - جامعة عين شمس

فى قرية صغيرة من قرى الصعيد الادنى لمصر ، قرية أبو جرج مركز بنى مزار بمحافظة المنيا ٠٠ وفى بيت آل عبد الرازق ولد شيخنا الشيخ مصطفى عبـــد الرازق ، وكان ذلك فى حـــوالى عـام ١٨٨٥ م ويرجـع انتســـاب الشـــيخ وأهله الى (عبد الرازق) الذى كان على قضـــاء (البهنسا) حوالى عام ١٧٩٨ م ٠ والبهنسا بلدة على بحر يوسف كانت قاعدة ولاية كبيرة تسمى باسمها ، ولها ذكر مشهور فى تاريخ الفراعنة القديم ثم فى تاريخ المسيحية وكذلك فى تاريخ الفتح الاسلامى ، وهى تبعد عن بلدة الشيخ (أبو جرج) بنحو خمســـــة عشر كيلو مترا الى الغرب ٠٠ وكان أحمد عبد الرازق الجد الاول لمصطفى قد انتقل اليها لتولى كرسى القضاء ٠٠ ولذلك عرفت العـــــائلة فى ذلك الوقت « بعائلة القضاة » ٠

ومصطفى هو الابن الرابع بين سبعة أبناء وبنتين رزق بهم والده المغفور له حسن عبد الرازق (باشا)، الذى كان ممثلا لمديرية المنيا في مجلس النواب فى عهد الخديوى اسماعيل ، ثم فى مجلس شورى القوانين الذى حل محله طيلة ثمانية عشر عاما ، وكان له دور مرموق فى حركة الاصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى فى مصر فى الحقبة ما بين نهاية القرن الماضى ومطلع القرن العشرين ٠

قضى مصطفى عبد الرازق طفولته المبكرة فى قريته الصغيرة ، والتحق بكتابها وكان يناهز السادسة من العمر ، وهناك بجانب اخواته من أبناء القرية ، تعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئا كثيرا من القرآن الكريم ، وأظهر نبوغا وتفوقا ٠٠ فبادر والده بارساله الى الجامع الأزهر ليبدأ مرحلة جديدة وتبدأ مسيرته مع العلم وامدين ٠٠ وسنه حينئذ حوالى العاشرة ٠٠

ويجمع اخوان مصطفى عبد الرازق والذين عاصروه فى طفولته أنه كان مفطورا منذ بدايته على ما عرف به وما صاحبه فى مراحل حياته المختلفة

« كان أخى مصطفى أيامئذ يجتاز حالة نفسية مضطربة ، وهو كما هو من رقة فى الطبع وكمال فى الأخـلاق ٠٠ وعن ذلك يحدثنا أقرب أشقائه اليه ، وصديق عمره الشيخ علي عبد الرازق يقول :

« كان أخي مصطفى مطبوعا منذ الطفولة على فطرة رقيقة ، فهو

لا يحب الأذى ولا العنف ، وكان خلقه الحياء ـ والحياء خير كله ·· والرفق والحياء اذا استمكنا من نفس ـ كما استمكنا من نفسه ـ تولد عنهما من الفضائل ومكارم الاخلاق ما يرفع الى أسمى الدرجات » ·

وقد بدأت دراسة مصطفى عبد الرازق فى الأزهر على مشـــــايخ ازهريين أقحاح ·· وقد تأقلم معهم وتشبع منهم منذ السنين الاولى ، فغلب عليه الطابع الأزهرى لانه أحب شيوخه الاولين واحترمهم فصاروا بالنسبة اليه مثلا يحتذى ·

سارت عجلة العلم بشيخنا فى دراسته الأزهرية حتى تجاوز المراحل الأولى والوسطى ·· ولما أشرف على مرحلة المنتهين ـ وكان قد تجاوز سن الصبا الغافل وخطا نحو مشارف رجولة واعية حساسة متفتحة العواطف قوية النزعات ـ أخذت تتراءى لعينيه ما تنتج أشجار الدراسة فى الأزهر من ثمار ·· ولعله يكون قد ذاق شـــيئا من طعم هذا الثمر ولم يجده سائغا ··

وتترك شقيقه على عبد الرازق يصور لنا هذه المرحلة الدقيقة من حياته ، ويمهد للقائه بالاستاذ الامام الشيخ / محمد عبده فيقول :
عرفناه يمتاز باحساس بالغ الرقة ، وعاطفة كاملة القوة ، فلا غرو أن كان مالقيه من الحيرة والقلق شديدا ممضا ·· وفى غمرات هذا التردد الحائر التقى بأســتاذه الامام ·· وتعارفا فتآلفا ·· وآنس من جانب أستاذه نورا قد فتح عليه هدى فتوجه تلقاءه يلتمس عنده ما يضىء له الظلمة ويدفع عنه الحيرة ويأخذ بيده الى الصراط السوى ·· » ·

ولقد تأثر مصطفى أبلغ الاثر بشخصية الاستاذ الامام ، وطريقته فى الدعوة الى منهجه العلمى ، ومذاهبه الاصـــــلاحية وهى المحبة السمحة الواضحة ·· وبقى على وفائه لاستاذه بعد وفاته ، فكان دائم الذكر والود لاخوة الأستاذ الامام وأقاربه ·· ومقالاته فى مباحثه ومحاضراته عنه كثيرة لا يسهل حصرها ·· وقد كان من أثر تعلقه بالاستاذ الامام واعجابه به ، وعنايته بتتبع تاريخه وآثاره أنه عنى عناية كبيرة بتاريخ السيد جمال الدين الأفغانى أستاذ الشيخ محمد عبده ··

وقد كانت وفاة الأستاذ الامام فى الحادى عشر من يولية سنة ١٩٠٥ مفاجأة قاسية وصدمة عنيفة للتلميذ الوفى وفى الابيات التالية التى رثاه بها أبلغ دليل على تأثره وحزنه :

« ان قلبــا أصــفاك بالود حبــا
صــدعته بمــوتك الأيـــام »

« كان في هــذه الحيــاة رجــا
قد دفنــاه يــوم مات الامــام »

وكأنما شاء الله أن يمتحن مصطفى عبد الرازق فى العام التالى لوفاة أستاذه امتحانا آخر ، كان عليه أشد وقعا وأحد لذعا .. ذلك أن والده بدأ يشكو مرضه الاخير .. وقضى رحمه الله تعالى في الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٠٧ . وتعد هذه الفترة من أعصب الفترات فى حياة الشيخ .. وعنها كتب على عبد الرازق يصف حال أخيه قال :

« كانت سنة مليئة بالقلق والاضطراب ولا بد أن أثرها كان شديدا على أخى مصطفى بنوع خاص .. فقد كان المرحوم الوالد — فيما يظهر — يغمره بشيء من الايثــار ، ويحله من قلبــه محلا ممتازا ، دون أن يظهر تمييزه على اخوته فى شىء من المعاملة . بيد أنه كان فى أيام مرضه كثيرا ما يطلبه ليكون الى جانبه فى السفر والاقامة .. يجد فيه أنسا .. وعنده راحة واطمئنانا » .

ولم تكن هذه الشواغل المضنية لتعوق شيخنا عن مواصلة الجد فيما تعلقت به نفسه من الاستعداد لامتحان العــالمية .. فاتم هو واخواته الاستعداد له وتقدموا اليه فى سنة ١٩٠٨ ، فأداه فى ٢٥ يولية من هذه السنة بنجاح وتفوق ، ونال الدرجة الاولى وهى أرقى درجات العــالمية الازهرية فى تلك الايام .

ولقد قاده شغفه بالعلم الى ان يسافر الى فرنسا فى سنة ١٩٠٩ حيث عاش هناك ثلاث سنوات متتابعات تعلم خلالها الفرنسية وحضر دروسا فى الآداب وتاريخها فى جامعة السوربون .. ثم تحول بعد ذلك سنة ١٩١١ الى جامعة ليون ليشتغل فى دراسة أصول الشريعة الاسلامية ، كما حضر دروسا فى تاريخ الفلسفة وتاريخ الادب الفرنسى ، وتولى تدريس اللغة الأوربية فى « كلية ليون » .

ثم سافر مرة أخرى الى فرنسا فى سنة ١٩١٢ حيث بقى هناك حتى أواخر عام ١٩١٤ وأتم رسالة وتقدم بها لامتحان الدكتوراه فى الآداب موضوعها « الامام الشافعى أكبر مشرعى الاسلام » كما أخرج بالاشتراك مع المسيو برنار ميشــيل ترجمة دقيقة بالفرنســية لكتاب الشيخ محمد عبده عن العقيدة الاسلامية .

وعاد الشيخ الى القاهرة وتقلد عدة مناصب حكومية ، كان أولها موظفا في مجلس الازهر الاعلى سنة ١٩١٥ ، ثم مفتشا بالمحاكم الشرعية سنة ١٩٢٠ ، الى ان عين « أستاذا مساعدا » للفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول بالقـــاهرة سنة ١٩٢٧ فأخذ يشق سبيله سريعا في معترك التدريس بنجاح وتفوق أحلاه في الوسط الجامعي محلا مرموقا ٠٠ ولا شك أن منصب الاستاذ الجامعي كان أقرب ما شغل مصطفى عبد الرازق من مناصب الى قلبه ٠٠ وأقربها الى الاتفاق مع مواهبه التي كان عمله في غير مجال التعليم الجامعي ٠٠ يلقي عليها ظلالا تكاد تخفيها ٠

ولقد كان له في التعليم الجامعي أسلوب مميز لا يكاد ينهج غيره ٠٠ فالتعليم عنده لم يكن مجـرد القاء الدروس على الطلاب وتلقينهم اياها ٠٠ ولكنه عبارة عن صلة عقلية تربط بينه وبين طلابه ٠٠ فكان يشركهم معه في بحث الموضوعات واستنتاج نتائجها ٠٠ ومناقشة المســـائل وفهم النصوص وتحرير الآراء ٠٠ وهو في ذلك كله يراجعهم ويراجعونه ويعينهم ويعينونه ٠٠ فكلهم كلهم أستاذ ٠٠ وكلهم كلهم طالب ٠٠ وهكذا يصير درسه مجتمعا تتقارب فيه الارواح ٠٠ وتتآلف النفوس ٠٠ وتنبت في جنباته عواطف الصدق والولاء والاخلاص ٠

وبهذا المنهج الجامعي المنفرد كان — رحمه الله — يربي طلبته يحبهم ويحبونه ينشـأون على ما عودهم اياه من سنن العلماء وآدابهم ومن الجد في طلب العلم لذاته والمثابرة عليه ٠٠

وكان متصلا بذلك حبه للقراءة حبا يكاد يطغى على كل هواياته ، وكان نتيجة شغفه بالقراءة أنه صـار شغوفا باقتنـاء الكتب وجمعها على اختلاف مشاربها ٠ وكان شديد العناية بهذه الكتب وترتيبها وفهرستها وأصبحت مكتبة (آل عبد الرازق) تعد واحدة من أعظم المكتبات العلمية بالقاهرة ٠٠ وصارت ملتقى لطلبته من أبناء الازهر ، والجامعة ، والباحثين في كل فرع من فروع العلم والمعرفة ، ويقال ان معظم الأساتذة في جامعات القاهرة كانوا اذا عادوا بعد اتمام دراستهم في أوروبا يعدون دروسهم في بيت الشيخ مصطفى على اختلاف تخصصاتهم في الادب أو في اللغة أو في الفلسفة ٠

وقد استطاع مصطفى عبد الرازق — منذ كان طالبا بالازهر وحتى آخر أيامه — أن يصل حبال التعارف والتآلف بينه وبين كثير من الناس في شتى مجالات الحياة ، ومن مختلف المذاهب واللهجـات والأديان ، وأن يكسب قلوب كثير منهم ، وأصبح بيته مثابة لوفودهم يجتمعون فيه ، كما

يجتمع فيه غيرهم من أصدقاء العائلة وزوارهم ، وفيهم المسلم والمسيحي والمشرقي والمغربي .. الخ . وبذلك صار بيته في القاهرة ندوة يقصدها أهل العلم والادب من أهل مصر والوافدين عليها ، يدور الحديث فيها ، حول أطراف من الدين أو الأخلاق أو الفلسفة أو السياسة .

لا جرم أن هذه الندوة قد أمدت النهضة المصرية بلون طريف من العلم والأدب .. وأظهرت بين المصريين طائفة ذات طابع خاص من الثقافة، يمتزج فيه القديم بالحديث ، وتتآلف عنده الفلسفة والدين ، وتتفتح في رحابه آفاق البحث ، وتنطلق تحت ظلاله مذاهب .. ولا شك أن الذى مكن لمصطفى عبد الرازق أن يكون مدار هذه الحركة وقطبها ما جبل عليه من خصال وما اكتسب من ثقافة متعددة الجوانب ، وما ركب في طبعه من نظر ذكي وفطرة سليمة .. وأصدق من عبر عن هذا المعنى زميله وصديقه المرحوم طه حسين حين قال عنه : « كان وفيا ، وكان أبيا . وكان سمح الطبع والنفس والقلب . لم أره قط يخرج عن هذه الخصال منذ عرفته ، الى أن فرق بيننا الموت . وكان لهذه الخصال كلها تأثير أى تأثير في حديثه اذا تكلم ، وفي فنه اذا كتب . لم يكن شيء قادرا على أن يغير من خصاله تلك شيئا .. كان سمحا في جميع أطواره ، وفي أطوار من حوله من الناس ، وما يحيط به من الظروف .. كانت الابتسامة الحلوة أول شيء عليه .. والحديث العذب ألزم شيء له » .

كان أقرب الى أن يكون الفيلسوف الكامل الذى رآه فيه تلميذه المرحوم الدكتور عثمان أمين ، وذلك الذى يكون بسلوكه ومنهجه في الحياة تجسيدا لمذهبه الفكرى وفلسفته الأخلاقية .. وكذلك كان مصطفى عبد الرازق يمارس في حياته الخاصة ما يدعو اليه طلبته من فلسفة أخلاقية جوهرها الفن الاسمى فن تهذيب الارواح ، والذى استمد جذوره من تعاليم الاسلام التى قدمت للبشرية أروع صور السماحة والتضحية ..

وقد يكون ذلك تفسيرا لقلة ما تركه مصطفى عبد الرازق من آثار مكتوبة اذا قورن بما ترك غيره من مؤلفي عصره ومفكريه .. فقد كانت حياته في الأزهر وفي الجامعة وفي الوزارة ، وفي منتديات الفكر والأدب .. كلها تشكل سفرا ضخما عظيم الشأن .. هو أبلغ تراث ورثه مصطفى عبد الرازق لأبنائه وذويه ..

وكأنه شاء سبحانه أن تتحقق نبوءة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده حين قال عن الأزهر بعد استقالته منه سنة ١٩٠٥ م « الا أنني ألقيت

بين جوانح هذا المكان شعلة لا تنطفىء ·· وان لم تلتهب اليوم أو غدا ، فستلتهب فى ثلاثين عاما وستكون ضراما » ·

فقد عين تلميذه وأقرب حواربية الى نفسه (مصطفى عبد الرازق) شيخا للجامع الازهر فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥ ·· واذا لم تكن ولايته للأزهر الشريف قد امتدت لأكثر من عامين فما أصعبها الا أنها كانت تتويجا لحياة عامرة بالعمـل الدؤوب ، والسعى المبـارك من أجل الخير والاصلاح والكمال ·· بدأت من الأزهر وانتهت اليه ··

وكأى عالم أو عظيم ·· دبرت له المكائد ·· وحيكت حوله المؤامرات وكان رقيق القلب جياش العاطفة ·· فهان على الروح الناصعة والنفس المطمئنة أن تصعد الى بارئها راضية مرضية ·· وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من فبراير سنة ١٩٤٧ بعد أن ذهب فى الصباح الى الازهر كعادته ·· ورأس المجلس الاعلى للازهر الى ما قبل العصر بقليل ، ثم عاد الى منزله ·· ليتوضأ ويصلى وأخذ يغير ثيابه ، فشعر باعياء وهبوط ، فأوى الى فراشه ودعى الطبيب لاسعافه ·· وما أن لاحظ اضطراب الطبيب الشاب وجزعه ·· علم أنها النهاية لا محالة ، فالتفت ناحيته مبتسما مهدئا روعه وهمس اليه :

« هون عليك يابنى ·· لقد فعلت ما بوسعك ·· والى الله حسن المآب » ونفذ قضاء الله ولا مرد لقضائه ·

هذا هو مصطفى عبد الرازق الامام والمعلم والوالد ·· ألا رحمة والله ورضوانه عليه ···

سعاد عبد الرازق

الفكر الديني عند
الشيخ مصطفى عبد الرازق

بقلم

علي عبد الفتاح أحمد

يحتل الشيخ مصطفى عبد الرازق مكانا بارزا فى الفكر الاسلامى المعاصر ، اذ كان صاحب رســالة من أجل الرسالات ، فهو على الرغم من أنه (لم يدون مذهبا فلسفيا بالمعنى الضيق الذى يقصده الكتاب حين يتحدثون عن مذاهب الفلاسفة أو (أنساقهم) الا اننا مع ذلك نستشف من خلال مؤلفاته وأحاديثه بل من خلال حياته كلها فلسفة انســــانية زاخرة بالمثل العالية الباقية مثل الحق والخير والجمال تلك التى تهدى الناس فى كل زمان ومكان الى اصلاح النفوس وارتقاء المجتمعات) (١) ولقد تعددت نواحى العظمة فى شخصية الشيخ مصطفى . فتجده رجل دين ورجل فكر، وأديبا ومصلحا اجتماعيا ، ورسولا من رسل الوعى الانسانى الذين لم تعدم البشرية وجودهم عبر التاريخ · والذين يهدون البشرية بسلوكهم وفكرهم الى الطريق المستقيم ·

والناظر فى فكر الشيخ مصطفى يجد نفسه ، وسط رياض يانعة من رياض الفكر ، بحيث لا يستطيع أن يميز بينها ، أو يفضل احداها على الاخرى ، وسنحاول فيما يلى أن نلم بأحد هذه الاطراف ، ونتعرف على الجانب الدينى فى فكر الشيخ مصطفى ، وذلك لأهمية هذه الجانب فى حياة الانســـان « ففى الطبع الانســـانى جوع الى الاعتقاد كجوع المعـــدة للطعام » (٢) وكذلك يمثل هذا الجانب أهمية خاصـــة عند الشيخ مصطفى فهو رجل دين وفكر على السواء ، وعلاوة على ذلك فلقد كان داعية دينية من طراز فريد ، يدعو الى العودة بالدين الى ينابيعه الاولى الصافية ، السمحة البسيطة ، وكان له مؤلفه القيم عن (الدين والوحى والاسلام) عرض فيه بمنهج علمى وبأسلوب أدبى شرح هذه المفاهيم الثلاثة ، وسوف نوجز رأيه فى تحديد هذه المفاهيم ·

تعريف الدين : ــ

يعرض الشيخ مصطفى فى دراســــــته للدين ، لتعريفه وتحديد الخصائص التى تميز كل دين ، وذلك على أســاس منهجه التحليلى الذى

---

(١) الدكتور عثمان امين   بحث مجلة تراث الانسانية عدد نوفمبر ١٩٦٥ ·

(٢) عباس محمود العقاد : الله وهو كتاب فى نشأة العقيدة الالهية ·

يرد الشيء الى عناصره المكونة له في أبسط صورة · ولقد بدأ في بحثه بالمعنى اللغوي لكلمة « دين » باعتبار ان اللغة مظهر التفكير الانساني دينيا أو غير ديني ، ويعرض رأى القدماء والمحدثين من الغربيين والعرب في تفسير معنى كلمة (دين) ·

وتتابع الشيخ مصطفى عرضه لمختلف وجهات النظر في أصل الدين، ويذكر تعريفات « دوركايم » واعتراضات « لالاند » على هذه التعريفات · ثم يخلص بعد هذه العرض الى وضع تعريف محدد يتسع لهذه المذاهب كلها ، وهو تعريف (جامع مانع) بلغة المناطقة · ويذكر هذا التعريف العام فيقول (هو المعنى القائم على ان الدين والايمان بأن الموجودات كلها ليست من نوع واحد ولا في مرتبة واحدة بل بعضها أسمى من سائر الانواع ، أو هو الايمان بذلك بشرط ان يكون ملة تجتمع على الاخذ بها أمة من الناس) (١) ·

وهناك معنى خاص للدين ، وهو الذى قرره القرآن باعتباره وحيا من الله الى أنبيائه لهداية الناس (فان القرآن قرر فى أمر الدين أصولا جعلت للدين معنى شرعيا خاصا ، فالدين لا يكون الا وحيا من الله الى أنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله) (٢) ·

الوحي : ـ

الوحى ظاهرة هامة صاحبت الاديان وتوقفت عليها نشأتها ، ولقد درس الشيخ مصطفى ظاهرة الوحى دراسة قيمة ، بين فيها أصل كلمة « وحى » من الناحية اللغوية من حيث انها تعنى الاسرار والاعلام فى الخفاء ، وأصل مادة الوحى هو السرعة والخفاء معا . ومعناه فى القرآن (ايحاء الله الى انبيائه ورسله أى القاؤه اليهم ما يريد أن يعلموه من المعارف الدينية) (٣) · وعبر عن الروح السائدة في كتب أهل السنة في تفسير الوحى ، وانها تنزع غالبا الى تصوير الملك والوحى بصور مادية (٤) ·

وبين تفسير الفلاسفة الاسلاميين للوحى على أنه اتصال النفس

---

(١) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والاسلام ص ١٢ ، ١٣
(٢) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والاسلام ص ٢٩ ، ٣٠
(٣) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والاسلام ص ٥١
(٤) مصطفى عبد لرازق : الدين والوحى والاسلام ص ٥٧

الانسانية بالنفوس الفلكية اتصالا معنويا (وليس عندهم فرق بين الوحي والالهام الا أن الاول يكون للنبي والثاني للعـــارف) (١) ٠ وبين رأي الصوفية في الوحي ، فهو تلقي النبي للشرائع الالهية بواسطة ملك (٢) ٠ وذكر رأي ابن خلدون في الوحي ، وأنه اســتعداد في النفس البشرية للانسلاخ من بشريتها والانضمام الى الملكية « جنس الملائكة » وأصحاب تلك النفوس هم الأنبياء (٣) وانتهى من هذه الدراســة للوحي ، بذكر رأي استاذه الامام محمد عبده في الوحي ، بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من فعل الله بواسطة أو بغير واسطة والاول ــ بصوت يتمثل بسمعه أو بغير صوت (٤) ٠

مثال للدين القائم على الوحي ــ « الاسلام » ٠

بدأ بمناقشة المعنى اللغوي لكلمة « اسلام » ، وذكر جملة آراء عديد من المفسرين ، والتي ترى أنها عبارة عن الدخول في السلم والانقياد أو المتابعة ، وتعني أيضا اخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ، ثم ذكر آراء المحدثين من المستشرقين ، وهم يرون ان اسم « اسلام » يرجع الى معنى من الطاعة والخضوع غير ارادي ، أي التسخير لارادة قاهرة ٠ وذكر رأي « سيد أمير علي » الذي يعارض به رأي المستشرقين ، ويتصور أن المعنى الشرعي للاسلام ، هو تحري الرشد وتزكية النفس وذلك يعني الطاعة الارادية وليس الانقياد الاعمى ثم يدحض آراء « ادوارد رسل » في أن جملة ما ورد في القرآن من لفظ « الاسلام » وما أشتق منه يؤديان معنى الانقياد الظاهر والطاعة بالجوارح فقط ، ويرى الشيخ مصطفى أن هذه الآراء لا تقوم على أساس ، لان ما ذكر في القرآن من لفظ « اسلام » وما اشتق منه مقابلا للايمان ومخالفا له ــ بحيث يدل الاسلام على العمل الظاهر والايمان على التصديق ــ لا يعدو ثلاث آيات أو أربع آيات ، أما اجماع المفسرين على استعمال الاسلام في معنى آلي فغير صحيح لكل مطلع على التفاسير المختلفة للقرآن ٠

ويخلص الشيخ مصطفى الى الرأي الراجح في نظره ، بأن المعاني اللغوية من مادة « سلم » على اختلاف الفاظها وصيغها والمعاني الحقيقية

---

(١) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحي والاسلام ص ٧١
(٢) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحي والاسلام ص ٧٦
(٣) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحي والاسلام ص ٧٨
(٤) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحي والاسلام ص ٨٠

المتولدة عنها تعني الخلوص من الشوائب الظاهرة والباطنة وتعنى الصلح والأمانة وتعنى الطاعة والاذعان ٠ وفعل (اسلم) كذلك يدل على الدخول في السلم بمعنى الطاعة ، ومعنى (الاسلام) صالح للدلالة على كل هذه المعانى السابقة ٠

الاسلام والايمان : -

اختلفت الفرق الاسلامية في معنى الايمان والاسلام ، فمنهم من رأى انهما مختلفان في المعنى ، بينما رأى غيرهم انهما متفقان في المعنى والاسم وانهما واحد ، ويعلق الشيخ مصطفى على هذا الخلاف بقوله « فالخلاف على هذه المسألة انما هو في الحقيقة من تمحلات الفرق والتماسها دقائق البحث اندفاعا وراء جموح النظر ، فهو مصطنع اصطناعا) (١) ٠

يرى ان هؤلاء قد أخطوا عندما أرادوا ان يلتمسوا أدلة من القرآن على آرائهم ، فانتهوا الي أن جعلوا للاسلام معانى مختلفة عن الايمان ، ولكنه يرى انهما متفقان ٠ ودلل على صحة رأيه بأدلة أولها (ان القرآن يقرر ان الدين واحد على لســـان جميع الأنبيـاء وهو الايمـان بما يجب الايمـــان به ، وانما مختلف الشرائع أى الاحكام العملية) (٢) ٠

وثانيها : هو تفســير الآيات التي وردت فيها صيغة اســلام ، وقد استعرض آراء المفسرين في هذه الآيات (وأن الاسلام فيها هو التوحيد واسلام الوجه لله ٠ وذلك يقتضى أن لفظ اســلام لم يرد في القــرآن الا مستعملا في معناه الشرعى مرادفا للايمان) (٣) ٠

وثالثها : ان القرآن سمى اتبــاع دين محمد (الذين آمنوا) وفي ذلك الشعار بأن معنى الايمان والاسلام متفق غير مختلف (٤) ٠

ويرجع رأى الشيخ مصطفى فى اتفاق الايمان والاسلام الى رأى الكثير من أهل السنة ، وخاصة أبى منصور الماتريدى (٥) ٠

ويتجلى عمق نظر الشيخ مصطفى فى رأيه في مكانة الاعمال البدنية

---

(١) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والاسلام ص ٩٤
(٢) نفس المرجع ص ٩٦
(٣) نفس المرجع ص ١٠٠
(٤) نفس المرجع ص ١٠٠
(٥) أبو منصور الماتريدى : التوحيد ص ٣٩٣ وما بعدها ٠

فى الدين (فالاعمال البدنية نفسها لا يكون لها اعتبار فى دين المسلمين بحسب صورها الظاهرة وانما هى معتبرة بالنيات والهيئات النفسانية التى هى مصدرها ، وفى القرآن (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ٠٠٠ ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث هو أحد الاحاديث التى عليها مدار الاسلام ٠٠٠ وهذا الحديث هو « انما الاعمال بالنيات ولكل أمرىء مانوى » فالاعمال الخالية من الايمان ليس لها أدنى اعتبار ، فالايمان شرط لصحة هذه الاعمال ، وليست طاعة الجوارح الظاهرة التى تفتقر الى النية تسمى طاعة ٠

الفلسفة والدين (العقل والنقل) :ــ

من المشكلات التى تواجه الانسان هى كيف يستطيع التوفيق بين معتقده وبين عقله وكيفية المواءمة بينهما ، واذا كان الدين يقوم على الايمان الذى هو التصديق ، فهل يتعارض مع العقل الذى يقوم على الاقناع ؟ ولقد شغلت هذه المشكلة الباحثين من كل ملة ودين ٠ ذلك لان التوفيق أمر طبيعى ليحقق الانسان الانسجام بين معتقده وبين عقله والفكر الاسلامى زاخر بمثل هذه المحاولات وروح الدين الاسلامى وتعاليمه تدعو الى الاخذ بالوسط فى كل الامور ٠

ولقد عرض الشيخ مصطفى لبيان هذه العلاقة عند المسلمين ، فعرض لمحاولة الكندى فى التوفيق بين الفلســـــفة والدين (١) ٠ وذكر رأى الفارابى وابن رشد ولخص رأى الفلاســـفة فى التوفيق بقوله (والدين والحكمة عند هؤلاء الفلاسفة يفيض كلاهما عن واجب الوجود على عقول البشر بواسطة العقل الفعال ، فلا فرق اذن بين الحكمة والدين من جهة غايتهما ولا من جهة موضوعاتهما ولا من جهة مصدرهما وطريق وصولهما الى الانسان ، والفرق بين الفلسفة والدين عند الفارابى هو من وجه ان طرق الفلسفة يقينية ، أما طريق الدين فاقناعى ٠٠ ويرى ابن سينا : أن بين الدين والفلســفة فرقا آخــر هو أن وجهة الدين عملية أصالة ، ووجهة الفلسفة بالاصالة نظرية) ٠ (٢) والشيخ مصطفى يفرق بين طبيعة كل من الدين والفلسفة ، فطبيعة الدين تقوم على الايمان والتصديق ومصدره القلب ، وطبيعة الفلسفة تقوم على النظر والفكر ومصدرها العقل ، لذا فهو يرفض أن تكون الفلسفة خادمة للدين وأن تتخذ وسيلة

---

(١) مصطفى عبد الرازق فيلسوف العرب والمعلم الثانى ص ٤٧
(٢) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والاسلام ص ٣٥ ، ٣٦

لتأييده ، لأن ذلك يضر بالفلسفة والدين على حد سواء (أما ضرره بالدين فلانه يعرض عقائده وهي عواطف قدسية تتأثر بها النفس كما تتأثر بلهجة الجمال لمناقشات العقل ومناقضاته وانك لترى عقائد الدين في سذاجتها كانت تملا صدور الناس فلا تدع فيها موضوعا لغير الله حتى ليهتف هاتفهم وهو يترامى الى الهلاك والرماح شاجرات :

ولست أبالي حين أقتل مسلما
على أي جنب كان في الله مصرعي

كان ذلك البدوى يعتقد بدينه كما يحب ابنه ، فأنت سائل أبا : لم تحب ولدك ؟ ولما صارت عقائد الدين فلسفة تكتسب بالادلة وخرجت عن حكم المشاعر القلبية الى حكم النظريات العقلية ، وجد في خيار المؤمنين من يقول :

كل يعزز رأيه
ياليت شعرى ما الصحيح (١)

فحقائق الدين كما يراها الشيخ مصطفى عاطفة قلبية تعنى التسليم والتصديق ، وتملا نفوس معتنقيها وتدفعهم الى التضحية والفناء من أجلها ، أما محاولة البرهنة والاثبات العقلي ، فانه يوقع هذه الحقائق فى دائرة الجدل والمتناقضات العقلية ، مما يفسد جمالها وجلالها . (وأما ضرره بالفلسفة فلانه يحدد لمقدماتها نتائج تقليدية ويجعل بحثها عن الحقائق موجها الى غاية هي تأييد الدين فتأخذ هي أيضا شكلا دينيا مقدسا لا يتناسب مع حرية البحث والنقد) (٢) .

وليس معنى ذلك ان الشيخ مصطفى يرى أن هناك تعارضا بين الدين والفلسفة ، بل هو يرى ضرورة اتفاقهما وتعاونهما لاسعاد الانسان ، ولكنهما طريقان متمايزان يتفقان فى الغاية ، ويتعاونان على تحقيقها ، ولكن للدين طريقته ودعامتها القلب ، وللفلسفة طريقها ودعامتها العقل . فيقول موضحا تلك العلاقة (أن أقصى أماني الدين والفلسفة ان يتعاونا على اسعاد الإنسان هذا من طريق القلب والعواطف ، وهذا من طريق العلم والنظر ، لا ان يتلاقيا فى ميدان واحد وجها لوجه) (٣) . وبهذا لا يكون هناك تعارض بين الدين والعقل ، طالما أنهما يتعاونان على تحقيق

---

(١) مصطفى عبد الرازق: آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٢٥
(٢) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٢٥
(٣) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٢٥

غاية واحدة ، هي اسعاد الانسان ، واذا لم يكن هناك تعارض بينهما ، فان للعقل دورا ومكانا في الدين ٠

دور العقل في الدين : ـ

يرى الشيخ مصطفى ان الدين له جانبان ، الاصول التي لا تتبدل والشرائع العملية التي تتفاوت بين الانبيـــــاء وهي هدى مالم تنسخ (والاسلام جمع بين الدين والشريعة ، أما الدين فقد استوفاه الله كله في كتابه الكريم ، ولم يكل الناس الى عقولهم في شيء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادي تفاصيلها) (١) ٠

لذا فان القرآن قد نهى المسلمين عن الجدل في الامور الاعتقادية الا عند الحاجة وعلى مقدارها من غير ان يشجع المسلمين على المضى فيه ، ودعا القرآن الى الاخذ في هذا الجدل برفق عند الحاجة الى الجدال ، والقرآن قد ذكر الحكمة واثنى عليها وشجع على نموها ، ويشرح الشيخ مصطفى المقصود من الحكمة التي شجع عليها القرآن فيقول (هي الحكمة بمعناها اللغوي ، أي العلم النافع والفقه في شئون الحياة بتعرف الحق وامضائه ٠٠٠ والنظر فيما ورد في القرآن والسنة من استعمال كلمـــة (الحكمة) يدل على أن المراد بها العلم الذي يتصل بالعدل) (٢) ٠

ولقد أكد الدين دور العقل في المسائل الشرعية العملية ، ودعى اليه (وقد ورد في الكتاب والسنة والثناء على الحكمة والحكم والتنويه بفضلهما ، فمهد بذلك لانتعـــــاش النظر العقلي في الشـــــئون العملية) (٣) ٠

ويؤكد الشيخ مصطفى رأي الدين واقراره بحرية الفكر ومكانة العقل ، ويؤكد هذا المعنى بقوله (قد تنبهت العقول وزالت غشاوة الغفلة عن بصائر الناس ففهموا ان الدين ليس غلا للقلوب ولا قيدا للافكار ، ولكن الدين كما يقول الشيخ محمد عبده ، قد كفل للانسان أمرين عظميين طالما حرم منهما ، وهما استقلال الارادة واستقلال الرأي والفكر وبهما كملت انسانيته واستعد ان يبلغ من السعادة ٠ ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها) (٤) ٠

---

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاســـلامية ص ١١٣ الى ١١٤
(٢) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاســـلامية ص ١١٨ ـ ١١٩
(٣) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٢٢
(٤) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ٥٠١ ـ ٥٠٢

ونوجز القول بأن الشيخ مصطفى يرى ان للعقل دورا في الدين ، وأن مجـــال العقل خاص بالشرائع العمليـــة . انمـــا هو ابعـــاد العقل عن الجدل في الامور الاعتقادية التي تقوم على التسليم لا على الجدل . والتي لا سبيل له الى معرفتها معرفه كاملة وادراك حقيقتها ، وليس في هذا انكار للعقل ، او أن الايمان خال من العقل ، بل ان العقل باستطاعته أن يعلم بضرورة الايمان ، وبوجود كامل أبدى ليست له حدود ، والموجود الذى ليست له حدود لا يحيط به ادراك العقل المحدود . فالايمان القائم على التصديق والتسليم ، لا يخلو من معرفة وعلم ، والعقل هو طريق الى معرفة الدين (وان الذين يفكون العقول من أغلالها انما يمهدون لها السبيل الى الحق ، وللدين من آسمى الحقائق في هذا الوجود) (١) .

تطهير الاعتقاد ومحاربة البدع والضلالات : ـ

لقد آمن الشيخ مصطفى بأن العقل المستنير والدين المليء بالاساطير لا يجتمعان في دماغ واحـد ولقد أحدث ثورة على الجمـود الفكرى ودعا الى تطهير المعتقدات الخاطئة ، حتى يتوفر للانسان صحة الاعتقاد واستقامه السلوك ، ويعود المسلم الى بساطة الدين في اعتقاده دون مغالاة ، والى سلوك المسلمين في عهدهم الاول ، فعارض الغلو في كرامات الاوليـــاء واتخاذهم وسيلة الى الله لقضاء حوائجهم ، وهذا الاعتقاد فاسد ، لان الاسلام لا يقر واسطة بين العبد والرب ، ويقر بأن الصلة مباشرة بين الانسان وخالقه ، ولقد عارض الشيخ مصطفى هذا الغلو والاسراف في اعتقاد الناس بكرامات الاولياء (٢) . وعارض اعتقاد الناس بالجن وتأثيرها في حياتهم .

كما عارض ما يضيفيه الناس على بعض الاماكن من قدسية ومعان ومعتقدات دينية ، فيعلق على الاخبار التي يرويها الرواه من أحاديث وآثار عن نهر النيل باعتباره نهرا من انهار الجنة فيقول (تلك معان من العواطف والعقائد كانت تتناسب مع حال الانسانية في غرارتها وطفولتها وقد ارتقت عواطف الناس الى درجة أكمل من هذه فأصبحوا يجدون في الجبال والأنهـار ونحوها وما يتصـل بربوعهـم ومنازل أقوامهم معانى وطنية شريفة) (٣) .

---

(١) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ٥٠٢

(٢) مصطفى عبد الرازق : محمد عبده ص ٣١ ـ٣٢ ونظر أيضا آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٠٠

(٣) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ٣٦١

وعرض الشيخ مصطفى لبعض العادات الاجتماعيه التى نشيع فى المجتمع ، وتأخذ صبغة دينية ، حتى وقع فى ظن البعض انها من الدين ، وذلك بالرغم من خطئها • ومن تلك العادات الفاسدة ـ تقبيل الايدى كمظهر لاحترام رجال الدين ، ويقول معلقا على هذه الصورة السيئة (وأن أولئك الذين يمدون أيديهم طويلة الى الافواه لينشروا جراثيم المرض ويبذروا معها بذور الذلة فى أنفس طيبة ساذجة) (٤) •

وعرض للعادات السيئة التى يحيى الناس بها المواسم الدينية ، وما يقترف فيها من اخطاء ، وأن اعيادنا تأخذ صبغة واحدة متشـــابهة لا تمايز بينها (١) •

وهذه نماذج لمحاربة الشيخ مصطفى للمعتقدات الخاطئة والعادات السيئة ودعوته الى تطهير الاعتقاد ، ونســـتطيع ان نلخص دعوته فى محاربته للبدع والعادات السيئة• أنه يرمى الى تطهير الاعتقاد من المغالاة والاوهام ، وتخليص العقل من الجهل والخرافات ، ويرمى الى تقويم السلوك بالتخلص من تلك العادات السيئة ، فهى وجهة اصلاحية ، وبذا يتوفر للانسان صحة الاعتقاد واستقامة السلوك ، ويعود المسلم الى بساطة الدين فى اعتقاده دون مغالاة ، والى ســلوك المســـلمين فى عهدهم الاول •

الدين والحياة : ـ

الدين ينظم علاقة الانسان بخالقه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بأخوانه من أفراد الانسانية لذا فهو وثيق الصلة بالحياة ، والدين يواكب الانسان فى حياته ويهديه ويرشده ، فهو يؤهله للحياة الاخرى ، كما يؤهله فى الحياة الدنيا التى هى طريق الســعادة فى الآخرة ، فالدين ملازم للحياة من حيث انه يضع دستورها ، والانسان يجد فيه الزاد فى حياته والنور الذى يهديه الى الطريق المستقيم • وهو بالجملة كما يقول الشيخ لا يريد بحرية الناس وسعادتهم فى بيوتهم الا خيرا) (٢) •

ولقد أوضــح الشيخ مصطفى مكانة الدين ودوره فى المجتمع وأثره فى حياة المجتمعات ونظامها فيقول عن مكانة الدين فى المجتمعات الشرقية

(٤) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ٢٥٤

(١) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٥٢

(٢) نفس المرجع ص ٣٣٠

(وليس معنى هذا اننا نجهل مكان الاديان فى الشرق ، باعتبارها عنصرا من أقوى العناصر المؤثرة فى حياة الجماعة ونظام الاخلاق بل فى تكوين الذوق وتربية الفكر ، وشئون الاقتصاد) (٣) بل ان الدين له أثره فى تكوين نفسية الشعوب ونهضتها الفكرية والاجتماعية ، وانه لا يمكن دراسة تلك المظاهر بمعزل عن معرفة أديان تلك الشعوب التى تتغلغل روحها خلال ذلك كله فيقول (نحن نعلم انك لا تستطيع ان تفهم نفسية شعب من الشعوب ، خصوصا فى الشرق ، حتى تعرف مزاجة الدينى ، ونعلم ان الذى يحاول ما نحاول من تعارف الامم الشرقية وتساندها فى النهوض الفكرى والاجتماعى لا بد له من دراسة ما فى الشرق من ملل مختلفة ونحل ، مع العناية بتعرف تطوراتها وآثار هذه التطورات فى الجماعة) (١) .

ولما كان للدين هذه المكانة فى الامم والشعوب ومظاهر النهضة والحضارة فيها ، فلا بد من توقية ذلك الشعور الدينى لمكانته وأهميته ، لذا ترى الشيخ مصطفى دذاعيا الى تقوية الشعور الدينى فى الامة فيقول (واننا لنشفق على هذه الامة ان يضعف شعورها الدينى وشعورها الوطنى معا) (٢) .

والدين له دوره فى حياة المجتمعات وليس بمعزل عن الحياة ، بل هو وثيق الصلة بها ، وله رسالته فى تنظيم حياة الجماعة ومسايرة تقدمها وتطورها ، وبذا يبعد عن الجمود والتخلف ، وقد ترك الدين للناس أمر تنظيم حياتهم وفقا لتعاليمه الاساسية ، وأن باب الاجتهاد مفتوح أمام أصحاب النظر والرأى . وان ضيق النظر وسوء الفهم للدين ، يجعل الناس يتمسكون بمظاهر ليست من الدين ، وينأى بهم موقفهم هذا عن التقدم ، وذلك لفصلهم الدين عن الحياة ، فى حين أن الفهم الصحيح للدين لا يعارض التقدم فى تلك المظاهر الاجتماعية ، من حضارة وعمران، ويقول الشيخ مصطفى موضحا ذلك (يظهر آن كل ما يتصل بالدين من الشؤون الاجتماعية يكون بطيئا عن متابعة الحركة السارية فى أجزاء العمران . ذلك بأن هذه الشؤون وان لم تكن بميزاتها دينا فان اتصالها بالدين على أى وجه يكاد يجعلها مقدسة لا تقبل تغييرا الا بوحى منزل من السماء) (٣) .

---

(٣) نفس المرجع ص ٤٩٧
(١) مصطفى عبد الرازق آثار مصطفى عبد الرازق ص ٤٩٨
(٢) نفس المرجع ص ١٧٣
(٣) نفس المرجع ص ٢٤٩

ويؤكد في موضع آخر عدم معارضة الدين للتقدم الاجتماعي ، شارحا أسباب التخلف الاجتماعي ، بسبب سوء الفهم للدين وضيق النظر فيقول (كأننا أنشأنا نشعر في هذه البلاد بأن المصالح المنتسبة الى الدين في حياتنا الاجتماعية تخلفت تخلفا عظيما عن خطواتنا في سبيل الرقي ، وان كانت خطواتنا في هذا السبيل عرجاء) (٤) .

وهو يدعو الى ان يتمسك الناس بأصالة القديم والنافع منه ، وما يصلح أن يكون أساسا قويا لحياتنا ، وليس في هذا مصادمة للجديد وأعراض عنه ، ويبين ان لا تعارض بين القديم النافع والجديد النافع ، فيقول (وكل ما نرجوه لهذه الامة هو أن لا يسوء ظنها بالحديث وأن لا تحتقر القديم ، فان مجدها المأمول يقوم على الأخذ بالحديث واحترام القديم) (١) .

فليس ثمة تعارض بين الدين والأخذ بمظاهر الحضارة والتقدم الاجتماعي ، ومعارضة الجديد باسم الدين لا تقوم على أساس من الفهم الصحيح للدين ، وفي هذا يحاول الشيخ مصطفى أن يوفق بين القديم والحديث الذى لا يتعارض مع أساس الدين ولا يجافي مقاصده ولقد كانت رسالته الاصلاحية تقوم على التوفيق بين القديم والحديث (ولقد أعد لها أعدادا قل ان يعد مثله رجل آخر واستطاع ان يحسن أدائها بحكمته وذوقه وتسامحه ، فبهذه الحكمة أمكن أن يتخير من بين تلك الصور المتنافرة أكثرها انسجاما وأقربها الى التوافق وبذوقه الممتاز أمكنه أن يبين من صور القديم والجديد ما يكون لوحة أنسب ما تكون لمطالبنا وحاجاتنا . وبتسامحه استطاع التوفيق بين ما تنافر من ألوان القديم والجديد) (٢) .

فالدين كما يراه الشيخ مصطفى لا يعارض مظاهر الحضارة من علم وفن وتاريخ لاهمية ذلك في حياة الانسان ، ونراه يعارض آراء هيئة كبار العلماء وآراء المذهب الوهابي حول تلك الموضوعات ، فيقول معارضا ذلك الجمود وضيق النظر (ولقد نرم بدين هيئة كبار العلماء الذى يدفع بالكفر كل نزوع الى العلم والفهم والذوق ، فلما جاءنا دين أهل نجد يهدم على من فيها قبابا قد تكون آثارا فنية وتاريخية ، يعرف خطرها أعل

---

(٤) نفس المرجع ص ٢٥٠

(١) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ٣٧٣

(٢) الدكتور ابراهيم مذكور : من كلمته في الاحتفال بالذكرى السابعة لوفاة الشيخ مصطفى عبد الرازق نشر في جريدة الاهرام ١٩٥٤/٢/٢٣ م .

الفن والتاريخ ، ويقذف الجند بالحجر وبالرصاص اذ يتداعون بالبورى . رضينا بدين هيئة كبار العلماء الذى ان جمد مرة استرخى مرارا ، ثم هو لم يبلغ بعد ان يقذف رصاصا ويرمى أحجارا) (١) .

والدين برىء من مثل تلك الدعاوى (انما يشوه الدين أولئك الذين يريدون كيدا وتضليلا وقيدا للعقول والقلوب ثقيلا) (٤) .

واذا كان الدين وثيق الصـــلة بالحياة على هذا النحو ، فان من الضرورى أن نجد فيه مشكلات الحياة المختلفة دواء وعلاجا ، واجبنا ان نفهم حقيقة الدين وحقيقة تلك المشكلات ، وان نهتدى فى حلها وعلاجها بمبادىء الدين الصحيحة ، ولقد كان الشيخ مصطفى حريصا على تجديد المعانى الدينيـة ، بحيث تشمل مشـاكل المجتمع ، وبذا يتأكد دور الدين فى قيادة المجتمع وحل مشاكله وايجاد المجتمع الفاضل المتكامل ، وضرب لنا مثلا فى تناوله لاحدى المشـــكلات الاجتماعية وهى مشكلة (تعدد الزوجات) مبينا كافة الاضرار التى تنجم عن تلك المشكلة ، وانها تقتلع الحب من أساسه ، وهو أساس قيام العلاقة الزوجية فيقول (وقفت للخطبة فأتيت بالحمد والصلاة ثم جعلت أحدث الناس فى أمر الزواج لابين لهم أن تعدد الزوجات تقلع الحب من أساسه لان الحب موحد لا يقبل الشرك واذا ذهب الحب فعلى السعادة العفاء فى هذا العالم كله . ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى وقف المأذون والفقهاء وعمى الحاج على الديب وصاحوا : هذا هو علم آخر الزمان لم يبق الا أن نسمع من فوق منابر الوعظ الدينى الكلام عن النسوان والحب وماذا جرى من خطب الشيخ البولاقى والشـيخ السـقا التى تـذكر بالمـو وتحبب اليـنـا الفقر) (١) .

ونتبع رأى الشيخ مصطفى فى أن الدين مرتبط بحياة المجتمع . وتوجيه الحياة الى وجهة اصلاحية ، يخرج عن حدود هذا المقال الموجز . ونكتفى بما أشرنا اليه .

الدين ووحدة الجنس البشرى :

ان النظرة القائمة على الجنس نظرة غير عادلة وليس من شأنها الا ايجاد التفرقة والانشقاق والمنازعات بين الناس . ولا زالت الى اليوم

---

(٢) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ٤٨٣ ــ ٤٨٤

(٤) نفس المرجع : ص ٤١٩

(١) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٠٢ ــ ١٠٣

دولا كبرى متحضرة لم تتخلص من آثار تلك التفرقة التى تقوم على اللون والدم ، وتقوم على تفوق أجناس معينة على أجناس أخرى • ولقد بين الشيخ مصطفى خطورة هذه النظرة موضحا انها لا تستند على آساس من العلم او الحق (١) •

ولقد أوضح الشيخ مصطفى رأى الدين فى وحدة الجنس البشرى والمساواة بين الناس جميعا ، فلا تقوم تفرقة بين البشر على اساس من الجنس أو الدين ، وبذا يتحقق مبدأ المساواة اللازم لقيام التعاون المشترك بين الجميع ، ويقل التنافر والتشاحن بين أفراد المجتمع الانسانى وتنعدم الحروب والمنازعات بين الدول ، ويسود مبدأ المحبة والاحترام لكل الشعوب ، فوحدة الجنس البشرى تقوم على المساواة بين الناس وآن يكون التمايز قائما على الاعمال الصالحة والاخلاق الفاضلة ، ويبين رأى الدين فى ذلك فيقول « ان الله لا ينظر الى شعوبكم وأصولكم ، وانما ينظر الى أخلاقكم الفاضلة وأعمالكم الصالحة فهى التى تقربكم الى الله زلفى ، واذا كان فى الناس من لايزال الى اليوم يقضى بينهم على أساس من اللون والدم فان دين الاسلام لا وزن عنده للون والدم ، انما هى الاخلاق لفاضلة والأعمال الصالحة والتعارف والتآلف بين الأمم » (٢) ، واذا تحقق مبدأ المساواة كان البعد عن كل صور التعصب الدينى •

وحدة الدين والبعد عن التعصب :

يرى الشيخ مصطفى ان الدين واحد لا يختلف فى أصوله ، وأن ما جاء به الرسل على اختلافهم هو واحد فى أصوله ، وان تعددت الشرائع العملية ، والاصول لا تتبدل بالنسخ ولا يختلف فيها الرسل ، أما الشرائع العملية فهى متفاوتة بين الانبياء ، وهى هدى مالم تنسخ ، فاذا نسخت لم تبق هدى ، ويؤكد أن الاسلام ينبذ الفرقة فى الدين ، ويدعو الى الوحدة والتآلف فيه فيقول « وقد بعث محمد بدين الاسلام داعيا الى الوحدة فى الدين والى التآلف ، ناهيا عن الفرقة ، كما فى آيات كثيرة من القرآن منها « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (٣) •

وتلك دعوة صريحة الى وحدة العقيدة ، ودعوة الناس جميعا الى

---

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٧ ـ ٢٨

(٢) مصطفى عبد الرازق : الدرس الاول وخطبتها الجمعة ص ٤

(٣) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٦٩

عبادة الله ، وأن لا تفرق بهم السبل ، وألا يكون الدين سببا للتناحر والتباغض والفرقة بين الناس ، ولقد ادرك الشيخ مصطفى مغبة الامر الذى يحدث نتيجة للتعصب وما يحدثه من فرقة وانقسام وان سبب ذلك التعصب هو الجهل بحقيقة الأديان ، وأن العلم يبدد تلك الظلمة ، وهو وان كان يؤمن بوحدة الدين الا أنه يرى من المتعسر أن يجتمع الناس على دين واحد ولكنه يدعو الى أن تتعارف تلك الاديان وأن تتعاون على خير البشرية ، ويعلن رأيه بوضوح فيقول « فان اختلاف اديان كثيرا ما فرق الجماعات فى الشرق ، وأورث العداوات وحال دون التفاهم والتآلف ، وعاق عوامل النهوض • ذلك بأن كل فريق يجهل أديان الآخرين فهو ينظر اليها فى وحشة الجهل نظرا منكرا • ومتى بدد العلم ما بين هذه المذاهب من ظلمات ، حل الأنس محل الوحشة وكان فى ذلك خير وبركة ولقد ظن بعض المصلحين الدينين أنه يستطيع بمثل هذه الوسيلة أن يوحد الاديان • أما نحن فلا نسرف فى الامل ، وحسبنا أن تتعارف الاديان ، فلا تتناكر ، وأن تتعاون على الاخذ بيد البشر الى الخير الاعلى » (١) •

موقف الدين من الحرية الانسانية :

لقد أخذت الحرية معنى كثيرة وصورا عديدة كالحرية النفسية والحرية الدينية والحرية الاخلاقية ، ويرى الشيخ مصطفى « أن المعنى الحقيقى للحرية هو تصرف الارادة تصرفا غير مغلوب » ٢) وهذا التعريف هو ما اصطلح عليه التقليد الفلسفى •

ولقد لاحظ الشيخ مصطفى صعوبة مشكلة الاختيار الانسانى من الوجهة الفلسفية والدينية على السواء ، وعبر كل زمان فقال « نظرية الاختيار الانسانى نظرية معضلة فى الفلسفة الحرة وفى علم التوحيد • وقد وجد فى كل جيل أنصار للاختيار وأنصار للجبر ولكل من الفريقين أدلة على تأييد مذهبه يضل العقل بينهما » (٣) •

ويؤكد الشيخ مصطفى صعوبة المشكلة من الناحية الميتافيزيقية ، وآثر بحثها من الناحية الاخلاقية والعملية ، ويقول بالحرية كمطلب عملى ،

---

(١) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ٤٩٨ وانظر أيضا مجلة السياسة الاسبوعية فى ١٩٢٦/١٢/٤ حديث مصطفى عبد الرازق وطه حسين الى طاجور شاعر الهند أثناء زيارته لمصر ورأيه فى توحيد الأديان •

(٢) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٣٣

(٣) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٣١

وضرورة من ضرورات العمل فيقول « وعلى أننا نحب لخير الانسانية أن ينشيع في الناس الشعور بحريتهم واختيارهم لان هذا الشعور ينعش النشاط الانساني ويدفعه في سبيل العمل وهو يكبر في المرء الثقة بنفسه ويجعل آماله عالية ٠٠ أنني أدعو مع صاحب كتاب الواجب الى الايمان بالحريه مقتنعا بأن هذا الايمان خير كله ولو أثبتت جميع البراهين الفلسفية أن نظرية الاختيار الانساني غير صحيحة » (١) وهذه الوجهة العملية للحرية لا تجعلها مطلقة ولا تجعلها سلبية ، ونخلصها من النظريات الاطلاقية ، وتجعلها ايجابية فهى ضرورة للعمل ودافع قوى اليه ٠

ولكن هل الدين يعارض مثل هذه الحرية الانسانية أو أن القول بها يعارض الارادة الالهية المطلقة ، والشيخ مصطفى يرى أنه ليس هناك تعارض ، اذا فهم الدين فهما صحيحا واذا فهمت حقيقة الحرية فهما صحيحا ، فالدين « قد كفل للانسان أمرين عظيمين طالما حرم منهما ، وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت انسانيته واستعد لان يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها » (٢) ٠

ولقد عرض الشيخ مصطفى لموقف الدين المؤيد لأحد مظاهر الحرية الانسانية ، وهى الحرية العقلية أى حرية العقل فى التفكير والاجتهاد بالرأى فى دراسته القيمة لبداية التفكير الفلسفى فى الاسلام ٠

التعليم الديني :

أدرك الشيخ مصطفى أهمية التعليم فى بناء الفرد بناء سليما ، واعداده اعدادا صالحا ، لذا كان شديد الاهتمام بالتعليم ونشره ، واقامته على قواعد صحيحة تربى الذوق والفكر وتنمى الموهبة والاستعداد ، وتنير العقل وتزوده بنور المعرفة ، ولقد دعا الى ضرورة العناية بالتعليم الدينى الذى اتسم بالجمود وعدم التطور والتجديد ، فوجه نقده الى تلك المناهج الدراسية التى كانت تدرس فى الازهر وطريقة تدريسها وما حاوله أستاذه الامام محمد عبده من تطويرها ونكوصها من بعده فقال « ننظر فيما يضع شيوخ العصر من الشروح والحواشي وما وضع الشيخ العطار والشيخ الامير وأضرابهما ، عليهم جميعا رحمة الله ، فيخيل الينا أننا نتلو نسخا من

---

(١) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٣٣

(٢) مصطفى عبد الرازق آثار مصطفى عبد الرازق ص ٥٠١ ، ٥٠٢

كتاب واحد ولقد حاول الشيخ محمد عبده أن ينعش العلم القديم ويدفعه الى الحركة والحياة فزحزح القوم عن بعض كتبهم القديمه وأساليبهم في الدرس والتأليف ... ولكن سعي المصلح الديني الشهير ذهب كله الا ما كان من أثر لم ينضج بعد في نفوس طائفة من تلاميذه » (١) .

ولقد أدرك النتائج السيئة التي نترتب على هذه الطريقة ومضارها العديدة ونتائجها العقيمة فهي قاصرة عن أن تربي ملكة أو تهذب ذوقا . ولقد ضمن ذلك كله في خطاب أرسله الى أستاذه الامام محمد عبده ، فكتب اليه يقول « انني نظرت في امرى بعد أن قضيت ما قضيت في الجامع الأزهر ، واضعت ما أضعت من صحتي وشبابي في طلب العلم ، فلم أجد تمنا لما بذلت الا حشدا من الصور والخيالات ، لا يضيء البصيرة ولا يبعث العزيمة » (٢) ولقد دعا الى نشر التعليم الديني في الامة ، وكذلك ضرورة التعليم الديني للمرأة فقال « اذا كنا نشعر بحاجة بناتنا الى العلم وكنا لا نزال نعتقد بضرورة التعليم الديني لامتنا ، فمن الانصاف أن نفكر في انشاء معاهد لتعليم البنات وجعلهن شيخات » (٣) .

والدين لا يعارض العلم ، بل يدعو اليه ، ويشجع عليه ، والشيخ مصطفى يرى أن الدين صديق للعقل والعلم معا ، ويريد أن تقوم مناهج التعليم على أساس العناية بتربية الروح العلمية وغرس روح البحث ، وتنمية المواهب والاستعداد ، وترقية المستوى العقلي وتنمية القدرة على الابتكار ، ولقد شهد بذلك كله منهجه التعليمي ابان أستاذيته للفلسفة بالجامعة المصرية ، وخلق جيل من الباحثين والعلماء ، وكان ذلك أيضا منهجه في الكتابة والتأليف في سائر المؤلفات والبحوث التي كتبها ، كذلك كان معنيا باقامة التعليم الديني على أسس علمية متطورة ، وفي ابان مشيخته للازهر حقق بعض ما يريد من ذلك الاصلاح ولم يمهله القدر لاتمام ما يريد ولكنه أدخل اللغات الاجنبية في الأزهر وأرسل البعثات الازهرية الى الخارج ، وكانت أعماله تحقيقا لرسالة أستاذه الامام محمد عبده .

---

(١) مصطفى عبد الرازق: آثار مصطفى عبد الرازق ص ٢٠٨

(٢) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ٢٦

(٣) مصطفى عبد الرازق : آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٦٨

خصائص الفكر الديني عند الشيخ مصطفى :

فيما سبق عرضه تبدو قيمة الآراء التى قال بها الشيخ مصطفى فى الدين ، ويبدو منها اهتمامه بالاصلاح ، واذا أردنا أن نلتمس أساس ذلك التفكير وبيان الاسس التي يقوم عليها يمكن القول أنه يقوم على محاور رئيسية : أولها : تحرير الفكر من التقليد وهذا الاساس يوضح صورة الدين الحقيقية بعيدة عن كل تطرف ومغالاه ، نقية من كل ما ألصق بالدين من بدع وضلالات ، وهذا المبدأ يعنى استقلال الفكر وعدم تبعية الانسان لغيره ، بل هو يلقى مسئولية الفهم على الانسان ، ويجعله فرض عين لا فرض كفاية ، وهو يتفق مع ما نادى به القرآن من ذم ايمان المقلدين وأجمع عليه السلف بأن ايمان المقلد أدنى مراتب الايمان ، بل ان بعضهم مال بنفيه أمثال المعتزلة والاشاعرة ، وثانيها : فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الاولى تلك الينابيع الصافية ، الواضحة البسيطة ، الخالية من كل تعقيد ، والبعيدة عن كل مغـــالاة وتطرف ، وقبل أن تدخل المذاهب والآراء والفلسفات الى الحياة الاسلامية ، وتتأثر بتلك الروافد الغريبة عنها ، وتظهر الاختلافات والانقسامات ، وتظهر الفرق وتتفرق بالمسلمين السبل ، ولقد أعطانا نماذج للمعانى الدينية الصحيحة على نحو ما فهمها المسلمون الاوائل أيام النبى صلى الله عليه وسلم وما كان يملأ نفوسهم من قوة الايمان ، وحب العمـل ، دون تدقيق نظر واعمال فكر ، بل كان الايمان موافقا للفطرة الانسانية الصحيحة ، والضعف الذى أصاب المسـلمين ، كان نتيجة لتلك الفرقة فى الدين ، وما صحبها من تفتت لوحدة المسلمين ، وزوال لقوتهم ، وطمع فيهم ممن كان يرهبهم .

وثالثها : اعتبار الدين من موازين العقل وعده صديقا للعلم ـ وهذا يعنى أن الدين لا يعارض العقل ، بل يدعـو الى التدبر ويخاطبه بالأوامر والتكاليف ، وينمى ملكاته ولو فهم الدين على حقيقته كان صـديقا للعقل وللعلم ، وانه بالدين والعقل يستـكمل المؤمن نورين ، نور العقل ونور الدين ، والقرآن والسنة يدعوان الى العقل واستخدامه ولا يعارضان تلك الملكة التي وهبها الله للانسان وميزه بها عن سائر خلقه . وكم من معارك جدلية قامت منذ القدم ، ومناقشات نظرية عقيمة بين الناس حول هذه الموضوعات ، وانتصر كل فريق لنفسه وانكر الآخر ، ولكنهم وقوف من حيث بدأوا ـ فلم يزيدوا العقل الا حيرة وضلالا ، ولم يقدموا للدين الا بذور الشك فى الاعتقاد . أليس الاولى من ذلك كله هو ما رآه الشيخ مصطفى من أن يكون الدين والعقل طريقين متمايزين يتعاونان على

اسعاد الانسان ، هذا من طريق القلب وذلك من طريق العقل ، وبذا يكون صديقا للعقل والعلم .

رابعها : وظيفة الدين في المجتمع وتأكيده لدور الدين الايجابي في الحياة . فالدين لا يعارض الحياة الدنيا ، ولم يكن داعيا للآخرة فحسب، بل تعاليمه تؤكد تلك الموازنة بين مطالب المادة ومطالب الروح ، بين الدنيا والآخرة ، فهو يؤهل الانسان للحياتين معا ، كذلك دعوة الدين الى العمل الدنيوي وعمارة الكون والى العمل أيضا من أجل الآخرة ، فالدين في رأيه وثيق الصلة بالحياة .

خامسها : الدين يدعو الى تربية الذات الحرة القوية ، التي تأتي الخير عن طواعية دون اكراه ، وتتعاون مع غيرها من الذوات الحرة لاقامة الخير وتحقيق السعادة للبشرية بعيدة عن كل ألوان القهر والاكراه ، يجمع بينها الحب والمســاواة ، تساعد على اثراء النشاط الثري بمختلف صوره من علم وفن وحضارة .

سادسها : البعد عن صور التعصب ، وان يكون الدين سبيل الوحدة لا سبيل الفرقة والانقسام وان ذلك التعصب باسم الدين انما هو نتيجة للجهل بحقيقة الدين ، فان الدين واحد ، وان لم يكن من الممكن أن تتوحد الاديان فعلى الاقل يجب ان تتعارف ولا تتناكر .

سابعها : دعوة الدين الى تكوين الضــمير ، وتأكيد دوره ، والدعوة الى ايقاظه ، فيكون الانسان على سلوكه رقيبا ، ولا شك ان للضمير دوره في تقويم النفس وتعديل السلوك .

ثامنها : الدين يدعو الى اثراء البعد الداخلي للانسان ، باشتراطه النية وتوافرها في الاعمال .

تاسعا : دعوة الدين الى تكوين العقل الواعي المستنير ، وذلك حتى يؤدي دوره في الفهم والتعمق في ادراك حقائق الدين ، وتطهير الاعتقاد من البدع والضلالات .

عاشرها : اتفــاق هذا الفكر مع روح الدين الاســلامي وما جــاء به القرآن وما جاءت به السنة ، وبعده عن الخلافات التي ظهرت في الفرق الاسلامية ، وتلك المواقف الاطلاقيــة وبعده أيضا عن الجدل في الدين ، وأن يكون الفكر هاديا ومرشدا للعمل ، فيكون ذا وجهة عملية ذات نفع

وفائدة ، أما الجدل العقيم فانه ينفر منـه ، وهذا عين ما جـاء به الدين وأوصت به تعاليمه •

وبعد • فان الحديث عن فكر الشيخ مصطفى حديث يكاد لا ينقطع فان عطاء هذا الفكر متجدد ، بما يحويه من قيم وما يتضمنه من مثـل عليا ، مما جعله خالدا •

وسيبقى هذا الفكر الشامخ ، طالما وجدت نفوس متعطشة الى الخير ، تنشد الحق والخير والجمال ، فهى بلا شـك ستجد فى ثنايا هذا الفكر هذه القيم الخالدة •

علي عبد الفتاح أحمد

مصطفى عبد الرازق

الإنسان والفيلسوف

بقلم

الدكتور عثمان أمين

احب أن ادع لغيرى ممن لم يعرفوا الشيخ مصطفى عبد الرازق كما عرفته ، أن يبحثوا عن فلسفته فى كتبه ومؤلفاته . اما انا فقد تتلمذت عليه أكثر من عشرين عـاما ، فأحببته وشرفنى هـو بحبـه واصطفانى ، وكان لى ابا روحيا ، وكان بى حفيا .. فما على الآن الا أن انظر الى صورته وسيرته ، وهما ماثلتان أمامى دائما ، وما على الآن الا أن أستعيد خلاصة أحاديث دراستى بينـه وبينى ، لأقتبس منهـا فلسفة كاملة جميلة بذاتها لاتحتاج الى محسنات .

كان أستاذنا يعتقد أن هنالك شيئا هو فوق العـلم وفوق الفن وهذا الشىء هو مايطلق عليه اسم «الأخـلاق» . وقد كان الفلاسـفة الرواقيون يسمونه «فن الحياة» ، وهو أعلى الفنون : لأن موضوعه هو الجمال بمعناه الصحيح اى جمال الروح . وكان يـرى أن الاخـلاق ينبغى أن تكون فنـاء للحياة ، أى أن ترسم قاعدة ثابتة لسلوك الشخص مع نفسه وبازاء الله والناس ، بمعنى ان يكون للانسان فى حياته موقف مقرر وخطة مرسومة ، حتى لاتتجاذبه الاهواء والانفعالات فاذا بلغ الانسان هذه المرتبـة كان حكيما ، وآية الحكمـة هى ما يلازم سـلوك الانسان من ثبات واستقرار . لكن هذا الثبات ـــ فيما يرى الاستاذ مصطفى عبد الرازق ـــ يجب أن يكون فى فعل الخير . وليس الخـير هو مايطلبه جمهور الناس عادة من اللذات أو المال أو الصيت ، انمـا الخير ، الذى هو عنده جمال الروح ، هو الحب والسماحة والسلام .

وكثيرا ماكان مصطفى عبد الرازق يحدثنا فيقول : ان هنـالك فلسفة جميلة بزغت منذ فجر الفكر الانسانى ، أولئك الذين عاشـوا للعلم كله لا لأنفسـهم ، وظلوا على وفاق مع قانون المحبـة والسـخاء . وكان أول من مارسها انبياء الشرق ، ثم أذاع تعاليمها كبار المفكرين والحكماء ، ومن سقراط الى افلاطون وارسـطو ، ومن ارسـطو الى الرواقيين وأفلوطين ومن أفلوطين الى الفارابى وديكارت أن النفـوس لاتكون كبارا بغير العواطف الكبار وجعل الفيلسوف لعاطفة الصـداقة فى المجتمع الانسانى أسمى مكان ..

وكان أسـتاذنا يقول ان بنـاء المجتمع يجب أن يقوم على أريحيـة والايثار ، أى على الشعور بأننا جميعا أسرة واحدة متصافية متآزرة

متعاطفة ، أصلها واحد ومصيرها واحد . وكان يقول ان علاج أمراضنا الاجتماعية يتطلب اصلاحا أخلاقيا يكفل الانسجام والائتلاف بين طبقات الأمة ، ويوجه النفوس الى الخير المفطور فيهـا ، ويخلص القلوب من أدران الحقد والأنانيـة ومن أجل هذا أراد أن ينجه نظام التربية الحديثة الى تقوية شعور التعاطف والتجاوب بين أفراد الانسانية .

ولعل خير ما نلخص به فلسفة مصطفى عبد الرازق الأخلاقية كلمة أستاذه محمد عبده ان الحب في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير : فهو الذى يمسك المجتمع ويصونه من البوار .

فاذا استلهمت النفس البشرية هذه الفلسفة الاخلاقية عرفت أنها لم تولد لتنفى بعد حياة قصيرة على هذه الأرض ، ولكنها « هبطت الينا من المحل الأرفع » كما عبر ابن سينا ، وجاءت من اللامتناهي ، فهى لاتقنع بما دونه مثوى ومقـاما . انهـا قبس من نـور الله ، فالى الله مرجعنها في دار الخلود .

ان نعمة هذه الفلسفة نعمة عميقة ، هادئة ، دقيقة . انهـا نعمة علوية قد تخطت حدود المكان والزمان ، وائتلفت مع النغمة الكونية الكبرى التى هى نغمة سخاء وصفاء .

وهل هناك أسمى من أن يمارس الاستاذ مصطفى عبد الرازق فلسفة تلك وأن يعيش عليها ؟ وهل هنـاك أصفى من أن يعلم النـاس بسيرته ومثاله أن المحرك الطبيعي للانسـان انمـا هو الأريحية والاحسان ؟

وبعد فقد كان مصطفى عبد الرازق كما قال عنه الدكتور ابراهيم مدكور «صاحب رسالة من أجل الرسالات» وهى رسالة التوفيق بين القديم والجديد ، وبين الشرق والغرب . وقد أعد لهـا اعدادا قل أن يمد مثله رجل آخر ، واستطاع أن يحسن أداءها بحكمته وذوقه وتسامحه » .

ولقد ذكر الفارابى فى بعض كتبه ان الذى سبيله ان يشرع فى النظر الفلسفى «ينبغى أن يكون له بالفطرة استعدادا للعلوم النظرية ، وهى أن يكون جيد الفهم والتصور ، ثم أن يكون بالطبع محبا للصدق ، وأهله والعدل وأهله ، فى غير جور ولا بحور فيما يهوى .. وأن يكون غير شره على المأكول والمشروب ، تهون عليه بالطبع الشهوات والدرهم والدينار وما جانس ذلك ، وأن يكون كبير النفس عما يشين عند الناس ،

وان يكون قوى العزيمة على الصواب . وأن يكون صحيح الاعتقاد لآراء الملة التى نشأ عليها ، متمسكا بالأفعال الفاضلة التي فى ملته غير مخل بكلها أو بمعظمها ؟ ..

ومانظننا مسرفين حين نلاحظ أن هذه الفضـــائل النـادرة التى جعلها « المعلم الثانى » صفات للفيلسوف الكامل ، قد تحققت في أجـلى صورها عند أستاذنا مصطفى عبد الرازق .

واذا كان محمد عبده قد استحق أن يكرمه تلاميــذه ومـريدوه فوصفوه بصفة «الاستاذ الامام» فقد استحق مصطفى عبد الرازق من جميع من عـرفوه أن يلقبوه باللقب الذى ارتضــاه الفارابى ، وهــو «الفيلسوف الكامل» واستحق ان نضيف اليه ، بعد الاطلاع على آثاره وتأملها ، لقبا جديدا هو لقب « الثائر الجوانى والأديب الفنان » .

ستترك فلسفة مصطفى عبد الرازق آثارا مختلفة جدا ، وذلك شأن كل فلسفة تتجه الى العقل كما تخاطب الشعور ، وتناصر العلم كما تقدس الدين . وقد تبدو صورة هذه الفلسفه غير واضحة المعالم أحيانا ، ولكنهـا فلسفة قد صيغت من عبير الحيـاة ونسـماتها . وهذه النسمات تأتى من فوق واتجاهها بين صريح يحسه أصحاب القلوب .

وهى نسمات من التصوف الاسلامى ومن خطرات الأفغانى ومحمد عبده على الخصوص . ولكن يبدو لنـا من ذلك أن الروح المبثوثة فيهـا روح جديدة . ومن يدرى ؟ فلعل المسـتقبل يقول لابنائنا أن المثل الاعلى الذى ينشده استاذنا فى حياته قد سبق مثلنا الراهنة بأشواط بعيدة .

لقد خفت صوت مصطفى عبد الرازق منذ سنتين . وقد يرى البعض آرائه صدى لماض بعيد قـد انقضى . ولكننى مازلت أسـمع صوت أستاذنا الشيخ كما أسـمعه فى حلم جميـل ، وهو يردد أنشـودة الأمل والتفاؤل ، ومازلت أراه يتطلع ببصره الى مسـتقبل للانسانية أسعد من حاضرها .

هذه رسالة مصطفى عبد الرازق : وهى رسـالة حب واحسان وسـلام ..

الشيخ مصطفى عبد الرازق

كما عرفته

بقلم

الدكتور حسن محمود

ارض المنيا الطيبة خرج من ترابها العملاقان الصديقان طه حسين ومصطفى عبد الرازق .. كلاهما ولد فى هذا الاقليم وقضى صدر شبابه فيه ... وكلاهما ورد الأزهر ومنهل الثقافة الفرنسية .. كلاهما لاءم بين شرقيته الاسلامية وغربيته الاوربية .. كلاهما تولى منصب الاستاذية فى كلية الآداب .... وكانت لهما مدرسة عريضة وكلاهما اشتغل بالسياسة وولى الوزارة فلم تغير هذه المناصب من استاذيتهما شيئا .

وقد عرفت الاستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق عن قرب . عرفته فى طفولتى الباكره وعرفته فى صدر الشباب وعرفته أستاذا من خيرة أساتذة كلية الآداب .

وسأحاول فى هذه العجالة أن أستدر الذكريات البعيدة لأعرض لمحات عن الشيخ الجليل مصطفى عبد الرازق كما عرفته .

آل عبد الرازق بأبى جرج :

أبو جرج قرية من أكبر قرى مركز بنى مزار محافظة المنيا ... على مقربة من القناة الابراهيمية التى تربط بين أسيوط والجيزة وعلى مسيرة نحو ثمانين كيلو مترا شمال المنيا العاصمة ... قرية وادعة مسالمة ... يعيش اهلها أسرة واحدة غنيها وفقيرها لم تعرف البغضاء .. ولم يهرق فيها دم منذ أجيال على نحو ما سمعنا من شيوخنا .

تتقاسم الحياة فيها أسرات اربعة ، متعاونة فى محبة مترابطة فى ألفة : آل عبد الرازق وآل بدوى وآل محمود وآل عبد الجليل ، تتقاسم مشيخة البلدة حينا وترنو الى العمدية حينا آخر . وقد شببت عن الطوق وعرفت طريقى الى الكتاب ثم الى المدرسة الابتدائية .. وأنا ارقب منبهرا ذلك القصر المهيب الذى يقف شامخا على مشارف القرية من ناحية الشرق حيث أسرة حسن باشا عبد الرازق الثرية الكريمة التى جمعت بين العلم والفضل .

وكانت شهور الصيف من أسعد أيامنا نحن أطفال هذه القرية ، حين تدب فى القصر الكبير الحياة ، ويعود ابناء حسن باشا عبد الرازق

الى قريتهم الحبيبة ·· واذا بهم في تواضع العلماء وسخاء أهل الريف يخالطون الكبير والصغير ويعرفون أهل القرية شيوخا وشبابا واطفالا ·· يلاطفون ويسألون والقصر مأوى للغريب والمحتاج والموائد حافلة ليل نهار بالضيفان من كل فج ·

يجلسون فى صدر القصر على الطريق تحت أشجار التوت الباسقة اذا كان عصر كل يوم ويستضيفون الذاهب شمالا او جنوبا .

وكنا نرى الشيخ الجليل فى رقته وحيائه يسير عصر كل يوم فى الطريق الزراعى الطويل المنبسط أمام القرية منفردا حينا أو بصحبة صديقه طه حسين وزوجته الفرنسية وكانا ينزلان صيف كل عام ضيوفا على آل عبد الرازق .

كانوا قدوة فى البر بالناس والترفق بأهل القرية ·· يعنون المحتاج ويعلمون الفقير يشتركون فى المآتم والافراح بأموالهم وانفسهم ·· يشجعون على العلم ·· وقد أسهموا فى انشاء أقدم مدرسة ابتدائية فى محافظة المنيا وهى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية فى بنى مزار .. وشجعوا صبية القرية على الالتحاق بها على نفقتهم اذا أعوزهم المال .. لذلك غدت القرية صاحبة أكبر نسبة من المتعلمين من قرى محافظة المنيا .

وكان أهل البلدة وراءهم دائما فى أفراحهم وأتراحهم يخوضون معهم معارك السياسة فى صراعات الاحزاب على مقاعد مجلس النواب والشيوخ ·· فاذا تحقق لهم ما أرادوا لم ينعزلوا عن القرية التى أنبتتهم .

وقد حصلت على الشهادة الابتدائية وسعى أبى رحمه الله ذات صيف الى القصر الكبير وكان الشيخ فى مجلسه ذاك تحت أشجار التوت الباسقة فاستشاره فى أمرى فقال اذهب بحسن ولدك الى القاهرة فمدارسها الثانوية أفضل من مدارس الاقليم ·

آل عبد الرازق فى القاهرة :

قصر آل عبد الرازق كان يقع فى عابدين خلف القصر الجمهورى مباشرة ·· قصر منيف عظيم بحديقته الغناء وأشجاره الباسقة كان القصر محطة الرحال لكل قادم من القرية أبى جرج ··· يجد حسن الاستقبال وكرم الضيافة واجابة الحاجة والاخذ بناصر الناس .

كان يوم الجمعه عيدا في حياتنا نحن طلاب المدارس الثانوية (الجراجواه) أى من أبى جرج .. فالدعوة مفتوحة والقصر يستضيف ويستقبل ، الشيخ الجليل في مكتبته الحافلة يقتطع من وقته ما يسمح باستقبال هؤلاء الطلاب الشبان والسؤال عنهم والسير بهم وتشجيعهم .

بل كنا عند التقدم للمدارس نكتب في خانة ولى الأمر أو المراسل بيت عبد الرازق في عابدين .

موظفو القصر كلهم من أبناء البلدة .. لايطمئنون الى غريب الخدم .. الطباخون السعاة .. السائقون البستانية كلهم من ابناء أبى جرج .. فاذا ذهب الى هناك فانك في قريتك وبين أهلك .

، ولايخفى ان هذا القصر كان من أعظم المنتديات السياسية في العاصمة حتى عام ١٩٥٢ .. وقد تولى الوزارة من آل حسن باشا .. عبد الرازق ثلاثة هم على التعاقب محمود باشا .. مصطفى باشا .. ثم على باشا ..

وكان بينهم وبين الاحرار الدستوريين صلة بل كانوا من أهم اقطاب هذا الحزب الذى لعب دورا هاما في الحياة السياسية في مصر .

الشيخ مصطفى عبد الرازق استاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب :

ثم اجتزت أمتحان الشهادة الثانوية وعدت الى القرية ذات صيف ومررت بالقصر المنيف وأشجار التوت الباسقة والشيخ الجليل في طلعته المهيبة ووجهه المشرق الباسم يتصدر المجلس ورجال القرية يتحلقون من حوله .

فاشار الى من بعيد ان اقترب وسأل عنى وعرف انى حصلت على الشهادة الثانوية فقال .. دع والدك يتصل بى اذا كان الغد .. وسعينا الى القصر مرة أخرى وشاوره أبى في الطريق الذى ينبغى على ان اسلكه .. فقال له دعنى أفكر وسوف أتصل بك اذا عدت للقاهرة .. وأعطاني أوراقه .

وذات يوم لا أنساه من شهر سبتمبر دق جرس التليفون في القصر الكبير والمتحدث الشيخ مصطفى عبد الرازق من القاهرة يقول لوالدى

إنه اختار لى كلية الآداب وانه قدم أوراقى بها ويطلب اليه أن يحضرنى للقاهرة .

ونزلنا قصر عابدين واستقبلنا الشيخ وقال ساصحبك الى كلية الآداب اذا كان الغد .

وفى احد ايام شهر اكتوبر كنت مع الشيخ فى عربته الفارهه ننطلق الى الجامعـــة .. الى كليـــة الآداب لأصـــبح واحد من طلابها ورغم أنى اخترت التاريخ الا انى كنت احرص على الحضــور دروس الشــيخ لاستسقى من ينبوعه العظيم .. واحضر مجلسه مساء كل جمعه حيث يستقبل طلابه فى مكتبته العظيمة سائلا ومسديا وناصحا .. وكنت أعرف أنه وصديقه طه حسين متلازمان لايفترقان فى الجامعة وخارجها ثم اختير وزيرا للاوقاف وانقطعت صلته بالجامعة .

مصطفى عبد الرازق وزيرا للاوقاف :

لم تبعده السياسة عن العالم بل كان برا بأبنـائه ولاتنقطع صلته ابدا بأبناء بلدته أبى جرج ، تفتح لنا الأبواب اذا سعينا الى لقائه في يوم محدد من كل اسبوع .. لايرد طلبا لسائل يحتفى بالكبير والصغير .. يسأل ويشجع ويدعو .

مصطفى عبد الرازق

وكتاب التمهيد

سعيد زايد

لم يسعدني الحظ بالجلوس أمام أستاذنا الأكبر المرحـوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، بل جلست أمام تلاميذه ، ولكنى سمعت من أبناء جيلى ومن أبناء الجيل السابق ، عن نبله وكرمه ، ما يعجز الوصف عن تصويره ، فكم أخذ بيد طلاب العلم ومريديه ، وكم فتح أبواب الرزق أمام أهله ، وكم عبد طرق البحث أمام الباحثين • ولقد شـاءت الظروف أن أقابله مرة يوم أن عين شيخا للأزهر الشريف ، فذهبت لأهنئه مع أحد الأصدقاء بل لأهنىء المنصب به ، فرأيت صورة مجسدة للنبل والتواضع ورقة الحديث ، نبل الأصيل وتواضع العالم ورقة العطوف الحـانى على أبنائه • ولـولا مراعاة اللياقة وعـدم الاستئثار بوقته الثمين لأطلنا الجلوس ، ولكنا انصرفنا بعد فترة قليلة من الزمن ، ولم أكن أدرى أن هذا اللقاء هو الأول والأخير فى حياتى بالنسبة لهذا الأستاذ الجليل •

كان ــ رحمه الله ــ فريد عصره فى الخلق القويم ، ومنارة شامخة من منارات العلم والعرفان • ولقد صح قبول أستاذه الامام محمد عبده فيه ، حين قال : « ما سررت بشيء سروري أنك شعرت فى حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك ، فلله أنت ولله أبوك • ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت اليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء • ولكنى أكتفى بالاخـلاص في الدعـاء أن يمتعنى الله فى نهايتك بمـا تفرسته فى بدايتك » •

وأحسب ، بل أوقن ، بأن السادة المستمعين لا يتوقعون منى أن أؤرخ لأستاذنا الأكبر ، فان الوقت المحدد لكلمتى المتواضعة لا يسمح بذلك ، ولقد كفانا مؤونة ذلك شقيقه المرحوم الأستاذ على عبد الرازق فى كتابه الشامل « من آثار مصطفى عبد الرازق » • ولكنى أختلس من وقتكم بضع دقائق أذكر فيها بأنه ولد فى قرية « أبو جرج » فى محافظة المنيا ، والتحق بكتاب القرية حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ شـيئا من القرآن الكريم • ثم أرسل الى الجامع الأزهر ليتلقى العلم منه ، وله من العمر احدى عشرة سنة • واتصل حينئذ بالأستاذ الامام وتتلمذ على يديه ، فكان يحضر دروسه التى كان يلقيها بعد صـلاة المغـرب فى الرواق العباسى بالجامع الأزهر ثلاث ليال من كل أسبوع فى قراءة كتاب « دلائل الاعجـاز »

لعبد القاهر الجرجانى ، وليلتين فى تفسير القرآن الكريم . وعقب نيله شهادة العالمية سنه ١٩٠٨ دعى للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى ، ثم استقال وسافر الى باريس سنة ١٩٠٩ ، وهناك التحق فى بادىء الامر بجامعه السوربون حيث حضر دروس دوركهيم فى علم الاجتماع ، ودروسا فى الاداب وتاريخها ، ثم تحول منها الى مدينه ليون سنه ١٩١١ ، ليحاضر فى الشريعة الاسلامية بكليه الحقوق ، وفى الادب العربى بكليه الاداب - ثم اضطرته ظروف قيام الحرب الى العودة لمصر سنة ١٩١٤ . وعين موظفا فى مجلس الأزهر الأعلى سنة ١٩١٥ ثم مفتشـــا بالمحاكم الشرعية سنة ١٩٢٠ . ثم نقل الى مجاله الذى هيأته المقادير لتوليه ، مجاله الحقيقى ، مجال المعلم ، مجال قائد الفكر وراعى الطلاب والباحثين ، كى يظهر فيه مثلا أعلى لما ينبغى آن يكون عليه أستاذ الجامعة . وذلك حين عينته الجامعة المصرية أســتاذا مساعدا للفلسفة الاسلامية فى كلية الآداب سنة ١٩٢٧ ثم أستاذ كرسى سنة ١٩٣٥ . ولكن شاءت الظروف أن ينتزع من مجال الجامعة حين عين وزيرا لوزارة الأوقاف فى ابريل سنة ١٩٣٨ ، أقول شاءت الظروف أن ينتزع من مجال الجامعة وان لم ينتزع قط من رحاب العلم ، فقد بقى على ولائه للعلم وأهله وان حرمت منـــه قاعات البحث فى الجامعة . وأعتقد ان هذا لم يكن يتفق مع مزاجه الرقيق ومع حبه للعلم والعلماء . ولقد تولى وزارة الأوقاف عدة مرات كان آخرها سنة ١٩٤٤ . وعين شيخاً للأزهر الشريف فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، وانتخب فى نفس العام رئيسا فخـــريا للجمعية الفلسفية المصرية . واختير سنة ١٩٤٦ أمـــير اللحـــج .

وكان اختياره لعضوية مجمع اللغة العربية فى ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٤٠ ضمن نخبة من العلماء ضمت : الدكتور محمــــد حسين هيكل ، والدكتور على ابراهيم ، والشيخ محمـــد مصطفى المراغى ، وعبد العزيز فهمى ، وأحمد لطفى السيد ، وعبد القادر حمزة ، وعباس محمود العقاد ، وطه حسين ، وأحمد أمين .

وقد استقبلهم رئيس الخالدين وقتئذ بكلمـــة مختصرة قال فى مطلعها : « أستشعر اليوم عاطفتين قويتين ، فلا أدرى أيتهما أملك لنفسى وأرضى لقلبى وهما السرور والفخر معا . وما لى لا أسر أبلغ السرور ، ولا أفخر الى أقصى غايات الفخر ، وقد أذن القدر الكريم فى أن تضم الى مجمعنا هذه النخبة المصطفاة من أعلام العلم والفضـــل والأدب . » ورد عليه الدكتور هيكل نيابة عن الأعضاء الجدد بكلمة قصيرة أيضا قال فيها :

« أنا ممن يؤمنون ، أيها الزملاء المحترمون ، بأن اللغة قوام الحياة ، وبأنها لذلك يجب أن تؤدى حاجات الحياة أدق الأداء ، ويجب أن تدرس وتصقل لتفى بهذه الحاجات على أتم الوجوه » .

وقد شارك أستاذنا الأكبر فى أعمال المجمع مشاركة فعالة ، وكان عضوا فى بعض لجانه وخاصة لجنة « معجم ألفاظ القرآن الكريم » ، ولم تحرم جلسات المجمع من حضوره كلما سنحت له الفرصة ، فما كان أحب اليه من مجالس العلم ، وما كان أبغض اليه من المناصب الادارية ، فكان يعتبر المجمع تعويضا له عن الجامعة التى تركها ١٩٣٨ متنقلا بين وزارة الأوقاف ومشيخة الأزهر ، وقد قبلهما حائرا ــ كما يقول أحمد أمين ــ بين طبيعته ومزاجه وبين خجله ولباقته .

وعند ما انتقل الى الرفيــق الأعلى ١٩٤٧ ، بكته مصر بأسرها ، وأقيمت له حفلات التابين فى كل مكان ، وأقام له مجمع الخالدين حفلا أبنه فيه أحمد أمين فقال : « لست أنسى يوما منذ أربعين عاما ، سمعت باسمه وأنا طالب بمدرسة القضاء وهو أستاذ بها وحول اسمه هالة من حسب ونسب وغنى وجــاه ، فارتسمت فى نفسى صــورة أبناء الذوات الذين يشمخون بأنوفهم ويتكلمون من أطراف ألسنتهم وينظرون الى الناس فى الأرض من أعلى السماء ، فما رأيته حتى انمحت هذه الصورة الكاذبة ، وحلت محلها صورة تخالفها كل المخالفة . قد أخذ من الارستقراطية أجمل ما فيها ، ومن الديمقراطية أجمل ما فيها . أناقة فى الملبس من غير بهرجة ، ورشاقة فى الحركة من غير تصنع ، وأدب فى الحديث من غير ترفع ، ودعة فى النفس من غير تكلف » . وما كان ذو الأصل الرفيع ليبدو منه ما كان يقلق بال أستاذنا أحمد أمين ، وما كان لرجل نشأ فى بيت عريق اشتهر برعايته للعلماء وحدبه على المتطلعين لنور المعرفة الا أن يكون قد صقلت نفسه وتهذبت أخلاقه وجبل على تواضع العلماء .

لقد كان أستاذنا الأكبر منارة من منارات المعرفة جمع بين الفلسفة وعلم اللغة ، وبين الأدب والشعر ، ولقد حق ما قاله فيه خلفه فى مجمع الخالدين المرحوم خليل سكاكينى : « لو لم يسبقه الخليل بن أحمد لكان هو أول من وضع علم العروض ، ولو لم يسبقه سيبويه لكان هو أول أمام النحاة غير منازع ، ولو لم يسـبقه عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى صاحب كتاب الألفاظ الكتابية لكان هو أول من جمع شذور العربية الجزلة فى أوراق يسيرة ، ولو لم يسبقه ابن خلدون لكان هو أول من وضع علم

الاجتماع ، ولو لم يسبقه أرسطو لكان هو أول من وضع علم المنطق ، ولو فسح له في الأجل لكشف القناع عن حقائق كثيرة مجهولة » .

وقد ألف أستاذنا الأكبر كتبا كثيرة : منها ما كتب ونشر ، ومنها ما كتب ولم ينشر ، ومنهـا ما لا تستطيع اللغة أن تسميه كتابا ما دام الكتاب مشتقا من مادة كتب ، ولكنا ان توسعنا في تعريف الكتاب بأنه الأثر الثمين النافع وليس من الضروري أن يكون مجموعة من أوراق بين غلافين لم نستطع أن نحصي كتب مصطفى عبد الرازق ، نعم لم نستطع أن نحصي من تعهدهم وأنار طريقهم ، وفتح أمامهم آفاق المعرفة ، وشجعهم على المضي في سبيل النور ، فكتبوا ، ونشروا البحوث .

يعد أستاذنا الأكبر رائد الفلسفة الاسلامية المعاصرة ، بعد أن حمل علم الحرية بعد وفاة أستاذه محمد عبده وأستاذ أستاذه جمـــال الدين الأفغاني ، وكان له منهج مميز في تدريسها ، هو الاعتماد على النصوص وذكرها في اطار متناسق ، بحيث يكون كل نص مقدمة لما بعده ، فهو يورد النصوص في تسلسل متسق حتى تتضح الفكرة . ونحن اذا كنا نعرف جميعا أن خصائص التأليف الحديث هو استخلاص الفكرة من النص وشرحها بأسلوب المؤلف مع الاشارة الى النص أو ذكره للاستشهاد به ان دعـــا الأمر ، فان هذا لم يكن ليغيب عن ذهن أستاذنا الأكبر ، ولكنه كان في وقت بدأت العقول تتفتح فيه على أفكار علماء الغرب فتجد فيهـا ضمن ما تجد أفكارا تهاجم مفكري الاسلام وفلسفتهم وتنعتهم بالتقليـد ، بل بالترديد لأفكار فلسفة اليونان ، فأراد أن يثبت لكل ذي رأي أن المسلمين فكروا وابتكروا ، فهم وان كانوا قد قرأوا فلسفة الاغريق وهضموها فانهم لم يحاكوها ، فلم تكن آراؤهم نسخة طبق الأصل من آراء أرسطو ومن جاء قبله أو جاء بعده من قدماء اليونان ، بل انه يوجد بين المسلمين من لم يطلع على آراء أهل يونان التي جاءت أول ما جاءت منذ ابتداء عصر الترجمة في الاسلام ، ومع ذلك تجد عنـدهم أفكارا وحججا قوامها المنطق السديد والاقناع العقلي ، حتى انه كان بين العرب قبل ظهور الاسلام من كان له نظر عقلي في الكون وأصلة وملاحظة النجوم والكواكب وتسجيل مساراتها وخلصوا من ذلك الى اكتشاف بعض مبادئ علم الفلك . وأيا ما كان الأمر فان هناك من يرى أن المنهج الذي سار عليه أستاذنا الأكبر في تأليفه لهذا الكتاب منهج حديث سليم ، يتذوقه أولئك الذين درسوا على مناهج الغربيين . وهو فوق هذا وذاك دليل « على روح التضحية التي كان يتحلى بها أستاذنا الأكبر ». عما ذكر الأستاذ أحمد أمين حين رثاه في مجمع

الخالدين فقال : « وكم كنت أتمنى أن أظهر شخصيته في التأليف أكثر مما ظهرت ، وأن يتحرر من المنقول أكثر مما تحرر ، فقد كان رحمه الله يحاول ما أمكن الا يظهر النصوص والنقول ، ولعل حرصه التام على الأمانة في النقل واعطاء كل ذي حق حقه من الفضل جمله على أن يضحي هذا الكتاب ثلاث مرات ، صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٤٥ ، وصدرت الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦ • والطبعة الأولى وان كانت قد صدرت سنة ١٩٤٥ الا أن المدة التى اقتصت كتابته تزيد على اثنى عشر عاما ، وذلك بنفسه للاشادة بفضل غيره . ولكل مؤلف مزاجه ولكل شيخ طريقته » •

بهذا المنهج ، منهج الاعتماد على النصوص ، سار أستاذنا الاكبر فى أهم كتاب له وهو كتاب « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » ، وقد طبع أن أستاذنا الأكبر بدأ فيه على شكل محاضرات لطلاب قسم الفلسفة في الجامعة المصرية منذ أن عين للتدريس فيه سنة ١٩٢٧ حتى انتزعته الحياة العــامة ابتداء من الثلث الأول لسنة ١٩٣٨ حــين عين وزيرا للأوقاف في المرة الأولى •

ويقع الكتاب فى ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير خلا المقدمة والفهرس • وقد قسمه أستاذنا الأكبر الى قسمين كبيرين وضميمة • تناول القسم الأول مقالات الغربيين والاسلاميين فى الفلسفة الاسلامية ، فتحــدث فى الفصل الأول عن مقالات المؤلفين الغربيين ، وفى الثانى عن مقالات المؤلفين الغربيين ، وفى الثانى عن مقالات المؤلفين الاسلاميين ، وعرف فى الثالث الفلسفة وأقسامها عند الاسلاميين ، وخص الرابع بالحديث عن الصلة بين الدين والفلسفة عند الاسلاميين •

أما القسم الثانى من الكتاب ، فعنوانه « منهجنا فى درس تاريــخ الفلسفة الاسلامية » ، وهو ثلاثة فصول : تحدث فى الفصل الأول عن بداية التفكير الاســلامي ، وفى الثانى عن النظريات المختلفة فى الفقــه الاسلامي وتاريخه ، وفى الثالث عن الرأى وأطواره •

أما الضميمة التى ختم بها الكتاب فهى فى علم الكلام وتاريخه • قلنا ان أستاذنا الأكبر حمل علم الحرية بعد أستاذه الامام محمد عبده ، وقد كان هذا هو منهج مدرسته فى البحث الذى يقوم على التثبت والتحقيــق ، والاعتماد على الأصول الصحيحة للثقافة الاسلامية ، والبحث عن المظان التاريخية المعتمدة ، سائرا بذلك نحو الاصلاح فىالعلم والدين ، يتحقق مذهبه فى النهضة الثقافية •

ولقد كان أستاذنا الأكبر متسلحا بهذه الحرية فاطلع على آثار الغربيين والمستشرقين ، فترك زبدها ، واحد منها ما ينفع الناس ويمكث في الارض ، والى جانب تسلحه بسلاح الحرية كان متسلحا ايضا بعفه اللسان فجاءت مناقشته لآراء الغربيين غاية في أدب الحديث ، انظر اليه حين يخاطبهم قائلا : « أما بعد ، فان الناظر فيما بذل الغـــربيون من جهود في دراسة الفلسفة الاسلامية وتاريخها لا يسعه الا الاعجاب بصبرهم ونشاطهم ، وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم . واذا كنا ألمعنا الى نزوات من الضعف الانساني تشوب أحيانا جهودهم في خدمة العلم ، فانا نرجو أن يكون في تيقظ عواطف الخير في البشر وانسياقها الى دعوة السلم العام والنزاهة الخاصة والانصاف والتسامح ، مدعاة « للتعاون بين الناس جميعا على خدمة العلم باعتباره نورا لا ينبغي أن يخالط صفاءه كدر » .

وليس يؤئسنا من ذلك أن تهب في بعض البلاد نزعات كانت ركدت ريحها . وليس من شأنها أن تخلص نفوس الناس من عوامـــل العصبية والهوى ، مثل نظرية تفوق السلالة النوردية الشاملة لشـــعوب أوربا الشمالية التي تحيا في ألمانيا لهذا العهد ، ومثل فكرة تفوق البيض على السود المنتشرة في أمريكا الشمالية ، وفكرة تفوق الجنس الأبيض على الجنس الهنـــدي التي دعت الى تسمية المتولدين بـــين انجليز وهنديين تسمية خاصة في بلاد الهند وفي بلاد أفريقية الجنوبية ، بل نحن نرجو أن يغلب العلم والحق هذه النزوات التي لا يسـندها علم ولا حق . ويقوى رجاءنا أن نجد في أمريكا نفسها أصواتا تقرر باسم العلم أحيانا ما نقره نحن الآن (١) » .

اطلع الأستاذ الأكبر على ما كتبه المستشرقون ، ثم ناقشه ، فقد كان على علم تام بما اعتمدوا عليه من نصوص اسلامية ، فوجد أنهم لم يتوسعوا في مصادر البحث ولم يلموا بالموضوعات الماما كاملا ، فعاد الى الأصول ، عاد الى الكتب والمخطوطات الاسلامية ودرسها بنفسه حسبما وآتاه الله من ذوق سليم واستعداد مرهف وروح متأصلة بحب الاسلام ، بروح المدرسة التي آلت اليه زعامتها . درس أستاذنا الأكبر نصوص القـــدامى دراسة موضوعية فخلص الى قضية خطيرة هي أن الفلسفة الاسلامية الصـــحيحة ينبغي التماسها في الفقه الاسلامي . فهو بعد أن ذكر رأيا يقول : « أصبح

---

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ، القاهرة ١٩٦٦

فى حكم المسلم ان للفلسفة الاسلامية كيانا خاصا يميزها عن مذهب أرسطو ومذاهب مفسريه فان فيها عناصر مستمدة من مذاهب يونانية غير مذهب أرسطو ، وفيها عناصر ليست يونانية من الآراء الهندية والفارسية .. الخ .. ثم ان فيها ثمرات من عبقرية أهلها ظهرت فى تأليف نسق فلسفى قائم على أساس من مذهب أرسطو مع تلافى ما فى هذا المذهب من النقص باختيار آراء من مذاهب أخرى وبالتخرج والابتكار ، وظهرت أيضا فى أبحاثهم فى الصلة بين الدين والفلسفة (١) » .

تقول : بعد أن ذكر هذا ، رأى ان الفقه الاسلامى يمكن التماس الفلسفة الاسلامية من بين ثناياه ومن قضاياه المبنية على القياس العقلى ، فالاجتهاد بالرأى فى الاحكام الشرعيه — وأنا هنا أستعير كثيرا من كلمات الاستاذ الأكبر — هو أول ما نبت من النظر العقلى عند المسلمين . وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن الكريم وبسبب من الدين . ونشأت منه المذاهب الفقهية ، وأينع فى جنباته علم فلسفى هو علم « أصول الفقه » ، ونبت فى تربيته التصوف أيضا ، وذلك من قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها فى توجيه النظر عند المسلمين الى البحث فيما وراء الطبيعة والالهيات على أنحاء خاصة . ويجب على الباحثين فى تاريخ الفلسفة الاسلامية أن يدرسوا الاجتهاد بالرأى منذ نشأته الساذجة الى أن صار نسقا من أساليب البحث العلمى ، له أصوله وقواعده . يجب البدء بهذا البحث لأنه بداية التفكير الفلسفى عند المسلمين ، اذ أن الترتيب الطبيعى يقضى بتقديم السابق على اللاحق ، ولأن هذه الناحية أقل نواحى التفكير الاسلامى تأثرا بالعناصر الأجنبية ، فهى تمثل لنا هذا التفكير ملخصا بسيطا يكاد يكون سيرا فى طريق النمو بقوته الذاتية وحدها ، فيسهل بعد ذلك أن نتابع أطواره فى ثنايا التاريخ ، وأن نتقصى فعله وانفعاله فيما اتصل به من أفكار الأمم ..

ويؤيد هذا الرأى أستاذنا الدكتور ابراهيم مدكور فى كتابه « فى الفلسفة الاسلامية — منهج وتطبيقه » بقوله : « ان فى مبادىء التشريع وأصول الفقه تحاليل منطقية وقواعد منهجية تحمل شارة فلسفية واضحة ، بل ربما وجدنا فى أثنائها ما يقرب كل القرب من مناهج البحث الحديثة » .

وقد استشهد أستاذنا الأكبر على رأيه هذا بأقاويل كثير من

---

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥

المؤرخين الاسلاميين . ويقرر ان الامام الشافعي رضي الله عنه هو « أول من وضع مصنفا في العلوم الدينية على « منهج علمي » هو كتابه « الرسالة » ، ثم حلل الرسالة تحليلا وفيا مبينا مظاهر التفكير الفلسفي فيها ، ذلك أنها تسلك في مباحثها وترتيب أبوابها نسقا مقررا في ذهن مؤلفها ، وهذا النسق بداية « قوية » للتاليف العلمي المنظم في فن يجمع الشافعي عناصره الأولى لأول مرة ، وان كان - على حد تعبير أستاذنا الأكبر - يختل اطراده أحيانا ، ويخفى وجه التتابع فيه . ويعرض له الاستطراد ويلحقه التكرار والغموض . وان كانت هذه الرسالة لم تغفل جانب الفقه ، أي استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية ، فهي الى جانب هذا يلمح فيها نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام من ناحية العناية بضبط الفروع والجزئيات بقواعد كلية ، ويلمح فيها أيضا الاتجاه المنطقي الى وضع الحدود والتعاريف أولا ، ثم الأخذ في التقسيم مع التمثيل والاستشهاد لكل قسم . وأسلوب الرسالة حوار جدلي مشبع بصبور المنطق ومعانيه ، « حتى لتكاد تحسبه لما فيه من دقة البحث ولطف الفهم وحسن التصرف في الاستدلال ، والنقض ومراعاة النظام المنطقي ، حوارا فلسفيا على رغم اعتماده على النقل أولا بالذات واتصاله بأمور شرعية خالصة » (١) وكذلك نجد في الرسالة ايماء « الى مباحث من علم الأصول تكاد تهجم على الالهيات أو علم الكلام ، كالبحث في العلم ، وأن هناك حقا في الظاهر والباطن وحقا في الظاهر دون الباطن .... وقد استدل الشافعي على حجية السنة وما دونها من الأصول ، فلفت الأذهان الى حجة القرآن نفسه ، وهي مسألة وثيقة الاتصال بأبحاث المتكلمين (١) » .

هذه بعض نظرات في كتاب أستاذنا الأكبر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » ظهر منها مقدار أهمية الكتاب ومقدار خطره ، فان أقل ما يقال فيه هو انه وجه أذهان الباحثين الى الفكر الاسلامي الأصيل ، وأثبت لهم أن أسلافهم في صدر الاسلام بحثوا وفكروا وتفلسفوا من قبل أن تصل اليهم فلسفة اليونان ، وانهم استخدموا مناهج دقيقة في أبحاثهم تدل على صفاء الذهن ومنطقية العقل . ودعا الباحثين أيضا الى النظر في تراث السلف وانهم لواجدون فيه مادة خصبة لكتاباتهم ، وآفاقا رحبة تغلغلت في كثير من نواحي الفكر الانساني .

سعيد زايد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٥

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٥

بعض المواقف الأدبية فى حياة وأعمال

مصطفى عبد الرازق

بقلم

الدكتورة سعيدة محمد رمضان

لقد شرفني قسم الفلسفة اذ دعاني لأتحدث اليكم الليلة في مهرجان العلامه الأديب الفيلسوف مصطفى عبد الرازق ، بقصد الحديث عن الجوانب الأدبية ، التي تتصل به ، ولا أملك لا أن أعرب عن بالغ شكرى آملة أن نزداد حرصا على مظاهر تكريم النوابغ من أبناء هذه الأمة وعلى الاشاده بآثارهم ، وتحويل دورهم الى متاحف يحج اليها النشء وتكون لهم دافعا الى الاجادة والتبصر ٠

واحتفالنا هذا يأتي بعد شهور قلائل من احتفال قسم اللغة العربية هنا بذكرى طه حسين ونرجو أن يلتقى الدارسون وأبناء المنيا عما قريب للاحتفال بشخصية بارزة أخرى انتمت الى المنيا ونعني بها رائدة الحركة النسائية في مصر السيدة هدى شعراوى ٠

وأما الآن فحسبنا آن نقدم حديثا موجزا يتناول بعض المواقف الأدبية لمصطفى عبد الرازق ، وليس من السهل أن يتحدث الانسان عنها كلها لأنها مواقف متعددة وعميقة ومتشعبه ولأنها تتصل اتصالا وثيقا بالصورة العامة للنهضة الحديثة سواء في الموضوعات أو الأساليب ٠

وقد التقيت باسم مصطفى عبد الرازق مرات عديدة خلال دراستى الأدبية ٠ التقيت باسمه أول ما التقيت وأنا أعد بالسربون رسالة عن شاعر مصر الاسلامية بهاء الدين زهير ، واذا بى أمام كتاب صغير لمصطفى عبد الرازق صدر سنة ١٩٣٠ ٠

وربما كان من الضرورى آن نقدم لحضراتكم تعريفا مختصرا بالبهاء زهير لكي نعرف بعد منهج مصطفى عبد الرازق في الدراسة الأدبية ولكي نعرف أهمية اختياره لهذه الشخصية بالذات لكي يكرس لها دراسة شاملة ٠

البهاء زهير ، شاعر مصرى شهير ، ينتمى الى صعيد مصر ، والى مدينة قوص على وجه التحديد وقد ولد على مقربة من مكة نحو سنة ٥٨١ هـ الا أنه تكون ونما في قوص ، وكانت وقتها مركزا من أهم المراكز الثقافية في مصر ٠

وفي قوص تنضج ملكاته الأدبية ، ويبرز اسمه كشاعر وناثر

متميز بلون خاص ، ويكون من الطبيعي بعد ذلك أن نراه في القاهرة ، وعلى مقربة من امراء البيت الأيوبي الحاكم ، ثم يصبح على زمن الصالح أيوب على رأس ديوان الانشاء ، وهو منصب كان يفوق في الأهمية منصب الوزير .

وعن طريق هذه الصلات بأفراد البيت الأيوبي ، وهذا المنصب الهام في الدولة ، يتاح للبهاء زهير أن يسافر شرقا وغربا في العالم الاسلامى فنراه مرة في الشام ومرة أخرى في أطراف العراق ، لكنه لا يكف عن الحنين الى مصر وصعيدها ، والى أهل الصعيد على وجه الخصوص . كما يتضح من المثال :

أحن اليكم كل يوم وليلة — وأهذى بكم في يقظتى ومنامى
فلا تنكروا طيب النسيم اذا سرى — اليكم فذاك الطيب فيه سلامى
ويرتاح قلبي للصعيد وأهله — وعيش مضى لى عندكم ومقام
وأهوى ورود النيل من أجل أنه — يمر على قوم لدى كرام

هذا الشاعر أجمع القدامى والمحدثون ، ما عدا قلة قليلة ــ على الاشادة بشاعريته والتنويه بفضله ، وقد قال معاصره ابن خلكان عنه في « وفيات الأعيان » .

وشعره كله لطيف ، وهو كما يقال السهل الممتنع ، وقال عنه المستشرق الفرنسي هويار ، في كتابه « تاريخ الأدب العربي » ان شعره يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التى صقلتها مدنية خلفاء صلاح الدين الزاهية .

هذا هو الشاعر الذى آثره مصطفى عبد الرازق بدراسة مستقلة ــ تقع في نحو المائة صفحة من القطع الصغيرة ــ وكانت هذه الدراسة بمثابة الاكتشاف والتقديم الحقيقى لشعر هذا الشاعر الى عامة قراء العربية في مصر والشرق .

حقيقة ان شعر البهاء زهير لم يكن مجهولا بالنسبة لجمهرة المثقفين فقد طبع ديوانه في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن أكثر من طبعة ، بل لقد حقق وترجم الى الانجليزية على يد المستشرق الانجليزى بالمر ــ وحقيقة أيضا أنه كان قد صدر عن البهاء زهير في أواخر العشرينات كتاب من تأليف الأستاذ أحمد الشايب وآخر اشترك فيه كل من الاستاذين

المنشاوى والسقا لكن هذين الكتابين كانا من قبيل الكتب المدرسية التى تهدف الى تقديم المعلومات العامة في الحقائق المشتركة للطلاب .

أما صنيع مصطفى عبد الرازق فلم يكن صنيع المؤرخ الأدبى ، بل الأديب الذواقه ، الذى يستهويه أديب فيعكف على انتاجه ، يشير الى ما فيه من جوانب الجمال ، وينبه الى المواضع المتألقة فى أعماله دون أن يهتم كثيرا بعرض كل الجوانب الأخرى ، لأنه فى صنيعه هذا لايريد أن يقدم كتابا من كتب تاريخ الأدب بل محاولة تذوقيه تتضمن خلاصة انطباعه .

ويقول في مقدمة دراسته هذه :

« عرفت شعر البهاء زهير وأنا صبى أقرأ على والدى رحمه الله ـ شيئا من كتب الأدب فى بعض الليالى ، وقد أحببت شعر البهاء زهير منذ عرفته . كان يتأتى لعقلى الناشىء أن يستشف معانيه من ثنايا ألفاظه اللطيفة ، وتراكيبه ، على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجابا دون المعانى كثيفا فى الشعر أحيانا وفى النثر ، وكان موقع وزنه الموسيقى ونغمه يستثير فى نفسى أريحية وطربا حتى لتأثر بذلك ذوقى ، فهو يهفو فى البيان الى نوع من الأنغام والوزن .

ثم درست بعد ذلك سيرة البهاء زهير فيما كتب الكاتبون عنه وفيما حفظت لنا الأيام من آثار فتجلى لى من امتياز الراحل وتفوقه ما ملأنى حباله وتقديرا » .

هكذا نظر مصطفى عبد الرازق ، فى شعر البهاء فأدرك من الوهلة الأولى أنه متميز عن أدباء عصره الذين كانوا يعجبون كل الاعجاب بأسلوب القاضى الفاضل « الملء بالصنعة اللفظية والصور البلاغية البادية الزيف » . بينما كان البهاء ـ كما ينص مصطفى عبد الرازق « لايريد أن يستبدل الناس بلامهم العادى كلام الجاهلية الأولى اذ نظموا الشعر أو كتبوا وانما يريد أن يصحح الشعراء والكتاب أساليبهم على مقتضى القواعد العربية ، حتى لاتنقطع الصلة بين ماضيهم وحاضرهم من غير ان يجنى ذلك على سهولة التفاهم ولا على حركة اللغة ونحوها وحياتها » . ويسجل مصطفى عبد الرازق بعد ذلك بأسى شديد كيف أن منهج البهاء زهير هذا لم يقدر له أن يستمر بل تغلبت الصنعه وفسدت الأذواق وانتهى الأمر الى أن تحول الشعر والنثر فى العصور الوسطى الى مزيد من الألاعيب اللفظية . »

والى جانب هذا التركيز الهام من جانب مصطفى عبد الرازق على

منزع البهاء الصافي الرقراق ، نراه يركز على جانب آخر لا يقل عن ذلك أهمية هو جانب « المصرية » في شعر هذا الشاعر ، وما أجمل وصفه للبهاء زهير بكونه « المصرى المنشأ ، المصرى الروح ، المصرى العاطفة » فهو قد كان كذلك بالفعل ، بل أن مصطفى عبد الرازق ليمر مرورا سريعا على شعر البهاء زهير في الملوك والأمراء ليؤكد أن البهاء زهير الشاعر المصرى هو مدار حديثنا ، لا البهاء زهير من حيث هو صاحب ديوان الانشاء في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب » ويقول في موضع آخر « ويطول بنا القول لو أردنا أن نستقصى في شعر البهاء زهير نفحات مصرية في التعبير الذوق ، ودلائل ديموقراطية في اللغة ، وان كان ارستقراطى المنازع والأخلاق » .

ويلاحظ مصطفى عبد الرازق من نفحات المصرية في شعر البهاء زهير كثرة الحلف في شعره فقلما تخلو قصيدة له من يمين ، حتى ليقول :

وواللّه ما فارقتكم عن ملاله وواللّه ما احتاج أنى أحلف

وهي ملاحظة دقيقة ولاشك .

ولنذكر في ختام هذا الجانب قوله بعد أن أورد مجموعة من النصوص المعبرة عن مصرية البهاء :

« في هذه الأشعار وكثير غيرها مما يوجد في ديوان البهاء زهير ، عبارات وأساليب مصريتها من عربيتها ، والشعراء يتأبون أن يستعملوها منذ القدم وحتى في هذه العصور ، ويعدون ذلك تبذلا وضعفا واخلالا بجمال الشعر وجمال البيان ، ويؤثرون لغة الشعر في عصور العربية الراقية . حتى لاتكاد تفرق من جهة اللغة بين الشعر الراقى في مختلف العصور » استغفر الله هم لا يريدون ذلك ، بل ولا يقدرون عليه ، فانما هو السهل الممتنع ، كما يقول ابن خلكان ، ولابد من عبقرية كعبقرية البهاء زهير لتوفق هذا التوفيق في انشاء أشعار من الطراز الأول يطرب لها الخاصة ، ولا تكون العامة أقل بها طربا ، بلسان هو لسان التحاور ولسان البيوت والأسواق .

ونستطيع نحن ان نضيف بأن أمر اكتشاف هذا الجانب من جوانب عبقرية البهاء زهير كان يحتاج الى نفس شفافة ، بصيرة باللغة واستعمالاتها ، كنفس مصطفى عبد الرازق والى عبقرية ملهمة كعبقريته ، تستطيع أن تتجاوز الاطارات البلاغية التقليدية وتدرك عظمة استعمال التعبير البسيط المنتزع من وجدان الناس وأخيلتهم .

.. هذا هو الجانب الأول الذي التقيت فيه مع مصطفى عبد الرازق ·
أما الجانب الثاني فكان في خلال تلك الدراسة التي أعدها منذ خمسة أعوام عن اتجاهات الأدب النسائي في العصر الحديث ، وفي هذا الجانب نرى الشيخ الجليل يقف في صف المرأة ، مؤمنا بأهمية الدور الذي يجب أن تؤديه في المجتمع ·

وقف الشيخ الجليل يلقي مرثيــة في باحثــه البادية ملك حفنى ناصف ، تلك المصلحة الاجتماعية الفذة ، التي كان لها اسهام جليل في كافة ميادين التربية ، ومما قاله مصطفى عبد الرازق في تلك المرثية دفاعا عن حق المرأة في أن تأخذ مكانها في المجتمع : -

« هذا الاحتفال بتكريم باحثة البادية الذي لم يسبقه فيما نعلم احتفال بتكريم امرأة في مصر ــ هو أول مظاهر يعلن فيها الرجال « أن المرأة بعلمها وعملها تستطيع أن تكون عظيمة وأن تزاحم الرجال بالمناكب في ميادين الفخار القومي » ·

« الا أبلغوا النساء ــ أيها السادة ــ أن لهن مثلنا ، عليهن في الحياة فروض ، عليهن شطر العبء في الآمال المنشودة لهذه الأمة الناهضة

ويضيف وهو يتحدث عن الدعــوة الى تعليــم المرأة وتحريرها من ظلام الجهالة التي كانت غارقة فيه ·

« وقد سارت دعوة الاصــلاح في طريق نجاحها برغم أعدائها ، وأثمرت ثمراتها الأولى باحثة البادية باكورة ثمراتها ، فأظهرت لأعــداء الاصلاح والرقي أن المرأة المتعلمة تكون فتاة طيبة وزوجة طيبة ، وتكون فوق ذلك عضــوا عاملا نافعــا في بنية الأمم · وما كانت الحرية التي يهبها العالم للمرأة المتعلمة الا تمــردا على قيــود الاســتبداد الظالم وخضوعا لقيود الفضيلة والدين » ·

هذه الكلمة الجامعة تغني عن كل تعليق ، وترينا الى أي مدى كان مصطفى عبد الرازق حريصــا على أن يكون مشاركا في أول تجمع عام للاحتفاء بذكرى واحدة من طلائع النهضة النسائية ، وكان حريصا على أن يحدد موقفه من هذه القضية ، وعلى أن تكون وقفته الى جانب احترام العدل والحرية ·

أما النقطة الأخيرة التي سنشير اليها تتصل بدورها بالمرأة ونعني بها هذه الصلة الغريبــة الغامضة التي وصلت بين مصطفى عبد الرازق والآنسة مي ·

وربما احتاج الأمر الى الاشارة فى كلمات موجزة الى الآنسه مى ، هذه الأديبــة الذائعــة الصيت التى ولدت فى آخـريات القرن الماضى بفلسطين ، بقرية الناصرة التى شهدت من قبل ميلاد الســيد المسيح عليه السلام ٠

وستدرس مى فى الناصرة ، ثم تتابع دراستها فى مدارس الراهبات على مقربة من بيروت الى أن تنتقل الأسرة الى القاهـرة حيث نرى والدها (الياس زياده) يعمل بالصحافة ويدير صحيفة المحروسة ٠

وفى القاهرة تتفتح مواهب « مى » على نحو أروع وتنشر فيهـــا ديوانها بالفرنسية « أزاهير حلم » وكان يضم خواطرها وأشعارها الأولى ثم بدأت تجرب الكتابة بالعربية وتدرس بالجامعــة المصرية القديمة ، وتشارك فى المحافل الأدبية داعيــة الى نهضــة المرأة والى الاحتفاء بأعلام الأدب كخليل مطران ، وغيره ، وراحت تكتب المقالات والخواطر والقصائد المنثوره فى الصحف حتى عرف فيها الجميع قلما شاعريا وأديبه من الطراز الأول ٠

ويغريهــا هذا النجاح على أن تقيم فى بيت أبويهــا صالونا أدبيا قدر له النجاح وكان يضم من بين رواده عددا من ألمع أدباء العصر ومفكريه من أمثال اسماعيل صبرى وخليل مطران ، وأحمد شــوقى ، ومصطفى صـــادق الرافعى ، وطه حسين ، والعقاد وولى الدين يكن وأحمد لطفى السيد ، ومصطفى عبد الرازق وعشرات غيرهم ٠

ولقد كانت « مى » فى فترة شبابها المتألق موضع اعجاب وتقدير هؤلاء الأعلام ، وكان ظهورها فى بيئتنا الشرقية المحافظة ، ظاهرة جديدة ذكرت هؤلاء الأدباء باديبات أوربا أمثال مدام دى ستايل ، وجورج صاند، وشارلوت برونتى ، وغيرهن ٠

وكان من الطبيعى أن يتحول الاعجاب لدى الكثير من هؤلاء الأدباء الى حب والى عواطف تختلف فى درجاتها اشتعالا وهدوءا ٠

وممن أحبها بعنف ولى الدين الذى مات وهو يردد أســـمها ، ومصطفى صادق الرافعى الذى اتخذها ملهمة له ، واســتوحى منهـــا الكثير من أعماله ، كرسائل الأحزان والســـحاب الأحمر ، ومن هؤلاء أيضا عباس العقاد ، وقد صـــور حبــه فى كثير من شعره وفى رواية « ســـاره » ٠

أما أبرز هؤلاء الذين أحبو ميا فى هدوء وصوفية ، وأفلاطونية ، فأحمد لطفى السيد ومصطفى عبد الرازق ٠

وقد نشرت نصوص من بعض رسائل أحمد لطفي السيد الى مى تعبر أصدق تعبير عن هذا الحب النبيل السامي ٠

وبقيت لنا كذلك نصوص أخرى تصور العلاقة بين مى ومصطفى عبد الرازق وفى صدد ما يقول كامل الشناوى فى الكتاب الذى يحمل عنوان « الذين أحبوا مى » أما مصطفى عبد الرازق فقــد أحبها فى عفة وحيـــاء » ويضيف :

« ويعتقد أنطون الجميل أن الشـيخ مصطفى لم يعبر عن حبـه بالكلمة المسموعة وانما عبر بالكلمة المكتوبة ، عبر بهـذه الرســائل الثلاث التي وجدت بين الرسائل التى تركتها مى بخط الشيخ مصطفى احـدهما كتبها من باريس ، والرسالتــان الأخريان كتبها من أبو جرج بمحافظة المنيا » ويورد كامل الشناوى ما حدثه به أنطون الجميل من أن الشيخ مصطفى بلغ فى رسالته التى كتبها من باريس ذروة الرقة والذوق وحرارة التعبير كان يحدثها عما لقيه فى باريس ، وعن ذكرياته وتأملاته ، والمعالم التى زارها وعن زيه الشرقى الذى تركه حينا ليعود اليه بعد انتهاء رحلته وقال لها :

« وانى أحب باريس ان فيها شبابى وأملى ومع ذلك فأنا أتعجل العودة الى القاهرة يظهر أن فى القاهرة ما هو أحب الى من الشـــباب والأمـل » ٠

ولانعرف مع الأسف أى مصير انتهت اليه هذه الرسائل ٠ ولا ماذا كانت هناك رسائل أخرى غيرها بخط مصطفى عبد الرازق ، فالمعروف أن عددا من أصدقاء مى وعلى رأسهم أنطون الجميل ، وخليل مطران ، كان يعزم نشر الرسائل التى وجهت اليها الا أن أحمـد لطفى السـيد اعترض على هذا المشروع ، واعتبره اعتداء على أسرار مى ، وهكذا عدل عن نشر رسائل الأدباء الى مى ، ولم يظهر منها الا قدر ضـئيل ، والذى نعتقده أن قدرا من هذه الرسائل قد ضاع أو هو فى سبيله الى الضياع ٠

ومما ينصل بقضـية العلاقة بين « مى » ومصطفى عبد الرازق ، حديث أجراه الشاعر الاديب محمد عبد الغنى حسن مع مصطفى عبد الرازق على أثر وفاة الأدبية الشاعرة ، وقد نشر هذا الحديث أول ما نشر فى

مجلة « المقتطف » ثم أورده بعد ذلك في كتابه « حياة مي » . ثم في « أديبة الشرق والعروبة » .

وفي هذا الحديث يقول محمد عبد الغني حسن .

ومصطفى عبد الرازق أديب قبل أن يكون فيلسوفا ، وشاعر قبل أن يكون كاتبا .. وتظهر شاعريته في رقة حاشيته ، ولطف جانبه ، وسلامة ذوقه في قيامه وقعوده ، وتسليمه ووداعه ، واستواء هيئته ، وحسن نبرته ، وفي حلاوة حديثه وعذوبة صمته ويذكر لنا كيف وقف مصطفى عبد الرازق في حفل تأبين مي يجلله الوقار والمهابة وكيف افتتح تأبينه ببراعة نادرة حين قال « لقد شهدنا مشرق مي ، وشهدنا مغيبها ، ولم يكن طويلا عهد مي ، على أن مجدها الأدبي كان طويلا في الحياة عريضا » .

أما في الحديث نفسه فان مصطفى عبد الرازق استطاع أن يجلي الخفي بلفت النظر الى ضرورة نشر الأعمال الكاملة لمصطفى عبد الرازق وسائر علاقاته ، في سائر ما كتب رمزا رائعا للوفاء ، والنبل ، ودقة في عبارات قليلة محكمة البناء واضحة الدلالة كيف نشأت الصلة بينه وبين مي ومدى تحصيلها للعلوم ومكانتها بين أديبات عصرها .

وكان مصطفى عبد الرازق في حديثه هذا ، كما كان شأنه في البصيرة ، وحسن التحليل .

وبعد ..

فاننا نكتفي الآن بهذه الملامح القليلة عن مصطفى عبد الرازق في مجال الأدب ولاتزال من الملامح الرئيسية التي لم نتكلم عنها قصائصه الاسلوبية وخصائص شعره .

وهناك أيضا جانب خفي من أدب مصطفى عبد الرازق كشف عنه النقاب الأستاذ يحي حقي في كتابه « عطر الأحباب » وقد تحدث فيه — خلال ثلاثين صفحة عن اللوحات القلمية لمصطفى عبد الرازق » حديثا ممتعا بين فيه المهارة القصصية العجيبة التي مكنته من رسم صورة دقيقة لذاته ولبيئة الأزهر ولعشرات ممن قابلهم في شبابه وهذا الجانب ولغيره من أعلام أدبنا الحديث حتى تكتمل الصورة وتتضح جوانب عبقريتهم .

ونذكر أخيرا بكلمات قالهـا مصطفى عبد الرازق وهو يرثى باحثة البادية عن معنى الاحتفالات بذكرى أعلامنا الراحليين ٠

« أن هذه الاحتفالات يقصد بها أولا الى تعويد الجماعات أو تعرف الفضـل لأهله وأن تحفظ لذوى الأثر الطيب فيهـا من الذكرى الطيبة بعد موتهما يشجع الأحياء على أن يحتذوا أمثالهم ٠

سلام لك فى ذكراك أيها الشيخ الجليل

سـلام لك من أبنـاء مصر ومن بناتهـا

وعشت في ذاكرة الأجيـال علما شامخا من أعلام الفكر والأدب والمعـرفة ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مصطفى عبد الرازق

السياسي والوطني

بقلم

الدكتور أحمد فؤاد كامل

لم يكن أثر استاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق محصورا فى الدور الرائد والخلاق الذى حققه باعتباره فيلسوفا أو صاحب مدرسة فكرية متميزة فحسب بل امتد الى الجانب السياسى والوطنى . وسنتناول المواقف الجريئة والثائرة التى وقفها منذ شبابه المبكر والتى استمرت معه حتى آخر لحظة من حياته والتى جعلت منه سياسيا وطنيا وثائرا يصارع بالكلمة المكتوبة والمسموعة كل فساد وتخلف ويدعو الى الاصلاح الذى كانت مصر فى أشد الحاجة اليه .

نشأ مصطفى عبد الرازق فى أسرة مناضلة ساهمت فى تحديد الملامح السياسية لوطننا وكان لها دورها الفعال . فقد كان جده أحمد بن محمد قاضيا على ولاية البهنسا وتعرض لغضب الخديوى سعيد باشا عندما حاول الشفاعة لبعض الاعراب ونفاه الى طنطا لمدة عامين ثم عفا عنه وأعاده الى بلدته .

وكان والده حسن باشا عبد الرازق عضوا فى مجلس النواب الذى أنشأه اسماعيل باشا ثم عضوا فى مجلس شورى القوانين عن مديرية المنيا وتعرض بدوره لغضب الخديوى عندما تضايق الشعب من ظلمه وكثرت العرائض المجهولة والتى ظن الخديوى انها بقلم حسن باشا عبد الرازق فأمر بنفيه الى السودان ثم عفا عنه .

كما ساهم والده حسن باشا مع الامام محمد عبده فى انشاء الجمعية الخيرية الاسلامية واشترك مع كل من محمود باشا سليمان وعلى باشا شعراوى وابراهيم باشا سعيد فى انشاء حزب الأمة واختير وكيلا للحزب وألقى خطبة الافتتاح معلنا مبادىء الحزب .

لاغرابة اذن ان يتأثر مصطفى عبد الرازق بهذا الجو السائد فى وطنه بوجه عام وفى أسرته بوجه خاص وان يحاول منذ حداثته ان يساهم فى هذا التيار التقدمى وقد بدأ نشاطه السياسى والوطنى باصدار صحيفة تتناول شئون الأسرة باسلوبه الساخر الذى ستتميز به كتاباته السياسية والوطنية فيما بعد ـ ثم حاول انشاء جمعية تضم شباب الأسرة أطلق عليها اسم « جمعية غرس الفضائل » وفى هذا دلالة أخرى لنشاطه السياسى الذى ركز على العمل الجماعى من خلال الجمعيات

والاهتمام بالكلمة المكتوبة والاعتراف بدور الصحافة فى تطوير الأمم — ولهذا نجده بعد ذلك يتصل بجريدة المؤيد التى كان يصدرها الشيخ على يوسف ومجلة الموسوعات التى كان يصدرها محمد فريد رئيس الحزب الوطنى ·

ساهم مصطفى عبد الرازق فى ثورة الاصلاح التى قام بها الأزهر وأنشأ جمعية تضامن العلماء للعمل على اصلاح الأزهر وتعرض لحرب عنيفة انتهت بغضب الخديوى واستقالته من مدرسة القضاء الشرعى ·

وبعد عودته من فرنسا ساهم فى انشاء مجلة السفور التى حققت نجاحا وأثارت حقد عدد من دعاة الاصلاح الدينى الذين اعتبروها دعوة الى الالحاد وكان أول عدد لهـا فى ٢١ مايو ١٩١٥ وآخر عدد كتب فيه مصطفى عبد الرازق يوم ٢٧ ديسمبر ١٩١٧ · وفى ١٩١٧ أصبح عضوا فى الجمعية الخيرية الاسلامية وفى سنة ١٩٢٠ انتخب عضوا فى مجلس الادارة ووكيلا سنة ١٩٤١ ورئيسا فى فبراير ١٩٤٦ خلفا للمرحوم محمد مصطفى المراغى كما اشترك فى الحزب الديمقراطى واختير ممثلا لشباب الحزب فى الوفد الذى شكله سعد باشا زغلول للدفاع عن القضية المصرية ولكن أسرته رفضت ان يسافر مع الوفد · وقد أدى مشاركة مصطفى عبد الرازق فى الحركة الوطنية الثائرة الى غضب الملك فؤاد الأول وأصدر قرارا بتعيينه مفتشا للمحاكم الشرعية وابعاده عن الأزهر وانتقل من تفتيش المحاكم الشرعية الى وظيفة استاذ مساعد بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) ثم عين وزيرا للأوقاف وكان أول أزهرى يتولى الوزارة ثم عضوا فى المجمع اللغوى وأخيرا عين شيخا للأزهر سنة ١٩٤٥ ·

هذا هو مصطفى عبد الرازق السياسى والوطنى من خلال سيرته والوظائف العامة التي تولاها وقد كان رائدا فى جميع مجالات العمل السياسى مشاركا بالكلمة المكتوبة أو المسموعة فى رسم مناهج الاصلاح ومساندا للحركة الوطنية الثائرة ومساهما فى النهضة الفكرية التى عرفتها مصر منذ مطلع القرن العشرين ·

وتأكيدا لهذا الدور الرائد والمساهمة الفعالة لمصطفى عبد الرازق سنذكر مختارات من كتاباته التى حرص على ان تكون تعبيرا حيا عن حياتنا السياسية والفكرية فى فترة حاسمة من تاريخ وطننا العزيز

(١) على عبد الرازق : من آثار مصطفى عبد الرازق · دار المعارف مصر ١٩٦٧ ·

ومرآة صادقة للمشاكل التى تعرض لها شعبنا المكافح وعلاجا للعيوب التي تعرض لها • وسنكتفي بذكر موقفه من قضيتين أساسيتين أولاهما الصراع مع المستعمر وكشف أساليبه في التضليل وثانيهما الصراع القائم بين فئتين من فئات الشعب ومحاولة تأكيد الوحدة الوطنية •

يقول مصطفى عبد الرازق فى تعليق له على التقرير السنوى للمعتمد البريطاني وسخريته من الدعاية البريطانية المسمومة • « تذكرني مسألة الحكم فى كفاءتنا السياسية بحكاية تجرى عندنا فى الريف مجرى الأمثال وخلاصتها ان رجلا أدركه اغماء فما بطلت حركته حتى عجل ذوو قرابته الى تجهيزه ولما أفاق حاول الخلاص ولكنهم أصروا على أنه ميت ولما استغاث برجل واقف أمام داره حاول الرجل ان يقنع المشيعين بانه حى قالوا • لقد خدعك ما هو بحى انه مات وجهزناه للدفن فلا تسمع لشائعته • فقال الميت ـ ياعم أحكم بيننا بالعدل أفأكون ميتا وأنا أنطق كما ينطقون وأعى ما يقولون قال الرجل ـ اذهب يا صاح الى قبرك انني لا أستطيع ان أصدق انك حى وأكذب كل هؤلاء « كذلك نحن نثبت بكل دليل اننا بلغنا رشدنا فتقول لنا السياسة ومن ورائها أسطول ضخم وجيش فخم ـ لم تصيروا بعد أكفاء ولا يصدقنا أحد ليكذب كل هؤلاء » •

(الجريدة ـ الاربعاء ٥ يوليو ١٩١٤) •

لقد سخر مصطفى عبد الرازق من الاكذوبة التى نشرها المستعمر وحرص على تأكيد ان المصرى مازال كفأ للاشتغال بالسياسة وانه لم يعد فى حاجة الى قوة أكبر تحميه • وهو فى سخريته يدعو الى شعار بدأ ينتشر فى هذه الفترة وهو ـ مصر للمصريين » ويرفض الدعوة المقابلة التى تجعل من مصر تابعا لأوربا وبعبارة أخرى يؤكد أصالة الشعب المصرى وتمسكه بمصريته دون ان يحول ذلك من الاستفادة بكل جديد فى المجتمع الأوربى ويقول • « علينا ان نأخذ الجوانب الطيبة فى حياة الغرب وان نستنير بها فى طريقنا نحو التقدم حتى نرى مصر حرة راقية تلعب دورها فى العالم » •

ويقول فى الصراع بين فئتى الأزهريين والأفندية ـ « التقى قاض شرعى بقاض أهلى • فلما تصافحا كانت فى يمنى الاخير منشته وفى يسراه محفظته فعاب عليه زميله ان يصافحه بمنشته وتجادلا وأخذ شيخ

ليس بقاض شرعي ينصر الشيخ وجعل أفندى ليس بقاض أهلى ينصر الأفندى • هنالك تمثل لى كل ما بين العمائم والطرابيش من خلاف » •

(السياسة ـ الجمعة ٢٣ أغسطس ١٩٢٦) •

لقد اهتم مصطفى عبد الرازق بالصراع القائم بين فئات الشعب سواء بين الأزهريين والأفندية أو بينهما وبين أصحاب الآراء الجديدة وحاول ان يظهر خطورة هذا الصراع بين فئات الوطن الواحد مؤكدا انها تعبير عن نزاع بين صور مختلفة من التفكير والذوق وان السبيل الوحيد لتلافى هذا الصراع هو الاهتمام بالتطلع الى مظاهر الجد النشاط والعمل على تحقيق نهضة مصر فيقول ـ « اذا كان ولع شبابنا المعمم بتغيير الزى مؤذنا بتغيير نفس وبالتطلع الى مظاهر الجد والنشاط التى لا تتسع للاكمام الطويلة العريضة والاردية الحريرية الناعمة الزاهية المفتحة النوافذ المنسابة من كل جانب ، فليبرزوا الى ميدان النهضة أفندية أو شيوخا • ان مصر تنظر الى أعمالهم لا الى ثيابهم » •

(السياسة ـ ٧ فبراير ١٩٢٦)

هكذا يتضح موقف مصطفى عبد الرازق السياسى والوطنى من قضيتين أساسيتين تعرض لهما الوطن ـ بالنسبة للصراع السياسى نجده يندد بالاستعمار ويدعو لفكرة « مصر للمصريين دون أى تعصب فهو لايجد أى تعارض بين تأكيد مصرية مصر والإستفادة مما حققته أوربا والأخذ بما هو طيب فى حياة الغرب • وهو فى دفاعه عن القضية المصرية لايتردد فى مساندة الاتجاهات التقدمية الثائرة على الاستعمار بقلمه وفكره ولايخشى غضبه حاكم أو سلطان ويعلن رأيه بكل صراحة وضوح •

وكذلك الأمر بالنسبة لقضايا المجتمع الداخلية فهو يتناولها بالشرح والتحليل ويتخذ فيها مواقف لاتخلو من جرأة مهما كلفه ذلك من مشاق ومتاعب فهو فى تناوله مشكلات المجتمع لايكتفى بعرض المشكلة وتحليلها بأسلوبه الساخر والجاد فى نفس الوقت وانما يقدم الحلول التى يراها كفيلة بالقضاء على هذه الظواهر • فالحل الذى ارتآه بالنسبة للصراع بين فئات الشعب هو ان يهتم المجتمع بكل فئاته بالعمل الجاد فالوطن فى حاجة الى جهد كل فرد سواء كان صاحب عمامة أو طربوش أو قبعة • واذا كان لابد من تغيير فليكن فى النفوس وليس فى المظهر الخارجى •

نفس الموقف ونفس المنهج نجده فى تناول باقى المشكلات التى

عانى منها المجتمع والتى كانت فى حاجة الى معالجة صادقة وصريحة فهو مثلا يتعرض لظاهرة الخمول التى انتشرت فى ذلك الوقت فيقول ٠

« شر ادوائنا الخمول وهو علة ضعفنا في كل وجه من وجوه الرقى وذلك بان المدنية ثمرة النشاط الانساني وكلما كبر ما ينفقه الناس من مجهودهم في سبيل الحياة كانت حياتهم عظيمة ومدنيتهم راقية ٠ نحن أمة خاملة تبدو مظاهر الخمول في جميع نواحيها ٠ ترى حركة النـاس في الطرقات فاتـرة وتحس بالفتور فى نزوات العواطف فى القلوب وخطرات الأفكار فى العقول ٠ حظنا من النشاط ضئيل وحظنا من النجاح والتقدم على مقـدار نشاطنا ولن نبلغ ما نحـاوله من الأمل العظيم حتى نبذل في سـبيله نشاطا عظيما ٠ يقول قائلون ان مناخ هذا الوادى يقضى على أهله برخاوة العزيمة وضعف النشاط لأنه حار يعجز القوى الانسانية ان تحتمل من شدته عناء النشاط في العمل ٠ ولو صح هذا القول لكان من المقدور على كل البلاد التى ليست بذات جو بارد ان تعيش منحطة محدودا نصيبها فى المدنيـة كما حدد نصيبها من النشاط والواقع يكذب هذا ، فقد عرف التاريخ مدنيات للبلاد الحارة من قبل ان يعرف مدنية فى غيرها من البـلاد ٠ ليس خمولنا من عمل الجو ، وما يكون لأحد ان يظن انه من لوازم بلادنا ولا قومنا ، فان أرضـنا صالحة لأن تكون مهد نشاط مثمر كما كانت كذلك لأول عهد الانسانية بعمل مثمر ، وشعبنا لايزال فى عروقه دم آبائنا الأولين الذين شيدوا بعزائمهم الكبيرة مدنيات خالدة المجد والأثر » ٠

(السفور ـ الجمعة ٢١ سبتمبر ١٩١٧)

وفى تناوله الصراع بين الحكام والمحـكومين .أو الأغنياء والفقراء نجده يختم وصـفه لحريق فى الريف معلقـا على موقف مأمور المركز ومساعد النيابة من الفلاحين خـلال التحقيق فيقول ـ « عنـد منصرفى سمعت مأمور المركز يقول ـ هذه هى آثار تعليم الفلاحين ونتائج تعويدهم الحرية ٠ كأنما يريد أولئك الحرية لأنفسهم ويأبون علينا نحن الفلاحين ان نكون أعزة أحرارا » ٠

اهتم مصطفى عبد الرازق بتأكيد كرامة الانسان وان الحكام ليسوا سوى حراس على القانون الموجود لكرامة الناس وعلينا جميعا ان نحرص على عزتنا فلا نرضى ان تداس أطرافها ٠

وفى ضرورة الاهتمام بالتعليم يقول « كنا نطالب بالتعليم الاجبارى ليحمل الأمة طوعا أو كرها على ان تتعلم لأن العلم شفاء لكل ادوائنا ،

فقد كفانا الله السعي في ترغيب الامة في العلم وتزيينه في عينها لان الامة نهضت من نفسها لتحصل العلم نهضة مباركة وبقى ان يجد الظامئون الى ورد العرفان سبيلا ٠

نريد ان يوجد في بلدنا من المدارس ما يكفى لكل طالب ان يتعلم وان يمنح التعليم مجانا ولو تعطل كثير من مشاريع الاصلاح في مرافق الحياة ٠ ان العلم يغني الامة الفقيرة ولكن الغنى لا ينفع الأمة الجاهلة ٠ نقول هذا بمناسبة اعداد الميزانيات في هذا الموسم رجاء ان تراعى حاجتنا العلمية فلا يبخس نصيبها في ميزانية الحكومة وغيرها من ميزانية المديريات وميزانية الأوقاف » ٠

(السفور ــ الجمعة ١٦ يناير ١٩١٧)

يمكن القول اذن في ضوء هذه المقتطفات من كتابات مصطفى عبد الرازق وهي على قلتها تؤكد لنا انه لم يكن رائدا في مجال الفلسفة والفكر فحسب بل كان أيضا رائدا في مجال السياسة والاصلاح ، فقد شارك منذ صباه في سياسة وطنه وتعرض للايذاء نتيجة شجاعته وتمسكه بالحق ودفاعا عن حرية الرأى ومساندة الحركات التقدمية ، فلا شك في انه سياسي وطني اتخذ الكلمة سلاحا والسخرية اسلوبا والإصلاح سبيلا ورقى الأمة وتقدمها هدفا ٠

وباختصار ساهم مصطفى عبد الرازق في الدعوة الى الاصلاح الذى كانت مصر في أشد الحاجة اليه ٠ وفي تحديد ملامح نهضتنا وحث الشباب الثائر على خدمة الأمة باخلاص وعزيمة ، ولعل خير ما تختم به حديثنا عن مصطفى عبد الرازق السياسي والوطني هو صيحته الصادقة ــ « أيها المربون لاتضعفوا من قوة الشباب الناهض بعوامل التهيب والخجل٠ علموا أولادنا كثيرا من الشجاعة وقليلا من الحياة » ٠

حقا ما أحوجنا اليوم لكثير من الشجاعة نواجه بها مشاكلنا ونتخطى بها ما يعترضنا من عقبات وصعاب ٠ رحم الله استاذنا الجليل ووفق شبابنا الى اتباع سبيله وتحقيق آماله وآمالنا جميعا لخير الوطن ولعزة مصر ٠

كلمة شكر باسم الأسرة

بقلم

سالم مصطفى عبد الرازق

أيهـــا السادة :

هذه كلمة شكر واجبة أتوجه بها الى جميع الذين ساهموا فى هذا الحفل ودعوا له ، والى أبناء محافظة المنيا خاصة ، الذين رأوا من البر أن يكرموا ذكرى مصطفى عبد الرازق ابن اقليمهم ، فأكدوا بذلك فضيلة الوفاء المتأصلة في وجدان هذا الشعب وكم للمنيا من أبناء يستحقون التكريم وكم من فضائل تستحق الشكر مضاعفا وتستحق الثناء .

واذا كان العرف قد جرى على أن أتحـــدث باسم أسرة مصـــطفى عبد الرازق فانني أجد لزاما على أن أبادر وفاء له الى القول بأن مفهوم الأسرة عنده شأن أصحاب رسالات الاصلاح ، كان يتعدى حدود الروابط العائلية الضيقة ليشمل أهل قريته « أبى جرج » ويتسع لأبنائه الطلاب فى الأزهر الشريف وفى الجامعة المصرية وغير أولئك وهؤلاء من الذين شـــاركوه الانتمـــاء بالروح الى مدرسة الأستاذ الامـــام الشيخ محمـــد عبده فى الروح والتجديد .

اسمحوا لى أن أتحدث اذا باسم هذه الأسرة الواسعة التى تجمع أفرادها ومصطفى عبد الرازق وشائج لا تقـــل قوة ومتانة عن تلك التى تربطنى به ، والتى أهلتنى لأن أقف اليوم متحدثا باسمها واننى لعلى يقين من انهم جميعا يشاركوننى شعورى بالامتنان والتقدير تجاه هذه اللفتة الكريمة التى جاءت تعبيرا عما تكنهصدور كثيرة من مشاعر تجاه مصطفى عبد الرازق وذكراه .

واذا كان مقدرا لذلك الاحتفال أن يصادف مرور ثمانية وعشرين عاما كاملة على رحيل مصطفى عبد الرازق عن عالمنا ، فاننى لأكاد ألمح فى هذا الترتيب أثار نبوءة أســتاذه الامام محمد عبده بأن جذوة الاصلاح التى أشعل شرارتها الأولى سوف تنقلب خلال ثلاثين عاما أو نحوها الى شعلة تضيء الطريق أمام الاجيال القادمة ، ولا جرم فقد كان مصطفى عبد الرازق امتداد لمدرسة أستاذه وربما أقرب حوارييه اليه وأكثرهم تاثرا به .

وأما أن يقام الاحتفال هنا فى هذه المحافظة التى ولد صاحب الذكرى فى احدى قراها وشب وترعرع على أرضها، فكانت على حد تعبيره « أطيب

مهد لعهد الطفولة عليه السلام ، فذلك استكمال للمغزى وشاهد آخر لا ينكر على متانة الروابط التى تصل هذا الرعيل من المفكرين المصريين بالقاعدة العريضة التى برزوا من بين صفوفها فكانوا بحق أبلغ من عبر عن آلامها وآمالها وعن أصالتها الحضارية ، وما أنقذهم الالتقاء بحضارة الغرب ولا التعرف على مذاهب الفكر العالمى صدق مصريتهم ولا نقطعت الشرايين بينهم وبين الأرض الطيبة مهما تقاوم الزمن وتغلبت الأحوال فصدق فى أعمالهم قوله تعالى « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة أصلها ثابت وفروعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ».

وما أحب مصطفى عبد الرازق اليوم الا رمزا لجيل بأكمله من مفكرى مصر ومصلحيها كانت أعمالهم خلاصة الانتاج الحضارى لهذا الشعب فى حقبة من حقب تاريخه العريق ، فتكريمه تكريم لهذا الجيل فى شخصيته ، وتقدير لدوره فى اضافة لبنات الى بناء النهضة الحديثة والحفاظ على شعلة الحضارة من ان تذهب بنورها رياح التخلف والجمود والتى كانت تهب فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن على المشرقين العربى والاسلامى •

أيها السادة :

لقد تفضل الذين سبقونى الى الحديث فى هذه المناسبة بتناول الجوانب المختلفة لشخصية مصطفى عبد الرازق ، وآثاره فى الأدب وفى الفلسفة والاصلاح فلم يتركوا لى الا بعض اضافات الى الصورة رأيت أنها قد تفيد فى ابراز أبعاد نظريته الفلسفية ومذهبه الاخلاقى وقد كان رحمه الله ممن يقال فيهم « تراه فتلمح أسلوبه الادبى فيه ، وتقرأ له فتراه فى كتابه » •

واذا كان صديقه الدكتور طه حسين رحمه الله قد رأى بحق أن أبرز خصاله السماحة والوفاء الخصلتان فى الواقع تتصلان أوثق اتصال بمذهبه الأخلاقى الذى كانت غايته العليا الكرامة والسماحة وانكار الذات ، وهو مذهب يجد جذوره فى تعاليم الاسلام التى قدمت للبشرية أكمل صورة السماحة والتضحية •

فرسالة مصطفى عبد الرازق كانت فى جوهرها الاصلاح الأخلاقى ، فهو كان يسعى فى كل ما يكتب ، وكل ما يدرس لطلبته ، بل وكل

ما يترك من أثر في نفوس المحيطين به الى الدعوة للفن الاسمى فى تهذيب الروح لأنه كان يؤمن فى النهاية أن الفرد الصالح قوامه المجتمع الصالح ، وأن المحبة كمال ، قال أستاذه الامـــام « تؤدى فى المجتمعات البشرية الوظيفة التي تؤديها الجاذبية بالنسبة لنظـــام الكون ، فهى تحفظ هذه المجتمعات من التفكك وتقيها من الدمار .

هذه فلسفة انسانية لا ترتبط بزمن ولا تختص بمجتمع بـــل هى صالحة لكل عصر ولكل مجتمع . وبالرغم من ذلك فانه ليس من الشطط أن نبحث عن جذورها فيما ترسب فى وجدان مصطفى عبد الرازق من آثار نشأته الأولى في احدى قرى الريف حيث يبدو الترابط الاجتماعى فى أجلى صوره وتبدو العلاقات بين الأفراد خالية من كلف المدنية وزيفها حتى تصل الى حد العصبية .

لا يسألـــون أخاهم حـــين يندبهـــم
للنائبـــات عـــلى ما قال برهـــانا

ولندع مصطفى عبد الرازق نفسه يعبر بكلماته الهادئة السمحة عن أسلوبه فى الدعوه والتوجيه فهو يقول مخاطبا أحد أبنائه :

يا بنى ....

أتقبل هديتك بقبول حسن وأشكر لك هذا النوع من الوفاء الذى جعلك ترى من البر أن تهدى باكورة آثارك الأدبية ، هذه الباكورة المبشرة ان شاء الله بخير كثير .

وان تكن قد خصصتنى بالخطاب وحدى فما أحسبنى الا رمزا لأبويك من التغنى بالذكريات .

رحم الله مصطفى عبد الرازق وأصحابه رحمة واسعة ، فقد كانوا ممن قال فيهم سبحانه وتعالى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

وحيا الله منية بنى خصيب وأبناءها فهم قادرون باذن الله على مواصلة المسيرة والمساهمة بالنصيب الأوفى فى تثبيت دعائم دولة العلم والايمان فى جنبات هذا الوطن العزيز .

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

صدق الله العظيم

ملخص كلمات القيت
فى الذكرى السابعة لوفاة

الشيخ مصطفى عبد الرازق

فى ٢٢ فبراير ١٩٥٤
فى قاعة يورت التذكارية

شهدت قاعة يورت التذكارية مساء امس مظهرا من اكرم مظاهر الوفاء لذكرى الراحلين من العلماء المصلحين تمثل فى الحفل الذى اقيم بها تكريما لذكرى فقيد العلم والاسلام المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر الأسبق واشتركت فى تنظيمه الجمعية الفلسفية المصرية وقسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية .

شهد الحفل جمع كبير من رواد النهضة الفكرية واقطاب العلم والأدب وكثير من أبناء البلاد الاسلامية الذين يقدرون ما أداه الفقيد للوطن العربى والاسلامى فى ميادين العلم والمعرفة من خدمات جليلة ـ ونشرت ملخص الكلمات فى جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ وهذا نصها .

ملخص كلمة الدكتور طه حسين

وتحدث الدكتور طه حسين عن النعمة التى أهداها اليه الفقيد العظيم وهو فى أول الشباب وقد عنى نعمة الموده الخالصة والاخاء الصفو والحب الصادق الكريم فقال انه علمه حلاوة الصداقة ومرارتها أيضا وانها هى خير ما يحتاج اليه الانسان ليكون انسانا كاملا ثم أخذ يناجى الفقيد مناجاة الروح للروح ويتحدث اليه حديثا قال عنه انه لم ينقطع يوما بعد ان فارق عالمه الفانى الى عالمه الثانى .

وعرض لما يعرف من شمائل الفقيد فكان مما قاله : يرحمك الله أيها الأخ الكريم فقد كنت فى حياتك الاولى رحيما بالضعفاء عطوفا دون أن يستعطفك أحد معطيا قبل أن تسأل متلمسا حاجة المحتاج دون ان تضطره لأن يعلن اليك حاجته وما عرفت انسانا مثلك يرفع الانسان عن الطلب والسؤال ويرى ان من كرامة نفسه ان يكفى غيره ان يطلب أويسأل .

ونوه بعد ذلك بما تركه الفقيد من أثر طيب لا ينساه الأزهر ولا تنساه كلية الآداب وختم كلمته بانه لن يطيل الحديث أكثر مما تحدث وان كان حديثه للفقيد العزيز لم ينقطع ولن ينقطع حتى يلقاه فى عالم البقاء .

ملخص كلمة الدكتور محمد حسين هيكل

وتحدث من بعده الدكتور محمد حسين هيكل فكان حديثه صورة ناطقة بما كان للفقيد الكبير من مكانة رفيعة فى نفوس عارفيه حتى انهم كانوا يعدون صداقته جزءا من حياتهـــم ذهب بذهابه الى عالم الخلود وذكر انه عرفه أول ما عرفه في العاصمة الفرنســـية يوم كان يدرس الحقوق فيها وكان الفقيد يدرس فى السوربون فعرف فيه الخلق العف والنفس الرحيمة والتسامح في غير افراط ولا تفريط وعدم النزوع الى التعسف ، ونوه باتجاهاته الاصلاحية التى لمسها عن قرب حين ولى الفقيد منصب الوزارة وبما كان يرجى لهذه الاتجـــاهات من أثر لو ان الأجل أمهله .

وختم كلمته بان أمثال مصطفى عبد الرازق خالدون فى حياة أممهم بما ضربوا من مثــل عاليــة باقية وما أسلفوا من عمل صالح ، ودعا الى الاقتداء بهذه المثل التى تركهــا الفقيد العظيم من بعــده لينهج الخلف نهجها ويسير سيرتها .

ملخص كلمة الدكتور منصور فهمى

وتكلم الدكتور منصور فهمى فرأى ان يــوم تكريم ذكرى الشيخ مصطفى عبد الرازق ليس يوما للحزن والأسى بــل هو يــوم الذكريات الصالحة تطل فيها أرواح أصحابها الصالحين فتذكرنا بتلك الفضائل الخالدة التى عاشوا لها وماتوا فى سبيلها ، وهو يوم عرض المثل العليا ليقتدى بها الخلف ، ومن ثم فأولى به ان يكون يوم اغتباط وسرور لا يوم حزن وأسى ، لأننا نرى فيه من يذكرون الناس بفضائلهـــم وان طالت الأيام وجفت الدموع وخفت اللوعة ولأننا ننشق فيه شذى تلك الذكريات الصالحة فتعطر نفوسنا وتجعلنا نتشبث بالمثل العليا .

وختم كلمته بان هذا الحفل الحافل لتكريم ذكرى مصطفى باشا عبد الرازق انما هو بشرى بان الحياة فيها خير لأن فيها من يذكرون الخيرين ومضى فنوه بما اجتمع للفقيد من خلال وشمائل كريمة وقص بعض ما اســتطاع بنفسه السمحة ان يذلل صــعابه التى تستعصى على أكثر الناس حلما وأرحمهم صدرا .

كلمة الدكتور ابراهيم مدكور

وتحدث الدكتور ابراهيم مدكور فقال :

ان الشيخ مصطفى عبد الرازق كان صاحب رسالة من أجمل الرسالات هي رسالة التوفيق بين القديم والجديد وبين الشرق والغرب ، وقد أعد لها اعدادا قل ان يعد مثله رجل آخر واستطاع ان يحسن أداءها بحكمته وذمته وتسامحه . فبهذه الحكمة أمكنه ان يتخير بين تلك الصور المتنافرة أكثرها انسجاما وأقربها الى التوافق وبذوقه الممتاز أمكنه ان يتبين من صور القديم والجديد ما يكون لوحة أنسب ما تكون لمطالبنا وحاجاتنا وبتسامحه استطاع التوفيق بين ما تنافر من ألوان القديم والجديد .

ونوه بحرص الفقيد على زيه الشرقي وكان فيه أبهى وأنضر ممن تزيوا بالزى الغربى وقال انه طلب اليه يوما ارتداء (الروب) الجامعى فاجاب بأن العباءة تغنى عنه وأغلب الظن انه مقتبس من العباءة الشرقية .

وتحدث عن مهمه رسل الأصلاح من أمثال الفقيد العظيم ثم قال أن الاصلاح أحوج ما يكون اليهم ولا أشك أن مصطفى عبد الرازق كان في طليعة أولئك المرشدين المصلحين .

ملخص كلمة الدكتور ابراهيم اللبان

وتحدث الدكتور ابراهيم اللبان فقال : ان شخصية مصطفى عبد الرازق الوديعة الهادئة كانت تخفي وراءها شخصية عرفها ثائره ذات عزيمة جبارة وانه كان فى طليعة الكتيبه الأولى لحركة التحرير الفكرية حركة البعث الدينى والتجديد الاسلامى التى عمل لها السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وتلقى تلاميذهم والفقيد فى مقدمتهم تعاليمها عنهم فجاهدوا فى سبيل الله بنشر دعوتها وآداء رسالتها .

ومضى فقال ان من يقرأ كتب مصطفى عبد الرازق ورسالة التوحيد منها بخاصة يستطيع ان يلمس ان روح أستاذه الامام متغلغلة فيها وذكر أنه ذهب الى الأزهر عندما اختير شيخا له وفى نفسه ان يتم رسالته التي حمل أمانتها وقد ضحى فى سبيل ذلك بما كان يحمله من رتب وألقاب وذلك شأن كل مصلح كبير من أمثاله المصلحين العاملين .

ملخص كلمة الدكتور عثمان أمين

وقد بدأ الحفل الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة فى كلية الآداب جامعة القاهرة بكلمة استهلال شكر فيها بالنيابة عن الجمعية الفلسفية المصرية قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية على مساهمة فى تنظيم الاحتفال بذكرى الفقيد العظيم كما شكر الساده الحاضرين على الاشتراك فى احياء هذه الذكرى بكلماتهم أو بحضورهم ٠

ومضى فقال ان النقاد المنصفين من شرقيين وغربيين أجمعوا على ان الفقيد رحمه الله كان فيلسوفا « حكيما » بأجمل ما لهذه الكلمة من معان ٠ فلقد كانت سيرته كلها ناطقة بالحكمة حافلة بمعانى الخير والتسامح والنزاهة والسمو عن الاهواء والبعد عما يشين عند الناس ٠

ومنذ نحو نصف قرن توسم فيه الأستاذ الامام محمد عبده هذه الصفات الجميله فكتب اليه يدعو الله له ان يخلص للحق سره وان يقدره على الهداية اليه وان ينشط نفسه لجمع قومه عليه ٠

وختم كلمته فذكر فيها كلاما للفارابى فى الشرائط التى ينبغى ان تتوافر فيمن يشرع فى النظر الفلسفى تحققت فى أحلى صورها عند الشيخ مصطفى عبد الرازق ، قال انه اذا كان محمد عبده قد استحق ان يكرمه تلاميذه ومريدوه فوصفوه بصفة الأستاذ الامام ٠ فقد استحق مصطفى عبد الرازق من جميع من عرفوه ان يلقبوه باللقب الذى ارتضاه الفارابى وهو « الفيلسوف الكامل » ٠

ملخص كلمة الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى

وتحدث الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى عن الفقيد العظيم فقال : انه كان مدرسة بمعنى الكلمة له منهجه فى التفكير وأسلوبه فى البحث واتجاهه فى الدراسة وطريقته فى تكوين تلاميذه فكان منهجه مزيجا من المنهج الأزهرى التقليدى والمناهج الأوربية الحديثة ، وأما وجهته فى الدراسة فكانت اسلامية عربية ٠ واما طريقته فى البحث فتقوم على سعة الاطلاع وتحرى الدقة والرجوع الى جميع المعانى والجمع بين شتات الأفكار لأن الحقيقة مالم تعتمد على سائر وجهات النظر تخرج ناقصة مبتورة ، واما طريقته فى اعداد تلاميذه فكانت تقوم على احترام

الطالب وحرية الرأى والرفق فى النقد حتى لا يخجل الطالب فيتوقف عن البحث ويشعر بعجز ويكره العلم •

وختم كلمته بان هذه الطريقة كونت للفقيد مدرسة يرجى ان تظل نامية حتى تزهر وتثمر •

ملخص كلمة الأستاذ محمد الأسمر

وتحدث من بعده الأستاذ محمد الأسمر عن الفقيد العظيم من ناحية الانسانية فروى لنا ما أسداه من يد بيضاء وهو طالب حين ضاقت به الحياة من ناحيتها المادية والأدبية فهم بالتخلص منهـا ثم عـاد فخشى ان يسىء بذلك الى ذكراه بعد موته والى المعهد الدينى الأكبر الذى ينتمى اليه فنظم قصيدة الشيخ المنتحر ونشرتها السياسية الاسبوعية •

فاسترعت نظر الراحل العظيم حتى انه عقب عليهـا فى مجـلة السياسة واستشهد بأبيات منها فى مقالة (الســياسة) ثم كانت رعاية لصاحبها تلك الرعاية التى عاونتـه على مصاعب الحيـاة وجعلته يمضى فى مسالكها حتى يبلغ غايته •

وختم الأستاذ الأسمر كلمته بقوله :

الطالب الأزهرى الذى حدثتكم حديثـه هو الماثل أمامكم الآن فانا المدين بحيـاتى لمن تحتفلون بذكراه الليلة وكـم فى مصر والشرق من مدينين للراحل الكريم بالشىء الكثير رحم الله الشــيخ ورفع ذكره فى الخالدين •

شكر من أسرة الفقيد

وكان ختام الحفل كلمة شكر من أسرة الفقيد العظيم ألقاها شقيقه الأستاذ علىّ عبد الرازق وصوته يكاد يحتبس من شك التأثر فشكر أولا السيد رئيس الجمهورية على مشاركته فى تكريم ذكرى الفقيد ثم شكر شهود الحفلة ومن دعوا اليها أو من تحدثوا فيها •

مؤلفات الشيخ مصطفى عبد الرازق

١ ـ البهاء زهير : دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٠

٢ ـ الدين والوحي والاسلام : دار احياء الكتب العربية ١٩٤٥

٣ ـ أعلام الاسلام الامام الشافعي : دار احياء الكتب العربية ١٩٤٥

٤ ـ فيلسوف العرب والمعلم الثاني : دار احياء الكتب العربية ١٩٤٥

٥ ـ محمد عبده : دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٤٦

٦ ـ تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية مكتبة النهضة المصرية ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر .

٧ ـ آثار مصطفى عبد الرازق صفحات من سفر الحياة ومذكرات مسافر ومذكرات مقيم وآثار أخرى في الأدب والاصلاح جمعها شقيقه علي عبد الرازق ـ دار المعارف ١٩٧٥ .

٨ ـ الدرس الأول وخطبتا الجمعة مجلة الأزهر ١٧٢ ج ـ ٢ ـ

كتب ترجمها الشيخ مصطفى عبد الرازق

١ ـ رسالة التوحيد : للامام محمد عبده ترجمها الى الفرنسية مع صديقه برنارد ميشيل .

٢ ـ طيف ملكي : قدرية حسين ترجمها الى العربية مطبعة المقتطف ١٩٣٠

٣ ـ ترجم بالاشتراك مع برنار ميشيل كتاب الامام عن العقيدة الاسلامية

مقدمات كتبها الشيخ مصطفى عبد الرازق

١ ـ مقدمة كتاب (الاسلام والتجديد في مصر) تشارلز آدمز ترجمة عباس محمود .

٢ ـ مقدمة كتاب (موسى بن ميمون) حياته ومصنفاته ـ اسرائيل ولفنسون مطبعة لجنة التاليف والنشر ١٩٣٦ م .

٣ ـ خمس مقالات كتبهـا الشـيخ مصطفى عبد الرازق عن الامام محمد عبده وحجته فى الاصلاح الدينى ـ جريدة السياسة ٠

١ ـ الأستاذ الامام (مقال السـياسة الاسبوعية) بعددى ٣/٢٦ ، ١٩٧٢/٦/٤

٢ ـ سيرة محمد عبـده الطبعة الثالثـة من مجـلة العـروة الوثقى القاهرة ١٩٢٨ ٠

٣ ـ أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده مجلة الشباب ١٩٢٦/٢/١٧٠

٤ ـ الشيخ عبده والاحسان مجلة الراديو ١٩٤١/٧/٢٦ ٠

٥ ـ النامية الفلسفية فى ابن الهيثم ٠

٦ ـ الصوفية والفرق الاسلامية ـ مقالة ألقاها فضيلته فى مؤتمر تاريخ الأديان بلندن سنة ١٩٣٢ م ونشرها د ٠ على النشـار مع مقدمة كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازى ٠

اهم ماكتب عن الشيخ مصطفى عبد الرازق :

١ ـ أحمد أمين مقال فى مجلة الثقافة فى ١٩٤٧/٤/١ بعنوان الشيخ مصطفى عبد الرازق ٠

٢ ـ أبو العلا عفيفى مقال فى مجـلة الثقافة فى ١٩٤٧/٣/٤ بعنوان (مامات من خلف مسيرة كسيرته) ٠

٣ ـ عثمان أمين مقال فى مجلة الشرق الجديد فى يونية ١٩٤٥ بعنوان أستاذى ٠

٤ ـ عثمان أمين مقال فى الأهرام ١٩٥٣/٢/١٥ بعنوان رسـالة مصطفى عبد الرازق ٠

٥ ـ عثمان أمين بحث فى تراث الانسانية عدد نوفمبر ١٩٦٥ المجلد الثالث ٠

٦ ـ عثمان أمـين دائـرة معـارف الشعب كتاب الشعب ١١٨ ص ٥٧٥ ـ ٥٨٠

٧ ـ عثمان أمين رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده الانجلو المصرية ١٩٦٥

٨ ـ عثمان أمين فصـــل في كتابه ٠
Lights on Contemporary Moslem Philosophy,
The Renaissance Bookshop Cairo, 9158.

٩ ـ محمد مصطفى حلمى مجلة الفكر المعاصر العدد الرابع يونية ١٩٦٥

١٠ـ G. Anawati, «Une figure de praue Mustafa abdel Razek, Bulletin de l'institut d'areheologie Orientale 1960.

رســـائل عليمة

رسالة ماجستير : الانســـان عنـد مصطفى عبد الرازق مقـــدمة من علي عبد الفتاح أحمد الى كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧ ٠

رسالة ماجستير : مقدمة الى جامعة المغرب عن أثر مصطفى عبد الرازق فى الفلسفة الاســـلامية ٠

رســالة ماجســتير : مقدمة الى كلية اللغة العربيـة جامعة الأزهر فرع أسيوط آثر مصطفى عبد الرازق فى الحركة الأدبية ٠

الفهـــرس

رقم الصفحة

جمهورية مصر العربية

مطبوعات
المجلس الأعلى للثقافة

رقم
٢٥٦

القاهرة
١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤١٨٣ / ١٩٨٢

ISBN ٩٧٧ ـ ٧٣١٩ ـ ٢٦ ـ ٦

مطابع الهيئة المصرية العامة